روايات عالمية

العدد ٤٨٤ - أول يونيو ١٩٦٨

من الأدب الروسى

أحبك حيا وميتا

تأليف: إيڤان تورجنيف

ترجمة: عبد الوهاب سالم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

روايات عالمية

العدد ٤٨٤ - أول يونيو ١٩٦٨

من الأدب الروسى

أحبك حيا وميتا

تأليف : إيفان تورجنيف

ترجمة : عبد الوهاب سالم

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

نقلت إلى العربية عن رواية

On The Eve

by

Ivau Turgenev

الشخصيات الهامة :

انا فاسيليفنا ستاكوفا

Anna Vasilyevna Stakova

اندريا بتروفتش برزنيف

Andrei Petrovich Bersenev

اوجاستينا كريستيانوفا

Augustina Christianova

دمتري نيكانوروفتش انزاروف

Dmitry Nikanorovich Insarov

بافل يوكو فليفتش شوبين

Pavel Yokovlevich Shubin

كاتيا

Katya

نيكولاي ارتيميفتش ستاكوف

Nikolai Artemyevich Stakhov

يلينا نيكولايفنا

Yelena Nikolayevna

يوفار ايفانوفتش

Uvar Ivanovich

زويانيكيتشنا مولر

Zoya Nikitichna Muller

(١)

ذات يوم من أيام الصيف الحارة عام ١٨٥٣ استلقى شابان فى ظل شجرة كبيرة من أشجار الليمون على نهر موسكفا بالقرب من كونتسرفو أحدهما فارع القوام يناهز الثالثة والعشرين ذو أنف مدبب وجبهة عريضة ، وقد رقد على ظهره واخذ يمد بصره بعيدا وهو يفكر وقد ضاقت عيناه الصغيرتان الرماديتان قليلا وظهرت على شفتيه العريضتين ابتسامة مكبوتة ٠

أما الآخر فقد انبطح على بطنه وأخذ هو الآخر يتطلع الى الأفق البعيد وقد أسند رأسه الأشقر على يديه ٠ كان يكبر صديقه بثلاث سنوات الا أنه كان يبدو أصغر منه كثيرا بشاربه الذى لم يكد ينبت وزغب ذقنه الخفيف وكانت ملامح وجهه الدقيقة تنطق بشىء من براءة الطفولة وسحرها كما كانت عيناه العسليتان وشفتاه المتلثتان تنمان عن هذه البراءة ذاتها ٠ وكان منظره بصفة عامة ينم عن الصحة والسعادة وسحر الشباب الذى خلا قلبه من الهموم ٠ وكان يغلق عينيه ويبتسم أو يرفع رأسه الى أعلى كصبى يعرف أن الناس تحب أن تنظر اليه ٠ وكان

يرتدى معطفا أبيض فضفاضا ، ويلف حول عنقه النحيل منديلا أزرق وقد وضع قبعته المصنوعة من القش الى جواره على الحشيش ٠

أما صديقه فكان يبدو مسنا وهو يرقد الى جانبه ولم يكن فى مظهره ما يدل على أنه يستمتع بوقته ٠ كان أسمه اندريا بتروفتش برزنيف ، بينما صديقه ذو الشعر الأشقر يدعى باقل يوكو فليفتش شوبين ٠

وابتدر شوبين صاحبه : لماذا لا تستلقى على بطنك مثلى ؟ ان ذلك أفضل بكثير ولا سيما عندما ترفع قدميك وتدق كعبيك بعضها ببعض هكذا ٠ ان الحشيش يكون تحت أنفك مباشرة فاذا سئمت من التأمل فى المنظر الطبيعى الذى أمامك فانك تستطيع أن تنظر الى دابة وهى تقف على احدى الحشائش أو الى النملة التى لا تكل ولا تمل ٠ أؤكد لك أن هذا أفضل من وضعك الذى يشبه راقص الباليه وهو يستند الى صخرة من ورق الكارتون ٠ قل لنفسك ان لك الحق فى أن تستريح الآن ، ومما لاشك فيه أن كونك الثالث فى الترتيب ليس بالأمر الهين ٠ استرخ يا صديقى ولا ترهق نفسك ٠

ألقى شوبين هذه الكلمات بلهجة مرحة مازحة أشبه بلهجة طفل مدلل يتحدث الى أحد أصدقاء الأسرة الذين يأتونه بالحلوى٠ ولما لم يتلق ردا قال: ان مايدهشنى كثيرا فى النمل والهوام وغيرهما من الحشرات هو جديتها المدهشة٠

انها تزحف الى أعلى وأسفل وتبدو جادة وكأن حياتها هى الأخرى لها أهميتها • وهاهو انسان • والانسان سيد المخلوقات وأرقاها ـ يحملق فيها وهى لاتبالى • والأدهى من ذلك أن بعض الحشرات الدقيقة يحلو لها أن تستقر على أنف سيد المخلوقات وتتعدى عليها • ان هذا لأمر مشين • ومع ذلك فلنفكر فى هذا الموضوع ـ لماذا نحتقر هذه الحشرات ؟ ولماذا لا تتباهى هذه الحشرات بنفسها مثلنا ؟ هيا أيها الفيلسوف حل لنا هذه المشكلة • لماذا لا ترد ؟

فتحرك برزنيف وسأل : ماذا قلت ؟

ماذا قلت ؟ صديقك يعرض أفكارا عميقة ولكنك لا تنصت اليه •

كنت استمتع بالنظر • انظر الى هذه الحقول كيف تضوى تحت أشعة الشمس •• ألوان رائعة حقا • هذه هى الطبيعة فى أبهى حللها •

فهز برزنيف رأسه قائلا :

عليك أن تظهر اعجابك بهذه الأشياء اكثر منى فهذا يتفق مع ميولك حيث انك فنان •

لا ياسيدى ليس الأمر كذلك • ان عملى يتعلق بالجسد • اننى أصنع نماذج للأكتاف والسيقان والأذرع • أما هذا المنظر فليس له شكل محدد بل انه يتبعثر على بقعة واسعة • ولا سبيل الى التقاطه •

ـ ولكن فيه جمالا أيضا • على فكرة هل انتهيت من عمل التمثال ؟

ـ أى تمثال •

ـ تمثال الطفل والعنزة •

ـ لا أهمية لهذا •• لقد ألقيت نظرة على الأعمال الفنية لبعض الفنانين القدامى ثم حطمت التمثال الذى بدأته • انك تقول وأنت تشير الى المنظر الطبيعى ، ان فيه جمالا أيضا • هناك جمال فى كل شىء ، لا شك فى هذا ، حتى فى أنفك ، ولكنك لا تستطيع أن تتابع كل شىء جميل • فالقدماء لم يضطروا لمتابعة الجمال ولكن الجمال كان يهبط على أعمالهم من مكان لا يعرفه الا الله •• ربما من السماء • كان العالم كله عالمهم • ولكننا لا نستطيع أن نحيط به كله ، فنحن أضعف من ذلك • اننا نلقى بسنارتنا عند نقطة صغيرة ونراقبها ، ويواتينا الحظ ان نحن حظينا بشىء • أما اذا لم نحظ به •• وأخرج شوبين لسانه •

ـ فرد برزنيف : على رسلك فهذا موقف فيه تناقض انه إذا لم تشعر بالجمال واذا لم تقدره حيثما وجدته تشعر به فى قلبك • فاذا لم يبعث المنظر الجميل أو الموسيقى الجميلة برسالة الى قلبك •• أعنى انك اذا لم تشعر بالجمال •

ـ فقاطعه شوبين وهو يضحك قائلا : بالطبع انك

شاطر وفيلسوف متخرج فى جامعة موسكو ومن الصعب مجادلتك ولا سيما بالنسبة لطالب طب مثلى لم يتم دراسته بعد · ولكن دعنى أقل لك اننى فضلا على فنى ـ أحب الجمال فى النساء وفى الفتيات ولو أن هذا لم يحدث الا أخيرا ·

ـ ثم استدار على ظهره ووضع يديه تحت رأسه · وسار الصمت بينهما هنيهة وقد غيم السكون والقيظ على المكان ·

ـ وقال شوبين وهو يقطع حبل الصمت : أما وقد تحدثت عن النساء لماذا لا يصطحب أحدهم ستاكوف ؟ هل رأيته فى موسكو ؟

ـ كلا ·

لقد فقد الرجل العجوز عقله · انه ملازم لأوجاستينا كريستيانوفا طول اليوم لا يمل · انهما يجلسان معا ويحدق كل منهما فى الآخر · ياللحماقة ! لقد وهب الله هذا الرجل أسرة رائعة ، ولكنه يتعلق باهداب أوجاستينا كريستيانوفا · لم أر فى حياتى شيئا أقبح من وجهها الذى يشبه وجه الأوزة · وقد رسمت لهـا نموذجا كاريكاتوريا لا بأس به سوف أطلعك عليه ·

ـ فسأله برزنيف : والتمثال النصفى ليلينا نيكولايفنا ؟ هل انتهيت منه ؟

كلا · ان لها وجها فى منتهى الجمال واضح الملامح دقيق التقاطيع حتى ليخيل اليك لأول وهلة أنه يستهل عليك أن تعمل له تمثالا ولكنك تكتشف بعد ذلك أن الأمر ليس بهذه السهولة · هل لاحظتها وهى تنصت ؟ انها تنصت دون أن تتغير ملامح وجهها · نظرة عينيها هى التى تتغير ويبدو أنها تغير كل كيانها · ما الذى يستطيع مثال أن يفعله فى مثل هذه الحالة خصوصا اذا كان فنانا بسيطا مثلى ؟ انها مخلوقة مدهشة ـ ثم أضاف بعد برهة وجيزة : شخصية غريبة ·

ـ فرد برزنيف : فعلا · انها فتاة مدهشة ·

ورغم ذلك فهى ابنة ستاكوف ، وقل بعد ذلك ما تشاء عن الوراثة والأجناس · والغريب أن أى انسان يستطيع أن يحكم أنها ابنة ستاكوف · انها تشبهه كما انها تشبه أمها أنا فاسيليفنا · اننى أحمل لأنا فاسيليفنا كل تقدير · انها تشملنى بعطفها · ولكنها بلهاء · من أين اذن ليلينا هذا الذكاء ؟ ومن ذا الذى أوقد الشعلة فيها ؟ هذه معضلة أخرى عليك حلها أيها الفيلسوف ·

ولكن « الفيلسوف » لم ينبس بكلمة فانه لم يكن ثرثارا بطبعه وكان اذا تحدث تلعثم وأكثر الاشارة بيديه · وقد هبط عليه هذه المرة هدوء غريب ، هدوء قريب من الاجهاد والكآبة · وكان قد غادر المدينة منذ قليل بعد أن أتم عملا من الاعمال الشاقة المضنية التى استغرقت ساعات طويلة من وقته عدة أيام وكانت تختلج فى قرارة

نفسه انطباعات ومشاعر مختلفة منها المهدىء ومنها المثير وكان شابا شديد الحساسية ٠

كان الجو لطيفا هادئا تحت شجرة الليمون ٠ أعواد الحشائش ساكنة ، زهور الليمون تتدلى جميلة من الشجرة تحمل عبيرها الى الصدور ، والمنطقة عبر النهر تسبح فى ضوء الشمس القوى وقد سكنت الطيور واخذت بعض الحشرات الصغيرة تقفز هنا وهناك ٠ وكان الرقود فى ظل شجرة الليمون ممتعا لذيذا يجلب النعاس ويثير جميل الاحلام ٠

وتحدث برزنيف فجأة فقال : هل لاحظت ذلك الشعور الغريب الذى تثيره فينا الطبيعة ؟ انها تزخر بكل شىء ونحن نرى ذلك ونعجب بها ٠ ولكنها تثير فى نفسى دائما شعورا بالقلق الذى يصل أحيانا الى حد الحزن ٠ فما سر ذلك ؟ ربما لاننا نشعر عندما نتأملها بما فينا من نقص أم ترى أن ما يرضيها هى لا يعتبر كافيا بالنسبة لنا ٠

ـ فرد شوبين : سأخبرك يا بتروفتش عن مصدر كل هذا ٠ لقد وصفت لتوك مشاعر انسان يحس بالوحدة، انسان لا يعيش ولكنه ينظر الى ما حوله ثم يغيب فى ذهول طويل ٠ ولكن لم تنظر حولك ؟ استمتع بحياتك وستجد أن كل شىء قد أصبح على ما يرام ٠ انك قد تطرق باب الطبيعة لأى فترة تحلو لك ولكنها لن تجيبك اجابة تفهمها ٠

ـ انها تصدر رنينا كالرنين الذى يصدر عن سلك مشدود ولكنك تخطىء اذا انتظرت منها أن تشدو لك بأغنية ٠ أنها روح حية تستجيب ٠ انها امرأة ٠ واذا كان الأمر كذلك يا صديقى فاننى انصحك أن تجد رفيقة لقلبك وعندئذ سيختفى فى الحال كل ما تشعر به من حزن ٠ ان هذا هو ما « نحتاجه » على حد قولك ٠ هذا القلق وهذا الحزن هما فى الواقع نوع من الجوع ٠ فتناول الطعام تسر الامور على مايرام ٠٠ خذ مكانك فى هذه الدنيا يا صديقى وكن صلبا قويا ٠ ولنتساءل الآن ما هى الطبيعة وما هو الغرض منها ؟ : استمع الى يا صديقى : الحب ـ يالها من كلمة قوية ملتهبة ! ٠٠ الطبيعة ٠٠ يا لها من تعبير مدرسى بارد ٠٠ اذن فلتحيا ماريا بتروفنا أو بالأحرى ٠٠ أظنك تفهمنى ؟

ـ واعتدل برزنيف واسند رأسه على يديه ثم قال : هل من الضرورى أن تظهر استهزاءك وسخريتك ؟ أنت على حق فى أن الحب كلمة عظيمة كما أنه شعور عظيم ٠ ولكن أى أنواع الحب تعنى ؟؟

ـ واعتدل شوبين هو الآخر ثم قال : تسألنى أى نوع من الحب أعنى ؟ أى حب مادام حبا ٠ أنا بصراحة لا أعتقد أن هناك أنواعا مختلفة من الحب ٠ انك اذا احببت ـ

ـ قال برزنيف مقاطعا : بكل قلبك ٠

ـ هذا شيء مفروغ فيه ، فالقلب ليس تفاحة يمكن قسمتها انك اذا أحببت فانت على حق • وانا لم أقصد أن أسخر أو استهزيء ، فان قلبي في الوقت الحاضر ملء بالرقة والحنان • لقد كنت احاول أن أبين السبب في ان الطبيعة تؤثر فينا بالطريقة التي عبرت أنت عنها • انها تفعل ذلك لانها توقظ فينا الحاجة الى الحب وهي الحاجة التي لا تستطيع هي ارضاءها ، انها تدفعنا برفق الى أحضان أخرى دافئة ولكننا لانفهمها ونتوقع منها هي شيئا ما • آه يا اندريا أن كل ما حولنا مدهش فالسماء والشمس وكل شيء غاية في الجمال ولكنك رغم ذلك تشعر بالحزن • ولكنك اذا كنت في هذه اللحظة تمسك في يدك يد امرأة تحبها واذا كانت هذه اليد وهذه المرأة ملكا لك واذا كنت ترى الاشياء بعينيها وتشعر بها بشعورها فلن تثير الطبيعة فيك الشعور بالحزن أو القلق، كما أنك لن تلاحظ جمال الطبيعة ولكنها هي ستبتهج وتترنم بترنيمتك لأنك تكون قد وهبتها لسانا •

ـ وهب شوبين واقفا وأخذ يسير جيئة وذهابا بينما أحنى برزنيف رأسه واعترى وجهه بعض شحوب ثم قال : انني لا اوافقك تماما فالطبيعة لا توحي دائما بالحب بل انها تهددنا أيضا كما أنها تذكرنا بأسرار مخيفة غامضة• أليس قدرا محتوما علينا أن تبتلعنا الطبيعة ؟ الا تبتلعنا الطبيعة على الدوام ؟ الطبيعة هي الحياة والموت وللموت فيها نصيب كنصيب الحياة تماما •

ـ وقاطعه شوبين قائلا : هناك حياة وموت في الحب أيضا •

ـ واستمر برزنيف يقول : عندما أقف في غابة وسط الأشجار في الربيع وأتخيل أنني أسمع صوت مزمار أو أشعار بيرون الساحرة ••

وحينئذ شعر برزنيف بشيء من الخجل ثم أردف : أليس ذلك •• ؟

ـ فقال شوبين : انه اشتهاء للحب واشتهاء للسعادة لا أكثر • انني أعرف هذه الأصوات كما أعرف المشاعر الدقيقة والآمال التي تطوف برأس الانسان وهو في ظلال الغابة أو وهو في الريف وقت المساء عندما تغرب الشمس ويكتنف الضباب صفحة النهر • ولكنني أتوقع وأريد أن أحصل على قدر من السعادة من الغابة ومن النهر ومن الأرض ومن السماء والسحاب ومن كل عود من أعواد الحشيش • انني أشعر بها وهي قادمة واسمع نداءها في كل شيء • نحن نتوق الى السعادة في شبابنا ونملك زمام قدراتنا في طريق الصعود لا في طريق الهبوط • نحن لا نزال في شرخ الشباب كما اننا لسنا أغبياء أو مشوهين، ولسوف نظفر حتما بالسعادة •

وحرك رأسه ونظر الى السماء نظرة كلها ثقة • والتفت برزنيف اليه ثم قال : انك تتحدث وكأن ليس هناك ما هو أكثر أهمية من السعادة •

ـ فقال شوبين : وما هو الشيء الذى يفوق السعادة أهمية ؟

ـ فأجاب برزنيف : ها نحن هنا أنا وأنت · وكلانا فى شرخ الشباب كما تقول ولنفترض اننا لسنا فى حالة سيئة وأن كلا منا يريد أن يكون سعيدا · هل هذه « السعادة » كلمة تستطيع أن تجمع بيننا وتثير فينا نفس المشاعر التى تجعلنا يدا واحدة ؟ ، أليست هذه الكلمة كلمة تنطوى على أنانية ـ أى تفرق أكثر مما توحد ؟ ·

ـ هل تعرف أى كلمات توحد بين الناس ؟

ـ نعم أعرف منها الكثير ، شأنى فى ذلك شأنك ·

ـ أنا اعرفها ؟ ما هى هذه الكلمات ؟

ـ منها الفن ، فانت فنان ، ومنها أرض الوطن والعلم والحرية والعدالة ·

ـ وما رأيك فى كلمة الحب ؟

ـ كلمة الحب أيضا من الكلمات التى توحد ولكن هذا الحب ليس هو الحب الذى تتلهف عليه ولا هو الحب كمتعة ولكنه الحب كتضحية ·

ـ وقطب شوبين حاجبيه وقال : هذا يناسب الألمان فى تفكيرهم ولكننى أريد أن أحب لأمتع نفسى · أريد أن أشغل المكان الأول فرد عليه برزنيف : المكان الأول ؟ أنا أعتقد أننا خلقنا لنضع انفسنا فى المكان الثانى ·

ـ ورد عليه شوبين قائلا : اذا فعل كل شخص كما تقول فسوف لا يذوق أحد التفاح لان كل شخص سوف يعطيه لغيره ·

ـ قال برزنيف : هذا يعنى أنه ليست هناك حاجة للتفاح · أؤكد لك ان هناك دائما من هم على استعداد لخطف طعام الآخرين ·

ـ وساد الصمت بين الصديقين برهة · ثم قطعه برزنيف بقوله : لقد قابلت انزاروف مرة أخرى منذ أيام وطلبت اليه أن يأتى لزيارتى · بودى أن أقدمه لك ولعائلة ستاكوف ·

ـ ومن يكون أنزاروف هذا ؟ هل هو ذلك البلغارى الذى حدثتنى عنه ؟ لعله هو الذى أوحى اليك بكل هذه الآراء الفلسفية ·

ـ ربما ·

ـ شخص غير عادى ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ·

ـ ذكى وموهوب ·

ـ انه ذكى ، ولكننى لا أعرف ان كان موهوبا أم لا ، ولو أننى لا أعتقد أنه كذلك ·

ـ فيم يبرز اذن !

ـ سترى · والآن أعتقد أن الوقت قد حان للعودة ولابد أن أنا فاسيليفنا فى انتظارنا · كم الساعة الآن ؟

ـ لقد تجاوزت الثانية · هلم بنا · ان الجو حار ، وكانت هذه المناقشة تثير الدم فى عروقى ، كما كانت هناك لحظات كنت أنت تثير غضبى · اننى فنان وأستطيع أن أرى كل شيء · قل لى بصراحة هل هناك امرأة بعينها تثير اهتمامك ؟

وتفحص شوبين وجه برزنيف ليرى تأثير سؤاله ولكن برزنيف استدار وخرج من ظل الشجرة · وتبعه شوبين · وسار برزنيف وقد رفع كتفيه ومد رقبته · ورغم ذلك فقد كان يبدو محترما أكثر من شوبين ·

(٢)

هبط الشابان الى شاطىء النهر وسارا بمحازاة الشاطىء وكانت المياه تجلب الانتعاش والاطمئنان ·

ـ وقال شوبين : كم اتمنى أن أنزل للسباحة فى الماء مرة أخرى ولكننى أخشى أن تتأخر · انظر الى النهر وكأنه ينادينا ·· يا الهى ، متى تتاح لى فرصة للذهاب الى ايطاليا ؟ متى ·· ؟

ـ لعلك تعنى متى ستذهب الى أوكرانيا ·

ـ يجدر بك أن تخجل من نفسك ياأندريه بتروفتش، انك تلومنى على خطوة منهورة أسفت عليها اشد الأسف ·

لقد اخطأت وما فى ذلك شك · فقد اعطتنى انا فاسيليفنا نقودا · للقيام برحلة الى ايطاليا ولكننى بدلا من الذهاب الى ايطاليا ذهبت الى اوكرانيا لآكل الفطائر و ···

ـ فقاطعه برزنيف قائلا : لا داعى لاكمال حديثك فانا اعرف ما تريد أن تقول ·

ـ دعنى أقل لك ان هذه النقود التى صرفتها لم تضع سدى فقد رأيت هناك انواعا كثيرة من الناس ولاسيما النساء انا أعلم طبعا انه ليست هناك حرية كما فىايطاليا ·· سنذهب الى ايطاليا ولا تفعل شيئا هناك · سترفرف بجناحيك دون أن تطير · انا اعرف امثالك ·

ـ لقد طار ستافاسر الى ايطاليا اليس كذلك ، ولم يكن الشخص الوحيد الذى طار · واذا لم استطع أنا أن أطير فان هذا سيعنى اننى كطائر البطريق ـ طائر بلا أجنحة · اننى افتقد الهواء هنا اريد الذهاب الى ايطاليا ففيها ضوء الشمس وفيها الجمال ·

وظهرت ، فى تلك اللحظة ، فتاة تلبس قبعة من القش وتحمل مظلة قرمزية وتسير فى نفس الطريق الذى كان يسير فيه الصديقان ·

ـ وصاح شوبين فجأة : ما هذا الذى أرى ؟ لقد أتى الجمال لمقابلتنا حتى فى هذا المكان تحية الى زويا الساحرة من فنان بسيط ·

ورفع قبعته بطريقة مسرحية فوقفت الفتاة وهى تهز

اصبعها تجاهه وظلت واقفة حتى وصل اليها الصديقان فقالت لهما بصوت رقيق : لماذا لم تحضرا لتناول الغذاء ايها السيدان والطعام معد ؟

ـ فقال شوبين باستغراب : هل حقيقة ما أسمع ؟ هل أتيت انت يا زويا فى هذا الطقس الحار لاصطحابنا ؟ أهذا هو ما أستطيع أن أفهمه من كلامك ؟ حدثينى : هل الأمر كذلك ·· كلا ·· لا تفعلى والا سـقطت ميتا من تأنيب الضمير ·

ـ قالت الفتـاة : كفى يا بافل ياكوفليفتش · ألا تستطيع أن تتحدث الى حديثا جادا ؟ هل تريد اغضابى ؟

قالت هذا السؤال الأخير ومدت شفتيها فى شىء من الدلال ·

ـ فرد عليها قائلا : انت لا يمكن أن تغضبى منى يا زويا نيكيتشنا · انت لا تقبلين أن تلقى بى فى أعماق اليأس القاتل · اما فيما يختص بالحديث الجدى فهو فوق طاقتى لانى لست رجلا جادا ·

ـ وهزت الفتاة كتفيها والتفتت الى برزنيف وقالت: هذه هى الطريقة التى يعاملنى بها دائما · انه يعاملنى وكأننى طفلة صغيرة ولكننى قد جاوزت الثامنة عشرة ونضجت ·

ـ فقال شوبين : يا اله السماوات ··

قال هذا وقد رفع عينيه نحو السماء بينما ابتسم برزنيف ·

ودقت الفتاة الأرض بقدمها وقالت : سأغضب منك يا بافل يا كوفيليفتش ·· سأغضب بجد · لقد خرجت هيلين معى ولكنها فضلت البقاء فى الحديقة خوفا من شدة الحرارة ولكننى لا أخاف الحرارة · هلم بنا ·

قالت ذلك وتقدمتهما فى الطريق وهى تتثنى فى مشيتها مع كل خطوة بينما راحت تحرك خصلات شعرها الحريرى من على وجهها بيدها الرقيقة ·

وتبعها الصديقان وكان شوبين يضغط قلبه بيديه من آن لآخر دون أن يتكلم · ووصلا بعد دقائق الى كوخ من الأكواخ العديدة التى تحيط بكونتوسوفو · كوخ خشبى قرمزى اللون بين أشجار تتوسط حديقة جميلة · وفتحت زويا الباب ودخلت الى الحديقة وصاحت : لقد أحضرت الرجلين التائهين · وهنا قامت فتاة شابة ذات وجه جميل معبر من أحد المقاعد بجانب الممر لاستقبالهما · كما ظهرت احدى السيدات على عتبة الكوخ وقد ارتدت ثوبا حريريا ورفعت فى يدها منديلا فوق رأسها تتقى به الشمس ، وابتسمت لهم بفتور ·

(٣)

كانت أنا فاسيليفنا ستاكوفا قد فقدت والديها وهى فى سن السابعة وورثت مزرعة كبيرة • وكان لها أقارب على جانب كبير من الثراء وأقارب يعيشون فى فقر مدقع• وكان أقاربها الفقراء من أسرة والدها، أما أقاربها الأغنياء ، ومنهم السناتور فولجين والأمير تشيكوراتروف ، فكانوا من أسرة والدتها•وقد ألحقها الأمير ارداليون تشيكورازوف بأرقى المدارس الداخليــــة فى موســـكو وضمهــا الى أسرته بعد أن أتمت تعليمها فيها • وكان يقيم فى بيته الكثير من حفلات الرقص ولا سـيما فى الشـتاء • وقد قابلها نيكولاى أرتيميفتش ستاكوف الذى تزوجها ، فيما بعد ، فى احدى هذه الحفلات الراقصـة وكانت ترتدى فيها ثوبا قرمزيا جميلا• •

كان ستاكوف ابن ضابط متقاعد جرح عام ١٨١٢ وكوفىء بوظيفة مريحـة فى بطرسـبورج • وقد التحق ستاكوف بالمدرسة الحربية وهو فى السادسـة عشرة ، وبعد أن أكمل دراسته التحق بالحرس الامبراطورى • كان وسيما قوى البنية ، يجيد الرقص فى الحفلات التى كان يقيمها مجتمع الطبقة الوسطى اذ كان الطريق الى المجتمع الراقى مغلقا أمامه •وكان منذ باكورة شبابه يتوق لتحقيق أملين : أن يعمل فى حرس الامبراطور ، ثم أن يتزوج فتاة

غنية • ولكنه سرعان ما تخلى عن الأمل الأول وتعلق بالثانى أكثر وأكثر فكان يذهب الى موســكو كل شـتاء • وكان يتحدث بالفرنسية بطلاقة • لم يكن يعاقر الخمر ، لذا فقد اشتهر بأنه فيلسوف • وكان يحب الجدل والمناقشة •

ـ وكان ستاكوف فى الخامســة والعشرين عندما أوقع فى شباكه أنافاسيليفنا فترك خدمة الجيش وتفرغ لادارة المزرعة التى جاءته بها على سبيل « الدوطة » ولكنه سرعان ما مل حياة الريف • ولما كان مسـتأجرو الأرض يدفعون ايجارهــا بانتظام فلم تكن ثمة حاجة لبقائه فيها فانتقل الى بيت زوجته فى موسكو • ولم يكن يمارس أى رياضة فى شـــبابه ، فاتجه فى هذا الوقت للعب القمار وعندما حرمته الحكومة تحول الى غيره من العاب الورق • ثم سئم حياته العائلية فتعرف على أرملة من أصل المانى وكان يمضى معظم وقته فى بيتها •

وفى صيف عام ١٨٥٣ لم يرحل الى كونتسوفو بل بقى فى موسـكو حتى لا يبتعد عنها • رغم ذلك فانه لم يكن يكثر التحدث معها ، وكان حديثه ، اذا فعل ، يدور حول موضوعات جدلية ، وقد أطلق عليه أحدهم اســـم « المجادل » وأعجبه هذا اللقب ، وكان يقول : ليس من السهل اقناعى ولا يستطيع أحد أن يخدعنى • ولكنه لم يدر أن اوجاستينا كريستيا نوفا الأرملة كانت تسميه « المخرف » فى خطاباتها التى كانت ترسلها الى ابنة خالها تيودوليندا بيترسيليوس •

كانت أنا فاسيليفنا زوجة ستاكوف امرأة نحيلة القوام ذات تقاطيع دقيقة يغلب عليها طابع الحزن • وكانت وهى بالمدرسة الداخلية مولعة بالموسيقى وقراءة القصص ثم تركت هاتين الهوايتين للعناية بنفسها وبجمالها ثم تركت هذه أيضا • ولما تزوجت وانجبت ابنتها كرست نفسها للعناية بها ، ولكنها سرعان ما تخلت عن العناية بها وتركتها للمربية • ولم تفعل شيئا بعد ذلك بل أسلمت نفسها للحزن • وكانت صحتها قد ساءت عندما وضعت ابنتها يلينا نيكولايفنا الى درجة أن أصبحت لا تتحمل المزيد من الأعباء أو انجاب أطفال وهو أمر كان ستاكوف يشير اليه تبريرا لعلاقته مع الأرملة • وكانت أنا فاسيليفنا شديدة الحزن ازاء جحود زوجها • وقد آلمها أبلغ الألم أنه أهدى ذات مرة للأرملة حصانين أشهبين من حظيرتها الخاصة • ولم تحاول بتاتا أن توجه اليه اللوم وجها لوجه ولكنها كانت تشكوه لكل من فى البيت حتى لابنتها • ورغم أنها كانت لا تحب الخروج الا أنها كانت تشعر بكثير من الارتياح اذا زارها أحد ، اما اذا خلت الى نفسها فانها كانت تستسلم للحزن • كان قلبها رقيقا وطيبا ، وسرعان ما حطمتها الحياة •

كان بافل ياكوفليفتش شوبين من أقاربها الأباعد • وكان والده يعمل فى الوظائف المدنية فى موسكو • وكان اخوته قد التحقوا بالمدرسة الحربية ، وكان هو أصغرهم ، وكانت صحته معتلة ، فكان محل عناية والدته واهتمامها، فبقى فى البيت • وكان والداه ينويان أن يلحقاه بالجامعة وقدما له كل ما يستطيعان من عون فى هذا السبيل • وقد أظهر منذ البداية ميلا للنحت • ورأى السناتور فولجين ذات يوم تمثالا صغيرا من صنع هذا الصبى وكان فى السادسة عشرة فى منزل خالته فأعجب به وأعلن أنه سوف يحتضن هذا الشاب الموهوب • ثم تسبب موت والده المفاجئ فى تغيير مجرى حياته • وكان كل ما فعله السناتور من أجله هو أن أهداه تمثالا من الجبس لهومر • أما أنا فاسيسليفنا فكانت تقدم له العون المادى • وقد استطاع وهو فى التاسعة عشرة أن يلتحق بمدرسة الطب بالجامعة ، ولكنه لم يكن لديه ميل لدراسة الطب • على أن الظروف فى ذلك الوقت لم تمكنه من الالتحاق بأية مدرسة أخرى ، كما أنه كان يعتزم دراسة التشريح • ومع ذلك لم يدرس التشريح ، فقد ترك الجامعة بمحض ارادته قبل نهاية السنة الأولى لكى يتفرغ كلية للفن الذى أحبه • وأخذ يعمل بجد واجتهاد ولكنه كان يفعل ذلك فى فترات دون أخرى • وراح يتجول فى ضواحى موسكو يرسم صورا للريفيات • وكان يلقى كثيرا من الشخصيات كبيرة وصغيرة وبعض العظماء والنحاتين الايطاليين والفنانين الروس ، ولكنه كان يرفض فكرة الالتحاق بالأكاديمية ، كما كان يرفض الاعتراف بأى أستاذ • كان موهوبا بالفعل وقد ذاع صيته فى موسكو • وكانت والدته قد

علمته الفرنسية فقد ولدت فى باريس وكانت تنتمى الى عائلة طيبة • وأخذت ترعى شئونه وتسهر على راحته • وكانت فخورة به • وعندما كانت على فراش الموت ، وقد عصف بحياتها مرض السل رغم صغر سنها ، أوصت أنا فاسيليفنا بالعناية به ، وكان حينـذاك فى الواحـدة والعشرين • ونفذت أنا فاسيليفنا وصـية الأم وخصصت له غرفة فى بيتها •

(٤)

ـ قالت ربة البيت لضيوفها : هلموا لتناول الغذاء •

فساروا جميعا الى حجرة المائدة • ثم قالت : اجلسى الى جانبى يا زويا واعتنى ياهيلين بأمر ضـيفنا • أما انت يابول فارجوك أن تكف عن مضايقة زويا • اننى اليوم أشكو من الصداع • ورفع شوبين عينيه الى أعلى فالتقتا بعينى زويا التى ابتسمت له ابتسامة خفيفة • كانت زويا نيكيتشنا فولر فتاة جميلة من أصل ألمانى روسى ، شقراء ممتلئة القوام ذات أنف دقيق وشفتين رقيقتين قرمزيتين وكانت تستطيع أن تغنى بعض الاغانى الروسية باتقان كما كانت تجيد كثيرا من الألعاب البسيطة ، وتتقن العزف على البيانو فى روح مرحه منطلقة • وكانت تهتم بمظهرها وأناقتها وقد أحضرتها أنا فاسيليفنا لتكون رفيقة لابنتها ولكنها كانت تستبقيها دائما الى جوارها هى •

ولم تكن يلينا تشكو من هذا ، اذ انها عندما كانت

تخلو الى زويا لم تكن تجد ما تحدثها فيه • واستمر الغداء فترة وتحدث برزنيف الى يلينا عن حيـاة الجامعة وعن مشروعاته وتطلعاته • أما شوبين فكان ينصت فى صمت وهو يتناول طعامه بشراهة وكان يتطلع من آن لآخر الى زويا التى كانت تقابل نظرته بنفس الابتسامة الفاترة • وبعد أن انتهى تناول الطعام خرجت يلينا الى الحديقة فى صحبة برزنيف وشوبين وتبعتهم زويا بنظراتها ثمجلست أمام البيـانو • قالت لها : أنا فاسيلينفنـا : لماذا لم تخرجى معهم ؟ ولما لم تتلق جوابا •• قالت لها اعزفى لنا مقطوعة حزينة •

ـ فقالت لها زويا : هل أعزف لك مقطوعة اللقاء الأخير لويبر ؟

ـ فردت عليها : نعم أننى أحب ويبر • ثم جلست على أحد المقاعد ودمعة تترقرق فى عينيها • وقادت يلينا الصديقين الى منضدة صغيرة من الخشب صفت حولها بعض المقاعد الخشبية تحت احدى الاشجار • ونظر شوبين حوله وأخذ يقفز الى أعلى عدة مرات ثم همس قائلا : انتظـر • ثم جرى عائدا الى حجرته وأحضر قطعة من الصلصال وبدأ يشكلها تمثالا لزويا وهو يهز رأسه ويتحدث الى نفسـه ويضحك •

ـ قالت يلينا وهى تنظر الى ما يفعله : ها هو قد عاد الى ألاعيبه القديمة • ثم التفتت الى برزنيف لاستئناف المحادثة التى بدأت أثناء تناول طعام الغداء •

ـ ورد شوبين قائلا : ألاعيبه القديمة ! هذا موضوع ينتهى • انها اليوم لا تطاق •

ـ قالت يلينا : لماذا تتحدث عنها هكذا ؟ • ان من عك يتصور أنها عجوز شريرة ، ولكنها فتاة رقيقة وجميلة •

ـ فقاطعها شوبين قائلا : اؤكد لك انها جميلة بل وجميلة للغاية •• وأنا واثق ان أى انسان يراها سيقول لنفسه « ها هى زميلة جميلة لرقصة البولكا • أنا واثق أيضا أنها تعرف ذلك وتغتبط به • ولكن لماذا هذا التعالى وهذا التواضع المفتعل ؟

أظنك تفهمين ما أعنى ولكنك لا تهتمين بمناقشة هذا الموضوع الآن • ثم حطم التمثال وأخذ يعجن الطين مرة أخرى بطريقة يبدو فيها الضيق والتبرم •

ـ وتوجهت يلينا بالحديث الى برزنيف قائلة : أنت تريد اذن أن تكون أستاذا بالجامعة •

ـ فأجابها بقوله : نعم • هذا هو الحلم الذى أريد تحقيقه • أنا أعلم جيدا أن هناك هوة كبيرة بينى وبين مثل هذا المنصب ولكننى آمل أن أحصل على تصريح بالسفر للخارج • وسأمكث هناك ثلاث أو أربع سنوات اذا لزم الأمر ثم •

ـ وهنا توقف عن الكلام ونكس رأسه ثم رفعها بسرعة ومر بيده على شعره وهو يضحك ضحكة غريبة •

ـ وابتدرته يلينا مرة أخرى قائلة : هل تريد أن تصبح أستاذا فى التاريخ ؟

ـ فأجابها : نعم

وأضاف فى صوت خفيض : أو الفلسفة ان أمكن •

ـ وعلق شوبين على ذلك بقوله : هو مولع بالفلسفة الى حد كبير •

ـ ثم قال وهو يحفر خطوطا عميقة فى قطعة الصلصال بمسمار فى يده ولكن هل لابد من السفر للخارج ؟

ـ واستأنفت يلينا حديثها فقالت له وهى تنظر الى عينيه : وهل ترضى حينذاك عن مركزك ؟

ـ فأجابها : كل الرضا يا يلينا • وهل يمكن أن تكون هناك وظيفة أفضل من ذلك ؟ سأسير فى نفس الطريق الذى سار فيه جرانوفسكى • ان مجرد التفكير فى هذا يسعدنى • لقد باركنى أبى قبل وفاته وسوف لاأنسى أبدا كلماته الاخيرة •

ـ لقد توفى والدك فى الشتاء الماضى • أليس كذلك ؟

ـ نعم • فى فبراير الماضى •

ـ فقالت يلينا : قيل لى انه ترك مخطوطات بالغة الاهمية فهل هذا صحيح ؟

ـ نعم • لقد كان رجلا عظيما يا يلينا ولو كنت قد رأيته لأعجبت به •

ـ أنا واثقة من ذلك. وما هو الموضوع الذى تتناوله هذه المخطوطات ؟

ـ هذا شىء يصعب شرحه باختصار . لقد كان والدى من أنصار مدرسة شيلنج ولم تكن اللغة التى كان يستعملها واضحة دائما .

ـ فقاطعته يلينا قائلة : أرجو أن تغفر لى جهلى يا أندريا بتروفتش اذا سألتك ما معنى شيلنجى .

ـ فابتسم برزنيف ابتسامة خفيفة وقال : اى انه من اتباع الفيلسوف الالمانى شيلنج . أما فيما يختص بنظريات شيلنج ـ

ـ فصاح شوبين فجأة وقال : رويدك يا أندريا بتروفتش هل تنوى أن تلقى محاضرة على يلينا عن شيلنج ؟ ارجو ان توفر عليها هذا العناء .

ـ فرد عليه برزنيف وقد احمر وجهه قائلا : كلا لا أريد سوى ان ... فتدخلت يلينا قائلة : وما هو اعتراضك على المحاضرة ؟ اننا نستطيع انا وانت ان نستفيد ببعض المحاضرات يا بافل .

ـ فالتفت شوبين ناحيتها وانفجر ضاحكا . فسألته بشىء من البرود : ما الذى يضحكك ؟

وكف شوبين عن الضحك وقال لاتغضبى . معذرة. ولكن ما قيمة مناقشة الموضوعات الفلسفية فى مثل هذا الجو وتحت هذه الأشجار ؟ اليس من الافضل لنا ان

نتحدث عن الطيور والزهور والعيون الجميلة والابتسامات الساحرة ؟

ـ وأضافت يلينا قائلة : نعم وعن القصص الفرنسية وملابس السيدات .

ـ فأجابها شوبين : ولم لا نتحدث عن ملابس السيدات ما دامت جميلة .

ـ لم لا ؟ لنفرض اننا لانهتم بالحديث عن الملابس انك تسمى نفسك فنانا متحررا ثم تعتدى بعد ذلك على حريات الآخرين . ثم دعنى اسألك سؤالا آخر : اذا كانت هذه هى طريقتك فى التفكير ، لماذا اذن توجه النقد الى زويا ؟ انها هى الشخص الذى يمكن التحدث اليه عن الملابس والزهور . فاحمر وجه شوبين وقام من مقعده وقال بصوت يدل على الانفعال : اذن هذا هو ماتقصدين . تريدين أن أذهب اليها يا يلينا . أو بمعنى آخر ان وجودى هنا غير مرغوب فيه اليس كذلك ؟

ـ أنا لم أفكر مطلقا فى ابعادك من هنا .

ـ ورد عليها شوبين بانفعال : تقصدين اننى لا استحق صحبة غير صحبتها وأننى من طرازها ، وأننى سطحى وأبله وتافه كتلك الفتاة الألمانية أليس كذلك ؟

ـ فقطبت يلينا جبينها وأضافت : لقد كان لك فيها رأى مخالف لهذا الرأى يا بافل .

ـ انك تؤنبيننى الآن . حسن ، اننى لا أنكر أنه

مرت لحظة ـ لحظة واحدة فقط ـ كانت فيها هذه الوجنات النضرة ··· ولكننى اذا بادلتك دقة بدقة وذكرتك ـ طاب مساؤك ـ لقد كدت أترك لسانى يفلت منى · ثم عجن قطعة الصلصال التى كان قد صنع منها تمثالا لرأس واندفع خارجا وذهب الى حجرته ·

ـ فقالت يلينا وهى تتبعه بنظراتها : طفل ·

ـ فرد عليها برزنيف قائلا : هو فنان وكل الفنانين هكذا ولا بد من التلطف معهم ·

ـ أجابت يلينا : صحيح ولكن بافل لم يبرهن حتى الآن على أنه يستحق هذا · ماالذى أنجزه ؟ أعطنى ذراعك ولنخرج للسير قليلا فقد قطع علينا حديثنا · لقد كنا نتحدث عن مخطوطات والدك ·

وتأبط برزنيف ذراع يلينا وأخذا يسيران فى الحديقة ، ولكنهما لم يستأنفا المحادثة التى قطعت بل أخذ برزنيف يشرح آراءه عن عمل أساتذه الجامعة وعن عمله فى المستقبل · وظل يسير الى جانب يلينا بخطوات بطيئة وقد اتكأت على ذراعه ولكنه لم يحاول أن ينظر اليها · وأخذت الالفاظ تنساب من بين شفتيه فى سهولة ويسر ، وكان يستعمل جملا بسيطة دقيقة · وكانت عيناه تنتقلان من الأشجار الى الرمال الى الحشائش ويشع منهما بريق عاطفةهادئة وأحاسيس نبيلة· وكان صوته الهادىء ينم عن السرور الذى يشعر به من يدلى بأفكاره الى شخص عزيز · وكانت يلينا تنصت باهتمام بالغ ووجهها متجه

اليه وقد ثبتت نظرها على محياه وعلى عينيه ، ولكنه كان يتجنب النظر الى عينيها ·

كان قلبها يتفتحوكان هناك شىء رقيقونبيل وطيب يتدفق اليه أو ربما ينمو فيه ·

(٥)

أمضى شوبين فى حجرته بقية اليوم · وعندما ترك برزنيف أنا فاسيليفنا ويلينا وزويا وصعد الى حجرة صديقه كان الظلام قد حل وتلألأت النجوم وتوسط القمر السماء ، ولما وجد باب الغرفة مغلقا طرقه فرد شوبين من الداخل قائلا : من الطارق ؟

ـ وأجابه برزنيف : أنا يا شوبين ·

ـ وماذا تريد ؟

ـ افتح يا شوبين ولا داعى للغضب · انت لا شك تشعر بالخجل من نفسك ·

ـ أنا لست غاضبا ـ اننى نائم كما أننى أحلم بزويا ·

ـ كف عن هذا الحديث وافتح الباب فأنا أريد أن أتحدث اليك

ـ الم يكفك الحديث مع يلينا ؟

ـ افتح الباب ودعني أدخل •

ولكن شوبين أجاب بشخير مفتعل فهز برزنيف كتفيه وبدأ يسير عائدا الى بيته •

الليل حار ساكن ، برزنيف يتوقف من آن لآخر يرقب ما حوله ويسمع حفيفا يشبه حفيف ملابس النساء • فكان هذا يثير فيه شيئا من الخوف • وسرت فى جسده رعشة خفيفة وتجمدت فى عينيه دمعة وود لو انه أستطاع أن يختبىء أو أن يستمر فى السير بخطوات هادئة • وهبت عليه نسمة من الهواء ، وفجأة ، سقط على الارض جعران من أحد فروع الاشجار وأحدث سقوطه صوتا أفزعه وجعله يتوقف عن السير مرة أخرى • ثم تذكر يلينا فاختفت كل هذه المشاعر والأحاسيس العابرة فى الحال وبقيت انطباعاته القوية السابقة عن الفترة التى قضاها مع يلينا التى ملكت صورتها كل مشاعره •

وعاود السير وأخذ يسترجع كل ما قالته له • وخيل اليه أنه يسمع وقع أقدام مسرعة خلفه فأنصت جيدا وتبين له ان هناك شخصا يعدو كى يلحق به • وفجأة ظهر شوبين من بين الظلال المعتمة للاشجار المحيطة به • كان لا يلبس قبعته ، ولم يكن مهندما ، وكان يبدو شاحبا فى ضوء القمر • قال وهو يلهث : من حسن الحظ أنك سلكت هذا الطريق لأننى لو لم ألحق بك لما ذقت النوم لحظة واحدة • اعطنى يدك • اعتقد انك ذاهب الى البيت • اليس كذلك؟

ـ نعم •

ـ سأرافقك •

ـ اين قبعتك ؟

ـ لا تهتم بذلك • لقد خلعت رباط عنقى كذلك فالجو حار •

وسار الصديقان صامتين فترة من الوقت •

ـ وتكلم شوبين فجأة فقال : أظن أننى ظهرت بمظهر غير لائق اليوم • أليس كذلك ؟

ـ فقال له برزنيف : هذا صحيح والحق انى لم أفهمك لا سيما اننى لم أرك تتصرف على هذا النحو من قبل • ما الذى أغضبك الى هذا الحد ؟ لقد كان السبب فى غاية التفاهة •

ـ أجاب شوبين بحدة : هذه وجهة نظرك أنت • ولكننى لست فى حالة تسمح بمناقشة هذه التفاهات • ولك أن تعتقد ما تشاء • ولكننى أريد أن أقول لك اننى •• اننى •• أحب يلينا •

ـ ورد عليه برزنيف وقد توقف عن السير : أنت تحب يلينا ؟

ـ قال شوبين : نعم • هل هذا يثير دهشتك ؟ سأقول لك أكثر من هذا • لقد كنت آمل حتى هذا المساء أن يأتى يوم تبادلنى هى فيه هذا الحب • ولكننى تبينت هذا المساء أنه لا أمل لى فى ذلك فهى تحب شخصا آخر •

ـ هل الامر كذلك ؟ ومن هو هذا الشخص ؟

ـ هذا الشخص هو أنت ·

ـ قال ذلك وضرب برزنيف براحته على كتفه ··

ـ انا ؟

ـ أجل ·

فتراجع برزنيف قليلا ووقف واجما بينما أخذ شوبين يحدق النظر فى وجهه ثم قال له : يبدو أنك صدمت · أنت شاب متواضع ولكنها تحبك فليطمئن قلبك من هذه الناحية ·

ـ فرد عليه برزنيف بشىء من الضيق قائلا : ماهذا الهراء الذى تقوله ؟

ـ هذا ليس هراء · ولكن لماذا توقفنا عن السير ؟

دعنا نسير وذلك أفضل كثيرا · اننى أعرف يلينا منذ زمن طويل وقد خبرتها جيدا ولا يمكن أن أخطىء وقد استحوذت على قلبها ومضى الوقت الذى كانت تميل الى فيه ·· ان مزاحى لا يستهويها ولكنك رجل جاد قوى الخلق وقوى البنية كما انك تفيض حماسة وتمثل بحق أولئك العلماء الذين يفخر بهم نبلاء روسيا · وفضلا عن ذلك فقد شاهدتنى يلينا منذ أيام وأنا أقبل يدى زويا ·

ـ يدى زويا ؟

ـ نعم يدى زويا · لقد خانتنى مقاومتى · ان لها كتفين جميلين ·

ـ كتفين ؟

ـ نعم · كتفين أو يدين · ما الفرق ؟ لقد شاهدتنى زويا فى هذا الموقف بعد العشاء رغم اننى كنت انتقدها قبل العشاء أمامها · وأخشى الا تفهم يلينا أن مثل هذا التناقض شىء طبيعى · ثم جئت انت بعد ذلك وأنت رجل حساس رقيق المشاعر تستطيع ان تتحدث عن شيلر وشيلنج ، وهى تسعى دائما وراء الرجال المرموقين ، لذا فقد فزت أنت أما أنا فاننى تعس رغم أننى أحاول أن أبدو مرحا ·· اننى ··

وانفجر شوبين باكيا ثم خطا جانبا وجلس على الأرض وأمسك شعره بيديه ··

ـ فاقترب برزنيف منه وقال له : انك تتصرف كطفل يا بافل · ما الذى أصابك هذه الليلة ؟ وما هذا الهراء الذى تقوله ؟ هأنذا أراك تبكى · أنا أعتقد أن كل هذا تظاهر ·

ـ فنظر اليه شوبين والدموع تترقرق فى عينيه وابتسم ثم قال :

لك أن تعتقد ما تشاء يا اندريا اما أنا فأعتقد اننى أصبت بحالة هستيرية · ولكننى احب يلينا ـ اقسم اننى أحبها ولكنها تحبك أنت · على أى حال ، لقد وعدت أن أصحبك الى بيتك وسأفى بوعدى · ثم انتصب واقفا وهتف : ياله من ليل ساحر يشعر المحبون فيه بمنتهى

السعادة • انهم لا ينامون فى مثل هذه الليلة • سوف لا تنام يا أندريا ، أليس كذلك ؟

ــ ولم يجب برزنيف ولكنه أسرع الخطى • فقال شوبين : لماذا تسرع هكذا ؟ تأكد أنه لن تمر بك ليله كهذه طول حياتك ، وكل ما ينتظرك فى بيتك هو شيلنج • لا شك أنه سانده وقوى مركزك اليوم ولكن حتى هذا لا يعتبر مبررا لكى تسرع هكذا • ألا تعرف الغناء ؟ ارفع صوتك بالغناء قدر ما تستطيع أو اخلع قبعتك وامرح وابتسم للنجوم فانها جميعا تنظر اليك وحدك • ان النجوم تنظر الى المحبين وهذا هو سر جمالها • انك تحب يا أندريا أليس كذلك ؟ انت لا تريد أن تجيبنى • لماذا لا تجيبنى؟ ما دمت تشعر بالسعادة فمن الأفضل ألا تجيب • اننى أثرثر لاننى تعس ـ لاننى شخص لا يحبه أحد • أنا كالممثل أو مهرج السيرك • وكم كنت أشعر بالنشوة فى مثل هذه الليلة تحت هذه النجوم المتلألئة لو أننى عرفت أن هناك من يحبنى • هل تشعر بالسعادة يا برزنيف ؟

استمر برزنيف فى السير دون أن ينبس • وبدت أمامهما انوار القرية التى يعيش فيها وهى تظهر وتختفى من بين الاشجار • كانت هذه القرية تتكون من اثنى عشر كوخا • وكان على يمين الطريق حانوت بدال أغلقت نوافذه وانساب من بابه المفتوح شعاع من النور • وكانت فتاة يبدو أنها خادمة تقف فى الدكان تساوم صاحبه • كانت تضع منديلا حول رأسها ووجنتيها وتضمه بيدها عند ذقنها • ومر الرجلان عبر شعاع النور ونظر شوبين الى داخل الدكان وتوقف ثم صاح « أنوشكا » فاستدارت الفتاه برشاقة وظهر وجهها الجميل وعيناها العسليتان وحاجباها الأسودان • وناداها شوبين مرة أخرى « انوشكا » • فنظرت الفتاة اليه وخرجت مسرعة من الدكان وقد بدا عليها الخوف والخجل دون أن تكمل مشترياتها وعبرت الطريق الى الجهة المقابلة وأسرعت الخطى وهى تتلفت خلفها أما البقال فانه كغيره من بقالى الريف لم يظهر أى اهتمام بأى شىء وسعل وتثاءب بينما التفت شوبين الى برزنيف وقال : انها •• انها •• هنا أسرة أعرفها •• انها •• لا تذهب بخيالك بعيدا •• وأسرع خلفها دون أن يكمل جملته •

ــ وقال له برزنيف وهو يحاول أن يمنع نفسه من الضحك : جفف دموعك على الأقل ياشوبين •

ولكنه عندما عاد الى بيته كان قد اختفى من وجهه كل تعبير للمرح ولم يعد يشعر بالرغبة فى الضحك • انه لم يصدق كلمة واحدة مما قاله شوبين ولكن الكلمات تغلغلت الى أعماق قلبه وقال لنفسه : كان بافل يستدرجنى ولكن هذه الفتاة لابد أن تقع فى الحب يوما • من يا ترى سيكون هذا الشخص ؟

كان برزنيف يمتلك « بيانو » فى حجرته ولو أنه كان قديما ، فجلس اليه وأخذ يعزف باصبع واحد • لقد تلقى كغيره من النبلاء الروس دروسا فى الموسيقى وهو

صبى فى المدرسة ولكنه لم يكن يجيد العزف ، ورغم ذلك فقد كان يعشق الموسيقى • لم يكن يحب فن الموسيقى أو الصور الموسيقية ولكنه كان يهوى الموسيقى البسيطة التى تثير فى الانسان مجموعة من المشاعر المختلطة • واستمر يعزف أكثر من ساعة وهو يدق نفس الانغام مرات ومرات ويتعثر وهو يبحث عن غيرها ويتوقف ثم يعاود العزف • كان قلبه مثقلا • وترقرقت الدموع فى عينيه أكثر من مرة دون أن يشعر بالخجل فقد كان يذرفها فى الظلام • وقال لنفسه : كان بافل على حق حين قال اننى لن أرى ليلة كهذه مرة أخرى • ثم قام من مكانه واشعل شمعة واستبدل ملابسه ثم أمسك المجلد الثانى من كتاب تاريخ الهنستوفيين من تأليف رومر وجلس يقرأ وهو يتنهد •

(٦)

عادت يلينا الى حجرتها وجلست أمام النافذة المفتوحة وأخذت رأسها بين راحتيها • لقد اعتادت أن تمضى ربع ساعة كل مساء أمام النافذة تسترجع أحداث اليوم السابق • كانت فى العشرين من عمرها وكانت فارعة القوام ذات بشرة ناعمة وعينين رماديتين واسعتين وحاجبين مقوسين وجبهة عريضة وأنف دقيق وشفتين رقيقتين وذقن مدببة • وكانت تتدلى على عنقها الرقيق

ضفيرة من الشعر الكستنائى الفاتح • كان كيانها كله وتعبير وجهها الذى ينم عن شىء من الخجل ونظرتها الصافية وابتسامتها الجميلة وصوتها العذب توحى كلها بجاذبية غريبة وان كانت جاذبية لا تروق لكل الناس وكانت يداها نحيلتين وأصابعها طويلة كما كانت قدماها صغيرتين وكانت خطواتها سريعة رشيقة • وكانت يلينا فى طفولتها طفلة غريبة • فقد أحبت والدها حبا جما فى أول الأمر ثم هامت بحب والدتها ولكن عاطفتها نحوهما ونحو والدها بالذات اعتراها الفتور بعد ذلك • وبدأت تعامل والدتها وكأنها كانت تعامل جدتها العجوز المريضة • فى حين أن والدها الذى كان فخورا بها وهى طفلة بدأ يخشاها بعد ان كبرت ويقول عنها انها جمهورية النزعة شديدة الحماس للحزب الجمهورى • كانت تكره الضعيف ولا تتحمل الغباء ولا ترضى عن النفاق • ولم يكن ثمة شىء يجعلها تتزحزح عن مبادئها • وان حدث وفقد انسان احترامها وما أسرع ما كانت تصدر حكمها على الناس • فانها كانت لا تعترف بوجوده كانت كل انطباعاتها تؤثر فيها تأثيرا عميقا ، ولم تكن الحياة بالنسبة لها أمرا يسيرا •

المربية التى عهدت اليها انا فاسيليفنا بالاشراف على اكمال تعليم ابنتها ـ وهو التعليم الذى يمكن أن يقال ان هذه المرأة لم تبدأه ـ كانت ـ روسية ابنة رجل فقد مركزه بسبب الرشوة ، وقد تلقت تعليمها فى معهد خاص لبنات الطبقة الراقية وكانت عاطفية طيبة القلب ولكنها كانت

زانفة وكانت كثيرة العشق وانتهت بان تزوجت وهى فى الخمسين ـ وكانت يلينا فى السابعة عشرة ـ من ضابط سرعان ما هجرها وكانت مولعة بالأدب ولها بعض محاولات فى قرض الشعر ٠

وقد ولدت فى يلينا حب القراءة ٠ ولكن يلينا لم تكتف بالقراءة بل كانت منذ طفولتها تتوق للنشاط وللقيام بعمل الخير ٠ كان الشحاذون والمرضى والمعوزون يشغلون جزءا كبيرا من تفكيرها ٠ كانت تراهم فى أحلامها ، وتعطيهم المعونات وتوفر لهم المساعدات بكل طاقاتها ٠ كانت الحيوانات الضعيفة والقطط الجائعة والطيور الصغيرة التى سقطت من أعشاشها بل وحتى الحشرات والزواحف تجد العناية والمساعدة عند يلينا التى لم تكن تتأفف من اطعامها بيدها ٠ ولم تكن والدتها تلقى بالا لهذا الامر أما والدها فكانت تثيره هذه التصرفات التى كان يسميها « عاطفة مبتذلة » ، وكان يقول ان كلابها وقططها ستدفعه الى هجر البيت ٠ وكان أحيانا يناديها ويقول لها : لينا ، تعالى بسرعة فهناك عنكب يمتص دماء ذبابة مسكينة فأنقذيها ٠ وسرعان ما تهرول يلينا منزعجة وتنقذ الذبابة ٠

وعندما كانت يلينا فى سن التاسعة تعرفت على سائلة اسمها كاتيا ٠ وكانت تتسلل خلسة الى الحديقة لكى تقابلها وتقدم اليها بعض الطعام والحلوى والمناديل والنقود٠ وكانت تجلس معها على الارض فى ركن ناء فى الحديقة وتقاسمها خبزها الجاف وتنصت الى قصصها ٠ وكانت

لكاتيا خالة عجوز شريرة تكرهها كاتيا وتردد قولها بانها تريد أن تهرب منها لتعيش فى عالم « الحرية التى وفرها الرب للجميع » وكانت يلينا تنصت بشىء من الاحترام والرهبة الى هذه الالفاظ الجديدة التى لم تألفها ٠ وكانت تركز نظراتها على كاتيا التى كان كل شىء فيها ـ عيناها السوداوان اللامعتان ببريق غريب ويداها اللتان أحرقتهما الشمس وصوتها وحتى رداؤها البالى ـ يبدو أمامها غريبا ٠ وعندما كانت لينا تعود لبيتها كانت تظل تفكر فترة طويلة فى المتسولين وفى « الحرية التى منحها الرب للجميع » ٠ كما كانت تفكر فى أن تقطع لنفسها عصا من فرع احدى الأشجار وتحمل مخلاة على كتفها وتهرب مع كاتيا ٠ كانت تفكر فى أن تجوب الشوارع والطرقات وقد وضعت على رأسها اكليلا من سنابل القمح كما كانت كاتيا تفعل أحيانا ٠ واذا تصادف ودخل حجرتها أحد أفراد العائلة وهى فى لحظة من هذه اللحظات فانها كانت تقابله بتجهم وعدم ارتياح ٠ وقد ذهبت ذات يوم مطير لرؤية كاتيا فابتل ثوبها ، ورآها والدها فأنبها ، فاحمر وجهها وتألمت ، فقد كانت شديدة الحساسية ٠ وكثيرا ما كانت تسمع كاتيا وهى تغنى أغنية من أغانى الجنود فحفظتها ٠ وقد سمعتها أنا فاسليفنا ذات مرة وهى تغنيها فعنفتها وسألتها من أين جاءت بهذه الاغنية المبتذلة ٠

ـ فنظرت يلينا الى أمها دون أن تنبس بكلمة ، وكانت تشعر بانها لا يمكنها أن تبوح بسرها حتى ولو

قطعت اربا ، وعاودها احمرار وجهها وتألمها • ومهما يكن الأمر ، فان اتصالها بكاتيا لم يستمر طويلا فقد مرضت الفتاة المسكينة بالحمى وفارقت الحياة •

وعندما علمت يلينا بخبر وفاة كاتيا حزنت عليها كثيرا وجفاها النوم عدة ليال ، وظل صوت هذه الفتاة المسكينة وكلماتها الاخيرة تتردد فى أذنها ، بل وخيل اليها أنها تناديها •

وهكذا تتابعت السنون وشبت يلينا ، وكان شبابها يبدو هادئا الا أنه كان يتسم بالصراع والقلق • ولم يكن لها صديقات ولم يكن لسلطة الوالدين وزن لديها • وكانت تتمتع باستقلال كبير منذ أن بلغت السادسة عشرة • وكانت تعيش حياة خاصة بها تغلب عليها العزلة والوحدة، كانت ترفرف كالطائر الحبيس دون أن تكون حبيسة فلم يكن هناك من يحبسها أو يقيد حركتها ، ورغم ذلك كانت تتوق للحرية • وكانت أحيانا تعجز عن فهم نفسها بل وكانت تهاب نفسها • كانت الأشياء المحيطة بها تبدو لها غريبة • وكانت تخاطب نفسها : كيف يمكن أن أعيش بدون حب ؟ ولكن ليس هناك من أحب • وكانت هذه الأفكار والمشاعر تقض مضجعها • وقد أصيبت وهى فى سن الثامنة عشرة بحمى خبيثة كادت تقضى عليها ، وأثرت هذه الحمى على صحتها تأثيرا سيئا ولكنها شفيت منها تماما • على أن أباها ظل يتحدث دائما عن أعصابها حديثا يخلو من العطف • وكانت تتصور أحيانا أنها تريد شيئا

لا يريده أى انسان آخر ولا يفكر فيه أحد فى روسيا قاطبة • ثم تتراجع عن ذلك وتضحك من نفسها • وقد تمضى أياما خالية البال وفجأة يثور فى أعماقها شىء لا تميزه ولكنه شىء قوى لا قبل لها بمقاومته ••• شىء يبحث لنفسه عن مخرج • ثم تهدأ العاصفة فى حنايا صدرها ويعاودها الهدوء • ولكن هذه الانفعالات العنيفة كانت تهزها • ورغم انها كانت تحاول جاهدة أن تملك زمام نفسها فقد كان الصراع الذى يعتمل فى نفسها يعبر عن نفسه حتى فى هدوئها الظاهرى وكانت زميلاتها على حق فى التعجب من تصرفاتها وكن يعجزن عن فهمها •

وفى اليوم الذى بدأت فيه قصتنا مكثت يلينا أمام النافذة أكثر مما اعتادته وأخذت تفكر كثيرا فى برزنيف وفى حديثها معه • لقد شعرت بميل نحوه وآمنت بصدق عواطفه وطيب نواياه • لم يسبق لبرزنيف أن تحدث معها على هذا النحو وتذكرت نظرة عينيه وابتسامته • وهنا ارتسمت ابتسامة على شفتيها وأخذت تفكر ولكنها لم تكن تفكر فيه • لقد أخذت تحدق النظر « فى الليل » من خلال النافذة المفتوحة • وظلت تنظر الى السماء المظلمة فترة ، ثم قامت من مكانها ورفعت يديها لأعلى نحو السماء دون أن تدرى لذلك سببا ثم أنزلتهما وركعت الى جوار سريرها ووضعت وجهها على وسادتها ثم انفجرت باكية رغم محاولاتها ألا تستسلم للمشاعر التى سيطرت عليها •

(٧)

فى اليوم التالى استقل برزنيف عربة وعاد الى موسكو • كان يريد أن يشترى بعض طوابع البريد وبعض الكتب وأن ينتهز الفرصة لمقابلة انزاروف • وكان اثناء محادثته الاخيرة مع شوبين قد فكر فى دعوة انزاروف الى مسكنه ولكنه أمضى وقتا طويلا فى التعرف على مكان هذا البلغارى • وكان أنزاروف قد انتقل الى مسكن جديد لم يكن من السهل بلوغه • فقد كان يقع فى الفناء الخلفى لأحد المنازل المشيدة على طراز بطرسبرج بين شارع أرباط وشارع بوفارسكايا • وأخذ برزنيف يتنقل من منزل الى آخر وهل يسأل حارس المنزل أو من يجده ولكنه لم يوفق فى محاولاته تلك • واخيرا رقت لحاله امرأة ترتدى ثوبا باليا وأشارت له الى مسكن أنزاروف ، وهناك وجده برزنيف وكانت الحجرة التى يستأجرها انزاروف كبيرة وشبه خالية • كان بها ثلاث نوافذ وفراش صغير فى أحد الاركان ومقعد من الجلد فى ركن آخر وقد علق على الحائط قفص كان به ، ذات يوم ، كروان حبيس وقد هرع أنزاروف الى مقابلة برزنيف حال اجتيازه باب الغرفة وهتف به : أى ريح طيبة أتت بك الى هنا • ثم شد على يده وقاده الى المقعد الوحيد فى الحجرة ، وهو يقول : اجلس على هذا المقعد • بينما جلس هو على حافة المنضدة • ثم أضاف مشيرا الى كومة من الأوراق والكتب على الأرض :

الحجرة غير مرتبة كما ترى •• اننى لم أرتب أمورى بعد اذ لا وقت لدى •

كان انزاروف يتحدث الروسية جيدا وكان ينطق كل كلمة بدقة ووضوح ، ولكنه كان يتحدث بلهجة غير روسية •• وكان أصله الاجنبى أكثر وضوحا فى مظهره • كان يناهز الخامسة والعشرين ، كان نحيلا ذا ملامح دقيقة وأنف مقوس وشعر أسود وجبهة صغيرة وعينين ثاقبتين وحاجبين أشعثين وشفتين رقيقتين • وكان يرتدى معطفا أنيقا •

وسأله برزنيف قائلا : لماذا تركت مسكنك السابق ؟

ـ هذا المسكن أرخص وأقرب للجامعة •

ـ ولكننا الآن فى العطلة • هل تنوى تمضية الصيف فى المدينة ولقد كان من الأفضل لك أن تستأجر كوخا مادمت قد قررت ان تترك المسكن الاول •

ولم يجبه انزاروف وقدم له غليونا وقال له : معذرة فليس عندى سجائر أو سيجار • وتناول برزنيف الغليون وأشعله •

ـ وتحدث برزنيف قائلا : لقد استأجرت كوخا بالقرب من كونتسوفو وهو رخيص ولطيف وهناك حجرة فائضة فى الدور العلوى •

ـ ومرة أخرى لم يجب انزاروف •

ـ وجذب برزينيف نفسا طـويلا من الغليون وقال له : كنت أقول لنفسى لو اننى وجدت شخصا مثلك على استعداد لشـغل تلك الغرفة لكان هـذا شيئا جميلا • ما رأيك يا ديمترى ؟

فنظر اليه انزاروف وقال : هل تعرض على أن أسكن معك ؟

ـ نعم فعندى حجرة زائدة فى الدور العلوى •

ـ أشكرك جدا يا اندريا ولكننى أعتقد ان مواردى لا تسمح بذلك •

ـ لماذا ؟

ـ امكانياتى لا تسمح لى بالمعيشة فى الريف • كما أن الاحتفاظ بمسـكنين فى وقت واحد عملية لا تتحملهـا مواردى •

ـ فقال برزنيف : ولكننى لم ••• ثم توقف • وعاد فقال : ولكن ذلك لن يكلفك أى مصاريف اضافية • سوف تحتفظ بهذا المسـكن طبعا ، سـتجد ان كل شىء رخيص للغاية ، كما اننا نستطيع أن ننظم عملية تناول الطعام معا •

ولاذ انزاروف بالصمت ، وشعر برزنيف بشىء من الحرج • ولكنه قطع الصمت قائلا : تفضل بزيارتى على الأقل • وسيكون من بواعث سرورى أن أعرفك باحـدى العائلات التى تسكن الى جـوارى • ولهـذه العائلة ابنة

مدهشة حقا • كما ان لى هناك صديقا عزيزا • وهو رجل موهوب ، وأنا واثق انك سترحب بصداقته • أستحلفك أن تأتى • ولو أننى أفضل أن تنتقل الى مسكنى • سيكون فى وسـعنا أن نعمل ونقرأ معـا • اننى أدرس التاريخ والفلسفة وهى مواد تهمك كما أننى أمتلك مجموعة كبيرة من الكتب •

وقام انزاروف من مكانه وأخذ يسير فى الحجرة جيئة وذهابا ثم قال : هل لى أن أسألك كم تدفع ايجارا لكوخك؟

ـ مائة روبيل من الفضة •

ـ وكم عدد غرفه •

ـ خمسة •

ـ أى ان ايجار الغرفة عشرون روبيلا •

ـ نعم • ولكننى فى الحقيقة لست فى حاجة الى هذه الغرفة وهى خالية •

ورد انزاروف بلهجة قاطعة : لن أقبل هذا العرض الا اذا وافقت على أن أدفع ايجار الغرفة ان فى استطاعتى أن أدفع عشرين روبيلا خصوصا انك قلت انى أستطيع أن أوفر فى كل شىء •

ـ بالتأكيد • ولكننى لا أشعر بالارتياح لهـذا الحل •

ـ أنا لا أقبل أى حل آخر يا أندريا •

ـ حسن • لك ماتريد ، ولكن اسـمح لى أن أقول انك صلب الرأى •

ومرة أخرى لم يجب انزاروف ••

واتفق الصديقان على اليوم الذى سيرحل فيه انزاروف • واستدعيا المالك ولكنه أرسل ابنته أولا وهى فتاة فى السابعة من عمرها فاستمعت الى كل ما قاله لها انزاروف ثم خرجت فى هدوء ودخلت امها وكانت حاملا فى شهرها الاخير فأخبرها انزاروف انه سيرحل الى الريف بالقرب من كونتسوفو ولكنه يريد أن يحتفظ بمسكنه وطلب منها ان تعتنى بحوائجه • فخرجت وأخيرا دخل المالك بنفسه وقد بدا عليه انه يفهم الموقف ، ولكنه سأل قبل أن يغادر الحجرة : بالقرب من كونتسوفو ؟ أليس كذلك ؟ ولكنه عاد وتساءل : ولكن أستحتفظ بالحجرة ؟ لابد لى أن أعرف • فأكد له انزاروف أنه سيحتفظ بها

وعاد برزنيف الى بيته وهو فى غاية السرور لنجاح مهمته • وأوصله انزاروف الى الباب مودعا ثم خلع معطفه بكل عناية وبدأ فى ترتيب أوراقه •

(٨)

جلست انا فاسيليفنا ذلك المساء فى حجرة الجلوس وهى توشك على البكاء • كان معها زوجها وضيف اسمه يوفار ايفانوفتش ستاكوف وآخر اسمه نيكولاى ارتيميفتش من الاقارب الأباعد وهو ضابط متقاعد فى الستين من عمره تقريبا ضخم الجثة ذو وجه منتفخ • وكان منذ تقاعده يعيش فى موسكو على دخل يأتيه من ثروة تركتها له زوجته وكانت من أسرة تعمل بالتجارة قبل وفاتها ولم يكن هذا الضابط المتقاعد يقوم بأى عمل بل ولم تكن لديه قدرة على التفكير قط واذا فكر فانه كان يحتفظ بأفكاره لنفسه •

أما يوفار ايفانوفتش فكان يرتدى حلة بنية اللون ويلف حول عنقه منديلا أبيض• وكان يأكل كثيرا وبكميات كبيرة • وكان اذا أراد ان يعبر عن رأيه ثنى أصابع يده اليمنى ورفعها فى الهواء فى عصبية • كان يتكلم بصعوبة وكان يجلس على مقعد كبير بالقرب من النافذة ويتنفس بمشقة •

وكان نيكولاى ارتيميفتش ستاكوف يغدو ويروح فى الحجرة وقد وضع يديه فى جيبيه وارتسمت على وجهه نظرة تنم عن عدم الرضا • وأخيرا توقف وهز رأسه ثم قال :

ـ نعم •• لقد كانت أخلاق الشباب فى أيامنا تختلف عما هى عليه الآن • فالشبان فى أيامنا لم يكونوا يتجاهلون من يكبرونهم • ولكن الانسان يدهش من سلوكهم الآن • قد أكون على خطأ وهم على صواب ـ ربما• ولكننى لا أزال أحتفظ بآرائى الخاصة عن كل شىء •

على أى حال ، أنا لم أولد غبيا • مارأيك فى هذا يا بوفار ايفانوفتش ؟

ونظر اليه يوفار وأخذ يثنى أصابعه •

ومضى ستاكوف فى حديثه قائلا :

ـ خذ يلينا نيكولايفنا مثلا ، اننى حقيقة لا أفهمها فعقلى يعجز عن ذلك ان قلبها كبير حتى أنه يتسع لجميع المخلوقات الى أصغر صرصور أو ضفدعة • انه يتسع لكل شىء ولكل انسـان الا اياها • أنا أعرف ذلك ولكننى لا اتدخل فيما لا يعنينى فذلك أمر يتعلق بالاعصاب والعلم والتحليق فى الآفاق العليا وهى كلها أمور لا أفقه فيها شيئا • ولكن ما خطب المستر شوبين • أنا أسلم بأنه فنان عظيم ولا أجادل فى هذا ، ولكن عدم احترامه لشخص يكبره سنا ويدين هو له بالكثير شىء لا أقبله أنا لا أبالغ ولكن لكل شىء حد •

ودقت انا فاسيليفنا الجرس بانفعـال وجاء الخادم فسألته قائلة : أين بافل ياكوفليفتش ولماذا لا يأتى عندما أناديه ؟

فهز ستاكوف كتفيه وقال :

ـ لماذا تريدينه ؟ انا لم أطلب منك ان ترسلى فى طلبه ولا اريد أن تفعلى ذلك •

ـ ماذا تعنى بسؤالك هذا ؟ لقد ضايقك • وربما

أثر ذلك فى سير علاجك • اننى أريد أن يوضح لى كل شىء كما اريد أن أعرف كيف أغضبك •

ـ أكرر أنى لا أرغب فى ذلك • واستأنف يقول بالفرنسية : تصورى كيف يكون هذا أمام الخدم !

فاحمر وجه أنا فاسيليفنا قليلا ثم قالت :

ـ لا تقل هذا يا نيكولاى ارتميفتش • اننى لا أفعل مثل هذه الاشياء ••• (وأضافت بالفرنسية) أمام الخدم •• اذهب يافيديا واحضر بافل ياكوفليفتش فى الحال •

فخرج الخادم ••

وقال ستاكوف : لا داعى لذلك أنا لم أقصد هذا أبدا •

ثم أخذ يسير فى الحجرة جيئة وذهابا مرة أخرى ••

ـ ولكن لابد لبول أن يعتذر لك •

ـ له ؟ وما أهمية اعتذاره ؟ ان الاعتـذار ليس الا مجرد كلمات ••

ـ ماذا تعنى بقولك ـ لماذا ـ لابد لنا أن نؤنبه •

ـ افعلى ذلك انت فقد يستمع اليك • اما انا فانى لا أحمل له أى ضغينة •

ـ كلا ، كلا ، يانيكولاى ارتيميفتش • لقد أصبحت حاد الطبع منذ مجيئك • بل ويبدو انك فقدت كثيرا من وزنك فى الفترة الاخيرة ، وأخشى أن تكون المياه المعدنية قد أصبحت لا تفيدك •

ـ أنا لا أستطيع أن أستغنى عن المياه المعدنية فهى ضرورية لكبدى المريض ٠

وحضر شوبين فى هذه اللحظة كان يبدو عليه التعب وكانت ابتسامة ساخرة تعلو شفتيه ٠ وسألها قائلا :

ـ هل أرسلت فى طلبى يا انا فاسيليفنا ؟

ـ بالطبع ٠ استمع الى يابول ٠ هذا شىء مريع ٠ انا غير راضية عنك ٠ لماذا تظهر عدم الاحترام لنيكولاى ارتيميفتش ؟

ـ هل اشتكى لك نيكولاى ارتيميفتش منى ؟

وجه اليها هذا السؤال وهو ينظر الى ستاكوف والابتسامة الساخرة لا تبارح شفتيه ٠ فابتعد ستاكوف وخفض عينيه ٠٠

ـ أجل ٠ أنا لا أعرف كيف أهنته ولكنك لابد أن تعتذر له فى الحال فصحته ليست الآن على مايرام ٠ ثم ان من واجب الشبان أن يحترموا من يحسنون اليهم ٠

وحدث شوبين نفسه قائلا :

ـ يا الهى ٠ ياله من منطق ! ثم استدار الى ستاكوف، وقال له وهو ينحنى أمامه نصف انحناءة :

ـ أنا على استعداد لأن أقدم لك اعتذاراتى يانيكولاى ارتيميفتش اذا كنت قد جرحت مشاعرك ٠

فأجابه ستاكوف قائلا : وليس الأمر كذلك على

الاطلاق ٠ وعلى كل فقد عفوت عنك عن طيب خاطر وأنت تعلم أننى لا أحمل ضغينة لأحد ٠

قال شوبين : لاشك فى هذا ٠ ولكن هل لى أن أسأل : أتعرف انا فاسيليفنا ما ارتكبته أنا فى حقك ؟

فقالت أنا وهى تمد رقبتها : كلا أنا لا أعرف شيئا ٠

فصاح ستاكوف قائلا : يا الهى ٠ فقد طلبت اليك ورجوتك وأخبرتك عدة مرات انى أكره هذه المواقف ٠ ان الانسان يأتى الى البيت لينشد الراحة فيقال له ان هناك اجتماعا عائليا وان عليه أن يتصرف كرب اسرة ، لا يجد الانسان فى بيته الا المتاعب لا يستطيع الانسان أن يستريح فى بيته ، لذا فانه يجد نفسه مضطرا للذهاب الى النادى أو لأى مكان آخر ٠ نحن بشر ولبدننا علينا حق ولكن بدلا من ذلك ٠٠

ونهض ستاكوف وخرج مسرعا دون أن يكمل حديثه وأغلق الباب خلفه ٠ ونظرت انا فاسيليفنا اليه وهو يخرج وقالت هامسة : الى النادى ؟ لن تذهب الى النادى أيها الرجل الماجن ، فليس فى النادى من تهديه جوادين أشهبين من حظيرتى الخاصة ، ايها المنافق ٠ لست ذاهبا الى النادى ٠ وأنت يابول ألا تشعر بالخجل من نفسك ؟

قالت ذلك وهى تهم بالوقوف ٠ ثم أضافت قائلة : كنت أعتقد أنك قد نضجت ٠ اننى أشعر بصداع ٠ ألا تعرف أين زويا ؟

– أعتقد أنها فى الدور العلوى • انها كالثعلب الماكر تختبىء فى ركنها الخاص عندما يكون الجو بهذا الشكل •

ونظرت أنا فاسيليفنا حولها وهى تبحث عن شىء ثم قالت : من فضلك يابول •• ألم تر نظارتى ؟ حقق رجائى ولا تفعل ما يغضبنى بعد الآن ••

– كيف أستطيع أنأ غضبك ياخالتى ؟ دعينى أقبل يدك • أما نظارتك فقد رأيتهـــا على منضدتك فى حجرة المكتب •

فقالت وهى تغادر الحجرة : ان داريا يخطىء دائما ولا يضعها فى المكان الصحيح •

وقام شوبين ليلحق بهـا ولكنه توقف عندما سمع صوت يوفار ايفانوفتش خلفه يقول : ليست هذه •• هى المعاملة التى ينبغى أن تصدر من شخص مثلك •

فسار شوبين اليه وقال له : لم لا أيها المحترم ؟

– لم لا ؟ انك صـــغير السن وواجبـك ان تظهر الاحترام •••

– لمن ؟

– الا تعرف لمن ؟ انت تعرف لمن •

فوضع شوبين ذراعيه على صدره وقال : لا بد انك تمثل مبادىء هذا المجتمع وأساس هذا البناء الاجتماعى •

وثنى يوفار ايفانوفتش أصابعه وقال : كفى ايهـا الشاب ولا تخرجنى عن طورى •

ومضى شوبين يقول : ها أنذا أرى نبيـــلا لم يعد شابا كما كان ولكنه يبدو سعيدا ولا يزال يتمسك بعقائد الأطفال •• احترام •• يالها من كلمة • هل تعرف ايهـا الرجل البدائى لماذا غضب نيكولاى ارتيميفتش منى ؟ لقد كنت أنا وهو فى بيت الأرملة طوال الصباح وكنا نغنى نحن الثلاثة أغنية « تلكأ معى قليلا » لابد انك ســـمعتها وأظنك تحب مثل هذه الأشياء • وأخذنا نغنى ونغنى حتى شعرت بالملل فبدأت فى مضايقتهما وقد فعلت ذلك بمهارة وقد غضبت هى منى فى أول الأمر ثم غضبت منه ثم غضب هو منها وقال انه لا يشعر بالراحة الا فى بيته الذى يشبه الجنة • وقالت هى انه شخص لا خلاق له • غادر البيت بينما بقيت أنا • وجاء هو الى هنا ـ الى الجنة ـ فوجدها لا تطاق فبدأ يزمجر • والآن من منا المخطىء ؟

اجابه يوفار ايفانوفتش : أنت بالطبـــع • فحملق شوبين فى وجهه وقال له فى تذلل مصطنع : هل لى أن أسألك أيها الفارس العظيم ما اذا كنت قد تفوهت بهـذه الألفاظ الغريبة نتيجة استعمالك لقدرتك على الفهم أو انك قلتها مدفوعا بدافع مؤقت لاحداث صوت نسميه بالكلام ؟

فرد عليه يوفار ايفانوفتش بغضب قائلا : قلت لك لا تخرجنى عن طورى ••

وخرج شوبين وهو يضحك ••

ومضت ربع ساعة تقريبا ونادى ايفانوفتش الخادم قائلا :

احضر لى .. كأسا من الفودكا .

فأحضر الخادم الفودكا وبعض الطعام على صينية ، فأخذ يوفار الكأس من الصينية برفق واخذ يتفحصها وكأنه لا يعرف ما بها . ثم نظر الى الخادم وسأله أكان اسمه فاسكا . ثم شرب الفودكا وتناول بعض الطعام ، ثم أخذ يبحث فى جيبه عن منديله . وبعد أن حمل الخادم الصينية وزجاجة الخمر والتهم بقية طعام كان يوفار ايفانوفتش لا يزال يمسك فى يده بمنديله وهو يحملق بشدة فى النافذة والارض ، والجدران .

(٩)

كان شوبين قد عاد لتوه الى حجرته وفتح كتابا عندما دخل اليه خادم ستاكوف وأسلمه ورقة صغيرة تحمل خاتما خاصا . وفض شوبين الرسالة وقرأ فيها ما يلى :

« أرجوك كرجل شريف ألا تشير أى اشارة الى موضوع الكمبيالة الذى جرت مناقشته هذا الصباح . انك تعرف علاقتى ومبادئى وما الى ذلك ثم هنالك بعض الاسرار العائلية التى يجب احترامها . كما أن الوفاق بين أفراد الأسرة شيء مقدس لا يحاول النيل منه سوى من لا قلب لهم ، ولا أستطيع أن أنسبك اليهم . (ارجو اعادة هذا الخطاب) ...

فكتب شوبين بالقلم الرصاص فى آخر الخطاب ما يلى :

« لا تقلق ـ ما زلت قادرا على الاستغناء عن سرقة المناديل من جيوب الآخرين .. » ثم أعاد الخطاب للخادم وعاد لقراءة كتابه . ولكن الكتاب سقط من بين يديه . ونظر الى السماء والى لون الشفق ساعة الغروب ثم الى شجرتين كبيرتين من أشجار الصنوبر نمتا متباعدتين عن بقية الأشجار ثم قال لنفسه : ان أشجار الصنوبر يكتنفها لون يميل الى الزرقة أثناء النهار ولكنها تكتسى بلون أخضر جميل عند الغروب .

ثم نزل الى الحديقة يراوده الأمل فى أن يقابل يلينا . ولم يخب ظنه فقد رآها على الطريق الذى تحف به الأشجار فلحق بها ولما أصبح الى جوارها قال لها : لا تنظرى الى فأنا لا أستحق هذه النظرة .

فنظرت اليه وابتسمت له ابتسامة خاطفة وسارت الى ركن بعيد فى الحديقة وتبعها شوبين ثم قال لها : لقد طلبت اليك الا تنظرى الى ورغم ذلك فاننى أتحدث اليك وهذا تناقض واضح . ولكن هذا لا يهم فليست هذه أول مرة أفعل فيها هذا . اننى لا أزال أفكر فى أننى لم أطلب منك الصفح عن حماقتى بالأمس . أرجو ألا تكونى قد غضبت منى يايلينا نيكولايفنا .

فوقفت ولكنها لم تجبه فى الحال . لم يكن ذلك

نتيجة غضبها بل لغرقها فى لجة من الافكار وقالت له أخيرا:

ـ كلا ليست غاضبة منك قط ٠

فعض شوبين على شفتيه وتمتم قائلا : ياله من وجه ينطق بامارات الانشغال والسأم معا ٠ ثم قال بصـــوت مسموع : هل لى أن أقص عليك قصة يايلينا نيكولايفنا ؟ لقد كان لى صديق وكان له صديق كان سلوكه طيبا فى أول الأمر ولكنه أدمن الخمر فيمـــا بعد ٠ وقد التقى به صديقى صباح أحد الأيام فى الشارع ـ وكانت صداقتهما قد انتهت قبل هذا اللقاء ـ ولاحظ انه ثمل فتجنبه ولكن ذلك الصديق سعى اليه وقال له : لا يهمنى أنك لم تحينى بايماءة من رأسك ، ولكننى أريد أن أسألك لماذا تجنبتنى؟ اننى أفعل ما أفعله لأننى أعانى بعض المشاكل ولعل الله يمنحنى راحة البال ٠٠

وسكت شوبين :

فقالت له يلينا : هل هذا كل ما عندك ؟

ـ نعم ٠

ـ ولكنى لم أفهم ما تشـــير اليه ٠ لقد طلبت منى لتوك ألا أنظر اليك ٠

ـ نعم ٠ وقد أخبرتك الآن كم من الصعب أن يتجنب المرء غيره أو أن يتجاهله ٠

فقالت له يلينا : ولكن هل فعلت أنا ذلك ؟

ـ ألم تفعلى ذلك ؟

فاحمر وجه يلينا قليلا ثم مدت له يدها فسلم عليها شوبين بحرارة ٠

قالت : يبدو كأنك قد أوقعتنى فى مأزق أستحق عليه اللوم ولكن شكوكك لا أساس لها من الصحة ، فانا لم أفكر فى أن أتجاهلك ٠٠

ـ حسن ٠ ولكنك تفرين أن هناك الآن ألف فكرة فى ذهنك ولكنك سوف لا تسرين الى بواحدة منها ٠ اليس كذلك ؟

ـ ربما ٠

ـ لماذا ؟

فردت عليه يلينا قائلة : اننى لا أفهم أفكارى ٠

فقال شوبين : هذا أدعى الى الافضاء بهـــا لشخص آخر ٠٠ ولكنى ســـأحدثك عن السبب فى أنك لا تفعلين ذلك ٠ السبب هو انك لا تفكرين كثيرا فى أنا ٠

ـ أنا ؟

ـ أجل لأنك تتصـــورين أن كل شىء أقوم به فيه تظاهر كثير لأننى فنان وأننى غير قادر على القيام بأى عمل ـ قد تكونين محقة فى هذه الفـــكرة ـ وقد ترين أننى لا أستطيع أنأ شعر باحساس حقيقى عميق واننى لا أستطيع حتى أن أبكى بكاء حقيقيا وأننى لست الا شخصا ثرثارا٠٠ وما ذلك الا لأننى فنان ٠ يالنا من طبقة تعسة نحن الفنانين اننى أراهن أنك لا تؤمنين بندمى ٠

ـ أنت مخطىء يا بافل ياكوفليفتش • اننى أؤمن بندمك كما أننى أصدق دموعك •

قال يحدث نفسه : أرى أن هذه كما يقول الاطباء حالة ميئوس منهـــا • كل ما أستطيع أن أعمله أن أحنى رأسى خضوعا • ولكن يا الهى •• هل يمكن أن أظل أثير الضجة حول نفسى رغم وجود هذه المخلوقة الرائعة الى جانبى ؟ وأن أظل أعرف أننى عاجز عن النفاذ •• الى أعماق هذه النفس • او أجهل سبب حزنها أو سعادتها وأجهل ما يدور بنفسها وما تصبو اليه والى أين تسير ؟

ثم قال لها بعد برهة وجيزة : هل تعتقـــدين أنك لا يمكن أن تقعى فى حب فنان تحت أى ظرف من الظروف؟

فنظرت اليه يلينا نظرة فاحصة ثم قالت :

ـ لا أعتقد أن يحدث هذا يا بافل ياكوفليفتش •

ورد يقول فى أسى : لقد ثبت ماتقولين • ويبدو لى أنه يجب على ألا أفسد عليك خلوتك أكثر من ذلك وأنت تسيرين بمفردك •• ولو كان محدثك أستاذا فى الجامعة لسألك قائلا : وما هى الأســـباب التى تجعلك ترفضين ولكننى لست أستاذا جامعيا • اننى طفل فى نظرك • على أية حال ليس للانسان أن يتجاهل الاطفال •• تذكرى هذا والى اللقاء وليمنحنى الله الراحة •

كانت يلينا على وشك أن توقفه ولكنها عدلت عن ذلك وقالت : الى اللقاء ••

وخرج شوبين من الفناء • وبعد أن ابتعد قليلا عن كوخ ستاكوف التقى ببرزنيف الذى كان يسير بنشاط وقد أحنى رأسه وأمال قبعته فوق مؤخرة رأسه •

وناداه شوبين : اندريا بتروفتش •

فوقف برزنيف ••

ولكن شوبين قال له : استمر فى سيرك اســـتمر وادخل الى الحديقة رأسا فستجد يلينا هناك أعتقد أنهـا تنتظرك • على أى حال •• هل تنتظر أحدا • هل تفهم ما تعنى هذه الألفاظ ؟ إنها تنتظر • وهل تعلم ما هو أغرب شىء ؟ لقد عشت معها فى بيت واحد طوال سنتين • اننى أحبها ولكننى لم أرها حقيقة ـ ولا أريد أن أقول ما فهمتها ـ الا هذه اللحظة • لقد رأيتها وتعجبت • أرجو ألا تنظر الى وعلى شفتيك هذه الابتسامة التى لا تتناسب سخريتها مع ملامح وجهك الـــكريم • أنا أعلم انك تريد أن تذكرنى بأنوشكا • وماذا فى ذلك ؟ أنوشكا وأمثالها هو ما يريده أمثالى • اذن فلتحيا أنوشكا وأمثالها وزويا وأمثالها بل وحتى أوجستينا كريستيانوفا وأمثالها • اذهب أنت الى يلينا الآن • أما أنا فذاهب لزيارة ••• هل ظننت اننى ذاهب لزيارة أنوشكا ؟ ـ لا •• لا •• انها زيارة أسوأ من ذلك • اننى ذاهب للأمير تشيكورازوف فهناك أحد مشجعى الفن بهذا الاسم • انظر الى بطـــاقة الدعوة هذه • انهم لا يريدون أن يتركونى وشأنى حتى فى الريف • وداعا •

استمع برزنيف الى حديث شوبين الحماسى فى صمت وكأن حديث صديقه قد حيره ثم دلف الى فنـــاء بيت ستاكوف · أما شوبين فقد ذهب بالفعل الى منزل الأمير تشيكورازوف وألقى على مسامعه كثيرا من الأشياء المقذعة بطريقة لطيفة · وضحك الأمير ملء شـدقيه كما ضحك ضيوفه ولكن واحدا منهم لم يشعر ، فى الحقيقة ، بالبهجة والسرور وعندما انفض الاجتماع عاد كل الى عبوسه ·

(١٠)

رحبت يلينا ببرزنيف ترحيبـا وديا ـ وكانت فى حجرة الاستقبال ـ واستأنفت باهتمام المناقشة التى كانا قد بدآها فى اليـوم السـابق ·· كانت بمفردها اذ كان ستاكوف قد خرج فى هـدوء ، كما كانت أنا فاسيليفنا ترقد فى الدور العلوى وقد ربطت يدها بضمادة وزويا الى جوارها وقد أراحت يديهـا فى حجـرها · أما يوفار ايفانوفتش فكان مستلقيا على أريكة مريحة فى حجرة أخرى ·

وتحدث برزنيف عن والده مرة أخرى وكان يؤمن أن ذكراه شيء مقدس · ولا يفوتنا أن نذكر هنا نبذة عنه·· لقد كان يمتلك اثنين وثمانين من العبيـد أطلق سراحهم جميعا قبل وفاته · وكان رجلا واسع الثقافة تلقى تعليمه

فى جوتنجن وألف كتابا عن « مظاهر الحياة الروحية فى العالم » وهو كتاب ضمنه آراء شـيلنج وسـوبدنبورج وغيرهما بطريقة مبتـكرة · وقد جاء والد برزنيف به الى موسكو بعد وفاة أمه مباشرة وأخذ يشرف على تعليمـه بنفسه · وكان يعد كل درس ويعمل بمثابرة وجد ، ولكن دون أى نجاح · وكان يقضى وقتا طويلا فى القراءة ، وكان متصوفا ويتحدث بصوت متعثر لا تعبير فيه ، ويستعمل لغة غامضة بليغة منمقة يكثر فيها من التشبيهات · وكان خجولا حتى مع ابنه الذى كان يحبه من كل قلبه · لا عجب اذن فى أن ابنه كان يتطلع اليه أثناء الدروس ولكن دون أن يحرز تقدما ما · وأخيرا رأى الرجل الذى كان قد ناهز الخمسين وتزوج ثانية أن هذه الطريقة غير مجدية فأرسل أندريا الى مدرسة داخلية · وبدأ اندريا يدرس دراسة جدية ، ولكنه لم يخرج عن اشراف والده فكان والده يزوره كثيرا ودون انقطاع وكان يثقل على ناظر المدرسة بمناقشاته وأحاديثه · وكان الأساتذة ينظرون بضيق الى هذا الضيف الثقيل وكان من آن لآخر يأتى لهم بكتب عن التربية كانوا يصفونها بأنها كتب جافة ذات مستوى عال · حتى التلاميذ كانوا لا يشعرون بالارتياح اذ ينظرون الى وجهه الذى ترك عليه الجدرى آثاره التى لا تمحى والى قوامه النحيل وهو يرتدى حلته الرمادية · ولم يكن يخطر ببـالهم أن هذا الرجل العبوس الذى يبدو عليه الاكتئاب ، هذا الرجل ذو المشـية السريعـة والأنف الطـويل ، كان يحبهـم

ويعطف عليهم بقدر ما يحب ابنه ويعطف عليه . وقد رأى ذات يوم أن يتحدث اليهم عن واشنجطن . وعندما بدا حديثه قال لهم : أصدقائى الصغار . ولكن ما ان سمع التلاميذ صوته الغريب حتى تفرقوا وانفضوا عنه . لقد سار هذا الرجل فى طريق وعر وكانت تطورات التاريخ وغير ذلك من المشاكل والاعتبارات تملؤه حسرة وأسى . وبعد أن التحق برزنيف بالجامعة كان أبوه يصحبه فى قاعات المحاضرات ، ولكن صحته أخذت تسوء . وقد سببت له أحداث عام ١٨٤٨ صدمة كبيرة ، ومات فى شتاء سنة ١٨٥٣ قبل أن يتخرج ابنه ولكن بعد أن هنأه مقدما وبارك رغبته فى العمل فى مجال العلوم . قال الأب لأندريا قبل وفاته بساعتين : اننى أسلمك مشعلا ظللت أحمله طالما واتتنى القدرة على ذلك . وعليك أنت أيضا ان تحمل هذا المشعل حتى آخر لحظة فى حياتك .

حدث برزنيف يلينا كثيرا عن والده . ولم يعد يشعر بالخجل أو الارتباك فى وجودها . ثم عرجت المحادثة بينهما على الحديث عن الجامعة وقالت له يلينا : هل كان هناك أشخاص ذوو حيثية بين زملائك من الطلبة ؟

فتذكر برزنيف ما كان شوبين قد قاله له وأجابها قائلا : كلا يا يلينا نيكولايفنا لم يكن بينهم أشخاص ذوو حيثية ولم يكن ذلك ممكنا . يقال ان الأمور كانت تختلف فى جامعة موسكو عما هى عليه الآن ، لقد تغيرت عما كانت عليه فغدت مدرسة لا جامعة (وهنا خفض من صوته

وأضاف قائلا) : كما ان علاقتى بزملائى لم تكن طيبة ..

وتساءلت يلينا : أحقا لم تكن علاقتك طيبة بزملائك؟

فاستأنف برزنيف حديثه قائلا : أريد أن أشير الى حالة استثنائية فى هذا الصدد اننى أعرف طالبا ولو أنه كان فى فرقة غير فرقتى – من الشبان المرموقين فسألته يلينا باهتمام واضح : وما اسمه ؟

– اسمه ديمترى نيكافوروفتش انزاروف وهو بلغارى .

– هو ليس روسيا اذن .

– كلا انه ليس روسيا .

– فلماذا يعيش فى روسيا اذن ؟

– لقد جاء الى هنا للدراسة . هل تعلمين حكمة التعليم كما يراها ؟ ان الفكرة المسيطرة عليه هى تحرير بلاده . كذلك فان حياته حياة غير عادية .

فقد كان والده تاجرا غنيا فى مدينة تيرنوفو . تيرنوفو مدينة صغيرة فى الوقت الحاضر ولكنها كانت فى الماضى عاصمة بلغاريا عندما كانت لا تزال مملكة مستقلة . وكانت له معاملات مع صوفيا كما كانت له علاقات مع روسيا . ولا تزال أخته وهى عمة انزاروف تعيش فى كييف وهى متزوجة من مدرس تاريخ .

وفى سنة ١٨٣٥ أى منذ ثمانية عشر عاما ارتكبت جريمة شنعاء فقد اختفت والدة انزاروف فجأة ثم عثروا عليها وقد ذبحت بعد ذلك باسبوع .

ارتعشت يلينا وتوقف برزنيف عن الكلام · ولكنها قالت له : استمر فى حديثك ، استمر ·

ـ فقال : لقد أشيع أن القائد الذكى اختطفها ثم قتلها · وقد استطاع زوجها وهو والد انزاروف ان يعرف كل شىء عن هذا الموضوع وحاول أن ينتقم لنفسه ولكنه لم يفعل أكثر من انه اصاب القائد بجرح بخنجره ولكنه هو لقى حتفه ··

ـ لقى حتفه ؟ تعنى انه قتل دون محاكمة ؟

ـ نعم · وكان انزاروف فى الثامنة من عمره فآواه بعض الجيران ، وعلمت عمته بما حل بأسرة أخيها وطلبت أن يرسل ابن اخيها اليها · فأخذ الى أوديسا ومنها الى كييف حيث عاش اثنتى عشرة سنة ، وهذا هو السبب فى انه يتحدث بالروسية بطلاقة ·

ـ وهل يتحدث الروسية ؟

ـ كما تتحدثيها أنت وأتحدثها أنا · وعندما بلغ العشرين أى فى أوائل عام ١٩٤٨ صمم على العودة الى وطنه وذهب الى صوفيا وتيرنوفو وأخذ يتجول فى جميع أنحاء بلغاريا وأمضى هناك سنتين وعاد يتعلم لغة بلاده · وقد اضطهدته الحكومة التركية ، وأعتقد أنه قد تعرض لمخاطر كثيرة خلال هاتين السنتين ·

وقد رأيت ذات مرة أثر جرح كبير على رقبته ولكنه لا يحب أن يتحدث عنه · وهو بطبيعته قليل الكلام · وقد

حاولت أن أوجه اليه بعض الأسئلة ولكننى لم أحصل منه على اجابة شافية · انه عنيد الى حد كبير · وقد عاد الى روسيا عام ١٨٥٠ لاستكمال دراسته وتوطدت علاقته مع الروس · ولكن عند التخرج ···

ـ فقاطعته يلينا متسائلة : ماذا عند التخرج ؟

ـ عند التخرج سيرى مايكون فمن الصعب التنبؤ الآن·وظلت يلينا تحدق فى برزنيف فترة طويلة · ثم قالت له : لقد قصصت على قصة غريبة حقا · وما شكل صديقك هذا ؟

هل قلت ان اسمه انزاروف ؟

ـ أعتقد أنه وسيم · وعلى كل فانك ستحكمين بنفسك ·

ـ وكيف ذلك ؟

ـ سأحضره الى هنا · انه سيأتى الى قريتنا بعد غد وسيشترك معى فى السكن ·

ـ حقا ؟ ولكن هل يكترث بالحضور الى هنا ؟

ـ يكترث ؟ انه سعيد بقدومه ·

ـ هل هو متكبر ؟

ـ متكبر ؟ كلا · ولكنه متكبر بمعنى آخر ، فهو لا يحاول ان يقترض نقودا من أحد ··

ـ وهل هو فقير ؟

— انه ليس غنيا • وقد استطاع أثنـــاء وجوده فى بلغاريا أن يجمع بعض المال من الممتلكات التى تركها له والده • وعــلاوة على ذلك فان عمته تســـاعده ولكن هذه المساعدة لا تكاد تذكر •

— لابد انه على خلق كريم •

— نعم : انه رجل من حديد • وعلى كل ، فسترين أنه رغم تحفظه بل ورغم تكتمه برىء براءة الطفولة ولكن براءته ليست من النوع الساذج كما أنها ليست براءة من لا يجدون شيئا يستحق الاخفاء وعلى كل انتظرى حتى أحضره الى هنا •

— سألته يلينا قائلة : انه ليس خجـولا ، أليس كذلك ؟

— كلا فان من يخجلون هم شديدو الحساسية •

— وهل أنت شديد الحساسية ؟

فنظر اليها برزنيف بارتباك •

— وأضـــافت قائلة : لقد أثرت فى نفسى حب الاستطلاع ولكن قل لى هل انتقم لنفسه من القائد التركى؟ فابتسم برزنيف وقال : هذا لا يحدث الا فى القصص يا يلينا نيكولايفنا • وعلاوة على ذلك فقد يكون القائد التركى قد مات خلال السنوات الاثنتى عشرة السابقة •

— فقالت له : ولكن ألم يحدثك صديقك عن هذا ؟

— كلا ••

— ولماذا ذهب الى صوفيا ؟

— لقد عاش أبوه هناك •

— فقالت يلينا وهى تفكر : عاش أبوه هناك •• ثم اردفت :

لكى يحرر بلاده ••• انها الفاظ مخيفة ولكنها عظيمة •

وهنا دخلت فاسيليفنا وانقطعت المحادثة ••

كان برزنيف يحس احساسا غريبا وهو يسير فى الطريق الى بيته ذلك المساء • لم يندم لأنه عرض أن يقدم أنزاروف الى يلينا ووجد من الطبيعى أن تهزها قصته عن البلغارى الشاب • ولكنه أحس بشعور غامض يجيش فى صدره وشعر بحزن غريب بيد أن هذا الحزن لم يمنعه عندما وصل الى مسكنه من أن يأخـــذ كتاب « تاريخ الهنستوفيين » ، ويســـتأنف القراءة من حيث توقف فى اليوم السابق •

« ١١ »

وصل انزاروف ومعه متاعه الى بيت برزنيف بعد يومين كما سبق أن وعده • ولم يكن معه خادم ولكن

استطاع دون مساعدة أحد أن يرتب حجرته وما بها من أثاث . وقد أمضى وقتا طويلا فى وضع المكتب فى مكانه ولكنه لم يستطع رغم ما بذل من جهد أن يضعه فى المكان المحدد له بين النافذتين . وبعد ان وضع كل شىء فى مكانه عرض على برزنيف أن يأخذ عشرة روبيلات من الايجار مقدما ثم أخذ فى يده عصا وخرج لاستكشاف المنطقة المحيطة بمسكنه الجديد ، عاد بعد حوالى ثلاث ساعات فطلب اليه برزنيف ان يشاركه طعامه فقبل ولكنه أخبره انه سيحصل على غذائه مستقبلا من صاحبة البيت التى اتفق معها على ذلك . وعلق برزنيف على ذلك بقوله : ستتناول اذن وجبات رديئة فهى لا تجيد الطهى . ولكن لماذا لا تريد ان تتناول طعامك معى ؟ فى استطاعتنا ان نتقاسم التكاليف .

فابتسم انزاروف بهدوء وقال : لا طاقة لى بتحمل تكاليف أصناف الطعام التى تتناولها ..

كانت ابتسامته من النوع الذى يحول دون الالحاح عليه ، لذا فان برزنيف لم يزد عما قاله شيئا . وبعد تناول الطعام اقترح برزنيف ان يذهبا لزيارة بيت ستاكوف ولكن انزاروف اعتذر بأنه يعتزم أن يمضى فترة المساء كلها فى كتابة خطابات لمواطنيه ، ومن ثم رجاه أن يؤجل هذه الزيارة ، وكان برزنيف يعرف من قبل مدى صلابة رأى انزاروف ولكنه لم يكتشف أن انزاروف لا يمكن أن يغير رأيه أو أن يؤجل تنفيذ وعد وعده الا بعد أن عاش

معه تحت سقف واحد . وكروسى اصيل وجد برزنيف ان هذه الدقة المتناهية شىء معقول بل ومثير للضحك ولكنه اعتادها بمضى الوقت بل ووجدها ، فى آخر الأمر ، مريحة .

استيقظ انزاروف فى اليوم التالى لوصوله فى الرابعة صباحا وقام بجولة سريعة فى معظم أنحاء كونشوفو واستحم فى النهر وشرب كوبا من اللبن المثلج ثم بدأ يعمل ، كان يدرس التاريخ الروسى ، والقانون والاقتصاد السياسى كما كان يترجم بعض الأغانى والمقالات البلغارية، ويقوم بجمع المعلومات عن مشكلة الشرق الأدنى . وكان قد بدأ فى تأليف كتاب عن قواعد اللغة الروسية للبلغاريين وكتاب عن قواعد اللغة البلغارية للروس .

وجاءه برزنيف فى زيارة قصيرة للتحدث معه عن فورباخ . وأولاه انزاروف أذنا صاغية وكانت تعليقاته القليلة الدقيقة تدل على أنه كان يحاول أن يقرر ما اذا كان الامر يقتضى أن يدخل معه فى مناقشة حول فورباخ أم لا .

وتعرض برزنيف لموضوع مؤلفات انزاروف منه أن يريه بعضها فقرأ له انزاروف الترجمات التى أعدها لأغنيتين بلغاريتين ثم سأله رأيه فيها فانبأه برزنيف أن الترجمة فى رأيه سليمه وان كان ينقصها التعبير . وتقبل انزاروف هذا النقد راضيا . ثم انتقل برزنيف من الحديث عن

لاغانى الى الحديث عن الموقف فى بلغاريا · ولأول مرة
حس برزنيف بالتغير الكبير الذى طرأ على انزاروف لمجرد
كر بلاده فلم تتغير ملامحه ولم يرتفع صوته فحسب بل
ن كيانه كله سرت فيه هزة قوية ، وتحركت شفتاه فى
صرار ، ولمعت عيناه ببريق لا ينطفىء · ومع أن انزاروف
م يكن يرحب بالحديث عن رحلته الى بلغاريا الا أنه كان
لى استعداد للحديث عن بلاده مع أى امرىء ، كائنا من
ان ، فتحدث فى تؤدة عن الأتراك وما لجئــوا اليه من
ضطهاد وما حل بمواطنيه من مصائب وويلات وعن آمالهم
مطامحهم · وكانت كل كلمة من كلماته تعبر تعبيرا قويا
ما تحمله من عاطفة طال كبتها ·

ـ وقال برزنيف لنفسه : ربما دفع ذلك القــائد
لتركى ثمن قتل والدى انزاروف ··

وقبل أن ينتهى انزاروف من حديثه فتح الباب وظهر
وبين على عتبته ·

دخل شوبين وقد بدت عليه الثقة وروح الدعابة ·
فهم برزنيف الذى كان يعرفه حق المعرفة أن لديه مايريد
ن يقوله ·

وبدأ شوبين الحديث وقد لاحت على وجهه نظرة تنم
ن الصراحة والوضوح فقال :

« اسمحا لى أن أقدم نفسى دون تكلف · اســمى
وبين وأنا صديق لهذا الشــاب وأشار الى برزنيف ·

وأعتقد أنك أنت المستر انزاروف أليس كذلك ؟

ـ نعم هذا هو اسمى ·

ـ اعطنى يدك اذن ولنتعارف · لست أدرى ما اذا
كان برزنيف قد حدثك عنى ولكنه قد حدثنى كثيرا عنك·
لقد تركت المدينة اذن وانتقلت الى هنا ؟ عظيم · أرجو
ألا تؤول نظرتى الطويلة اليك تأويلا خاطئا ، فاننى مثال
بحكم مهنتى وبودى أن تسمح لى بعمل تمثال لرأسك ·

ـ قال له انزاروف : رأسى تحت تصرفك ·

ـ فقال شوبين وهو يجلس على مقعد قصير وشبك
يديه على ركبتيه : ما الذى ســــنفعله اليوم يا اندريا
بتروفتش ؟ هل أعددت يا صاحب السعادة برنامجا لهذا
اليوم ؟ ان الطقس جميل مشبع برائحة الفاكهة ولابد لنا
أن نستمتع بوقتنا وأن نطلع نزيل كونتسوفو الجديد على
معالمها العديدة ·

ـ (فقال برزنيف فى نفسه : انه يشاغب)

لماذا لا تتحدث يا صديقى هوراشيو؟ تحدث واسمعنا
صوتك ·

ـ فرد عليــه برزنيف قائلا : كيف بى ان اعرف
ما يريده انزاروف ·· اعتقد ان لديه أعمالا ·

ـ فاستدار شوبين فى مقعده وسأل انزاروف : هل
لديك عمل ؟

ـ فأجابه انزاروف : كلا • لا عمل عندى اليوم وأستطيع أن أقوم بجولة •

ـ فقال شوبين : عظيم • اذهب يا صديقى أندريا بتروفتش وضع قبعة على رأسك المتلىء بالحكمة ولنتبع انوفنا ، ان حاسة الشم عندنا قوية وسوف تذهب بنا بعيدا • اننى أعرف مطعما صغيرا ولكنه بديع نستطيع أن نتناول فيه وجبة بديعة وسنستمتع فيه بوقتنا تماما • هيا بنا •

وما أن انقضى نصف الساعة حتى كان الثلاثة يسيرون بمحاذاة نهر موسكفا • وكان انزاروف يرتدى غطاء رأس غريب الشكل يغطى أذنيه وتثير ضحكات شوبين • وكان انزاروف يسير بخطى وئيدة وهو يتحدث وينظر ويبتسم بكل هدوء • كان يحاول ، بعد ان استقر الرأى على اللهو ، ان يستمتع بوقته تماما • وهمس شوبين فى اذن برزنيف قائلا : هكذا يمضى الشبان المهذبون أيام الأحد • وكان شوبين يمرح ما وسعه المرح وكان يجرى ويقف متخذا أوضاع تماثيل الشخصيات المشهورة كما كان يتقلب على الأرض • لم يكن هذا منه اعترافا على هدوء انزاروف ولكن هذا الهدوء جعله هو يتصرف كمهرج السيرك • وسأله برزنيف: لماذا هذا التهريج أيها الفرنسى؟ فأجاب شوبين : نعم فرنسى نصف فرنسى وأنصحك أن تظل متأرجحا بين الهزل والجد وهى نصيحة كان يوصينى بها دائما خادم بأحد المطاعم •

وابتعد الثلاثة عن النهر وساروا فى منخفض عميق بين حقلين من حقول القمح الذهبية كان أحدها يلقى عليهم ظلالا زرقاء • وكانت الشمس تلقى أشعتها على أعواد القمح والهواء يحمل اصداء تغريد الطيور وصفير الحشرات الصغيرة • كانت الريح الدافئة تحرك الحشائش التى كانت تنتشر على هيئة بساط أخضر حولهم وأعواد الزهور • وبعد أن تجولوا كثيرا تسامروا وتوقفوا ـ بل ان شوبين حاول أن يداعب أحد الفلاحين ويقفز على كتفيه مما أثار ضحك الفلاح ـ وصلوا أخيرا الى المطعم الصغير واستقبلهم الخادم وقدم لهم طعاما رديئا مع بعض النبيذ البلقانى ، ولكن هذا لم يمنعهم من الاستمتاع بوقتهم كما توقع شوبين الذى كان أكثرهم ضجيجا وأقلهم مرحا • وشرب نخب فنيبيلين العظيم ونخب الملك كروم ملك بلغاريا الذى كان يحكم قريبا من عهد آدم •

ـ ولكن انزاروف صححه قائلا : فى القرن التاسع

ـ فصاح شوبين : فى القرن التاسع آه •• يا للفرصة ••

لاحظ برزنيف أن شوبين رغم كل تهريجه ودعاباته وفكاهاته كان يحاول أن يسبر أغوار انزاروف فى حين ظل انزاروف هادئا كعادته •

وأخيرا عادوا الى البيت وقد عقدوا العزم على انهاء اليوم بزيارة آل ستاكوف فى المساء • وأسرع شوبين لاخطارهم بالزيارة •

(١٢)

صاح شـــوبين وهو يدخل الى حجرة الجلوس فى بيت ستاكوف حيث وجد يليفا وزويا • سيصل خلال لحظـات البطل انزاروف •

ـ فقالت زويا بالألمانية : حقا ؟ كانت تتحدث اذا فوجئت بلغتها القومية واعتدلت يلينا فى جلستها • ونظر شوبين اليها نظرة ذات مغزى • وأحست بالحرج ولكنها لم تقل شيئا •

ـ وتحدث شوبين مرة أخرى قائلا : هل سمعت ؟ انزاروف قادم •

ـ فقالت : سمعت • كما سمعت النعت الذى نعته به • انك تثير دهشتى حقا • ان السيد انزاروف لم يأت الى هنا من قبل ولكنك مع ذلك لا ترى بأسا فى القيـــام بدور المهرج •

ـ فطأطأ شوبين رأسه وقال : انت على حق يا يلينا نيكولايفنا • انت دائما على حق • ثم اردف وهو يتلعثم : ولكننى لم أكن أقصد اساءة صدقينى • لقد أمضينا اليوم كله نتجول معا وأؤكد لك انه شخص ممتاز •

ـ فقالت يلينا وهى تقوم من مكانها : انا لم اسألك عن ذلك •

ـ فسألته زويا : هل السيد انزاروف صغير السن؟

ـ فأجابها شوبين على الفور : عمره مائة واربعـــة وأربعون عاما •

ـ وأعلن الخادم وصول الصديقين ، فدخلا • وقام برزنيف بتقديم انزاروف • وطلبت اليه يلينا أن يجلس ثم اتخذت هى مجلسا بينما صعدت زويا الى الدور العلوى لاخطار أنا فاسيليفنا • وبدءوا يتحـــادثون ويتبادلون المجاملات كما جرت العادة بين من يتعارفون لأول مرة •

وجلس شوبين فى أحد الأركان يرقب ولو أنه لم يكن هناك ما يستحق ذلك • كان كل ما لاحظه فى يلينا أثرا لضيق مكبوت منه • ثم نظر الى برزنيف وانزاروف وقارن بين وجهيهما من وجهة نظر المثال وقال فى نفسه : ليس لأى منهما وجه وسيم • ان للبلغارى وجها تقليديا من السهل عمل تمثال له لا سيما وأن الاضاءة عليـــه جيدة الآن • اما وجه الروسى فهو أنسب للرسم اذ أن له شخصية وان كانت تعوزه الخطوط • ولكننى أستطيع أن أقول انهما جديران بالحب • انها ستقع بلا ريب فى حب برزنيف ولو انها لم تحبه بعد • ودخلت أنا فاســـيليفنا الى حجرة الجلوس واتخذ الحديث اتجاها آخر وتشعبت موضوعاته، ولكن كانت تتخلله فترات سكون قصيرة •

والتفتت أنا فاسيليفنـــا الى زويا فى احدى هذه الفترات ، وفهم شوبين مغزى هذه اللفتة • فقد قامت زويا

الى البيانو وأخذت تعزف وتغنى ما تعرفه من أغنيـــات قصيرة • وظهر يوفار ايفانوفتش أمام عتبـة البـاب وهو يلوى أصابعه ولكنه تراجع • وقدم الشاى وبعدها خرجت الجماعة كلها الى الحديقة •

وهبط الليل وغادر الزوار المكان •

لم يكن التأثير الذى تركه انزاروف على يلينا من القوة بالقدر الذى كانت تتوقعه أو بمعنى أصح كان مختلفـا عما توقعته • وقد أعجبتها أخلاقه البسيطة القويمة ، كما أنها أعجبت بوجهه • وأياما كان الأمر فقد كان تكوين انزاروف كله ، وهدوؤه وحزمه وبسـاطته ، يختلف عن الصورة التى رسمتها له استنادا الى وصف برزنيف • لقد كانت تنتظر دون سبب مفهوم أن ترى شابا جذابا • وقالت لنفسها : انه لم يتحدث كثيرا اليوم ولكن هـذا ذنبى ، فانى لم أوجه اليه سؤالا • سأنتظر للمرة القادمة ان عينيه معبرتان • عينا شـخص مستقيم • وأحست وكانها كانت تحييه فصافحته باليد لا بمجرد انحناءة ، وداخلها شىء من الارتباك فقد كانت لديها فكرة مختلفة عن الرجال من أمثال انزاروف ـ عن « الأبطال » وقد ذكرتها هذه الكلمة بشوبين فاحمر وجههـا غضبا وهى ترقد فى فراشها •

وفى طريق العودة سـأل برزنيف انزاروف • ما رأيك فى معارفك الجدد ؟

ـ فرد انزاروف قائلا : أعتقد أنهم قوم طيبـون لا سيما الابنة فهى فتاة لطيفة • عاطفية ولكن عاطفتهـا صادقة •

ـ فقال برزنيف : لابد لنا ان نزورهم من وقت لآخر •

ـ وأجابه انزاروف : نعم • ولم يتكلم ثانية حتى بلغا البيت هناك اغلق على نفسه الحجرة ولكن شمعة ظلت موقدة فى الحجرة الى ما بعد منتصف الليل •

ولم يكن برزنيف قد قرأ صفحة واحدة من رومير حين ألقيت على نافذته حفنة من الرمل • فانزعج وفتـح النافذة واذا به يرى شوبين ، وقد امتقع لونه •

ـ قال برزنيف ، يا لك من مشـاغب • أنت كالفراشة تماما •

ـ وقاطعه شوبين قائلا : صه •• لقد أتيت لك خفية ، أريد أن أسر اليك بشىء •

ـ حسنا ، اصعد •

ـ فأجابه شوبين وقد استند الى قاعدة النافذة ، لا حاجة لذلك ـ فالحديث هكذا أكثر اثارة • دعنى أولا أهنئك فان أسـهمك فى ارتفاع • أما رجـلك ، رجل الأعاجيب ، فقد فشل وعندى الادلة ولكن أبين لك مدى حيادى فاسمح لى أن أدلى اليك برأيى المفصل فى السيد انزاروف • انه شخص غير موهوب لا يميل للشعر وله

قدرة كبيرة على العمل وذاكرته قوية ، وله عقل متفتح وان لم يكن جبارا • وهو جاف وعنيف بل وطلق اللسان عندما تذكر بلغاريا ــ تلك البلاد الموحشة • ما رأيك ؟ هل تقول انى لست منصفا ؟ وثمة ملاحظة أخيرة • أنت لا يمكن أن تأتلف معه ولم يحدث أن ائتلف مع أحـــد كائنا من كان • انه يبغضنى لأننى فنان ــ الأمر الذى أفخر به • انه جاف كعود القش بيد أنه يستطيع أن يسحقنا جميعا كما يسحق الدقيق • انه شديد التعلق بوطنه وهو فى هذا يختلف عن بعض الأشـــخاص الذين يحاولون استرضاء الشعب ولكن مهمته أبسط وأكثـر يسرا •

ان كل ماعلى القوم أن يفعلوه هو أن يطردوا الاتراك ــ وليس هذا بالعمل الجليل • ولكن كل هذه الصفات لا تستهوى النســاء لحسن الحظ • انه يفتقد الجاذبيـــة والسحر ــ على عكسنا أنت وأنا •

ــ فتمتم برزنيف قائلا : ومالى أنا وكل هذا ؟كذلك فانك مخطىء فى بعض ما ذهبت اليه لأنه لا يبغضك على الاطلاق كما أنه على علاقة طيبة بأبناء وطنه وأنا أعلم هذا •

ــ هذا موضوع آخر • انه بطل بالنسبة لهم أما أنا فلا بد أن أعترف أن فـكرتى عن البطل تختلف عن هذا • فالبطل عندى يجب ألا يعرف كيف يتكلم وانما يكفى أن يخور كالثور • لا بد أن يضرب الجــدار بقرنيه ليهدمه ، كما أنه لا يجب أن يعرف لمـاذا يستعمل قرنيه ، بل عليه أن يستعملهما وحسب •

وعلى كل • فربما كان الذين يحتاج اليهم وقتنا هذا أبطالا من نوع آخر •

ــ وسأله برزنيف قائلا : ولماذا تشــغل نفسك يا يا نزاروف ؟

ــ أنا لا أتصور أن تكون قد أتيت الى هنا عدوا لمجرد أن تصفه لى •

ــ فرد قائلا : أتيت لاننى شعرت بكآبة فى البيت •

ــ حقا ؟ أرجو ألا تبدأ فى البكاء مرة أخرى •

ــ لك أن تسخر منى اذا أردت • لقد أتيت الى هنا لأننى بائس ، ولأننى أعانى شعورا بالغيرة والغضب •

ــ تشعر بالغيرة ممن ؟

ــ منك ومنه ومن كل رجل آخر • اننى أتعذب عندما أفكر فى اننى لو كنت قد فهمتها من قبل ولو كنت عرفت كيف أتصرف معها ــ ولكن ما الفائدة الآن ؟ سينتهى بى الأمر الى أن أضحك وأمرح وأقوم بدور المهرج كما تقول هى • ثم أخرج وأنا أود لو أننى استطعت أن أشنق نفسى •

ــ شنق نفسك هو الشىء الوحيد الذى لا تستطيع أن تقدم عليه •

ــ لن أقدم عليــه فى ليلة ، كهـذه بالطبع • ولكن

انتظر حتى يأتى الخريف • ان من الناس من يموت فى ليلة كهذه أيضا ولكنهم يموتون من السعادة •• اه •• يا لها من كلمة • ان كل ظل يمتد عبر الطريق من احدى الاشجار يبدو وكأنه يهمس قائلا : « أنا أعرف مكان السعادة • هل تريدنى أنا خبرك ؟ » •

كنت أريد أن أطلب اليك أن تسير معى بعض الوقت ولكننى أراك مشغولا بالقراءة • سنأوى الى فراشك ولعلك ترى أحلاما تحبها • أما قلبى فانه ينزف دما• عندما ترون شخصا يضحك فانكم تعتقدون انه قرير العين بالحياة • ان فى وسعكم أن تثبتوا انه يناقض نفسه وأنه لا يعانى شيئا • على أية حال ، سيروا على طريقتكم •

وابتعد شوبين عن النافذة • وهم برزنيف بأن يصيح وراءه هاتفا : « انوشكا » ولكنه أمسك عن ذلك فقد كان وجه شوبين ينطق بالالم • وقد خيل لبرزنيف بعد برهة أنه سمع شخصا يبكى فقام من مكانه وفتح النافذة ولكن الليل كان شاحبا فى الخارج عدا أن أحد السابلة راح يترنم باحدى الاغنيات على البعد •

(١٣)

لم يتردد انزاروف على دار ستاكوف خلال الخمسة عشر يوما التى أعقبت مجيئه الى كونتسوفو أكثر من أربع

أو خمس مرات • أما برزنيف فكان يزورهم يوما بعد يوم • وكانت يلينا تشعر بالسرور لمجيئه ، وكانت محادثاتهما تتسم دائما بالحيوية والاهتمام ورغم ذلك فانه كثيرا ما كان يعود لبيته حزينا كاسف البال • أما شوبين فلم يكن يظهر الا نادرا •• كان يكرس كل وقته لفنه فاما أن يحبس نفسه فى حجرته التى كان اذا بارحها ظهر الصلصال عالقا بملابسه أو يمضى وقته فى مرسمه فى موسكو حيث كان يزوره بعض موديلات الرسم أو النحت وبعض المثالين الايطاليين والاصدقاء والاساتذة • ولم تكن الفرصة قد واتت يلينا لتتحدث الى انزاروف على النحو الذى تريده • كان يرد على ذهنها فى غيابه كثير من الأسئلة التى تريد أن تسألها له • ولكنه عندما كان يأتى كانت تستشعر بالخجل مما أعدته • كان هدوء انزاروف يجعلها تشعر بالحرج حتى أنها اعتقدت أن من غير اللائق أن تواسيه بالكلام ، لذا فقد قررت أن تتحين الوقت المناسب ورغم كل ذلك فقد كانت تشعر بالميل اليه أكثر وأكثر مهما كان من بساطة حديثهما ولكن الفرصة لم تتح لها للانفراد به •

وكانت كثيرا ماتتحدث عنه الى برزنيف الذى أدرك أنه قد أثار اهتمامها وأحس بالسرور لنجاح صديقه محيطا لما أكده شوبين • وقد أدلى اليها فى حماس واسهاب بكل مايعرفه عن انزاروف • ولم يحدث الا نادرا ـ وقد رأى وجنتيها وقد علتهما حمرة خفيفة وعينيها وقد التمعت

وازدادت اتســاعا ـ ان اعتصر قلبه الحزن الـكئيب الذى كان قد أحس به مرة من قبل ·

زار برزنيف آل ستاكوف ، ذات يوم ، فى العاشرة صـباحا وكان توقيتـا غير عادى للزيارة وخرجت يلينـا لمقابلته فى حجرة الجلوس فقال لها وهو يفتعل ابتسامة : تخيلى أن صديقنا انزاروف قد اختفى ·

فاضطربت يلينا وقالت : اختفى ؟

ـ نعم · خرج أول أمس ولم يعد حتى الآن ·

ـ هل أخبرك عن وجهته ؟

ـ كلا ·

وارتمت يلينا على أحد المقاعد· ثم قالت وهى تحاول أن تبدى عدم الاهتمـام وتتعجب من حـكمة قيامها بهذه المحاولة : لعله ذهب الى موسكو ·

فأجابها برزنيف : لا أظن فانه لم يخرج بمفرده ··

ـ من كان معه ؟

ـ زاره أول أمس قبيل الغداء ·

رجلان أعتقد أنهما من مواطنيه ·

ـ من البلغاريين ؟ وماالذى يجعلك تعتقد ذلك ؟

ـ سمعتهم يتحدثون لغة سلافية ولو أننى لاأعرفها· وهـكذا ترين أن ما يكتنف انزاروف من غمـوض ليس كافيا · ولـكن هل هناك ما هو أكثر غموضـا من هـذه الزيارة ؟

لقد دخلا الغرفة وأخذا يصيحان ويتجادلان ، وكان هو الآخر يصيح :

ـ أحقا كان يصيح ··؟

ـ نعم · لقد صاح فيهما · ويبدو أن مشادة قامت بينهما ·· آه لو رأيت هذين الزائرين ! كان لكل منهما وجه أسمر وأنف مقوس كلاهمـا جاوز الاربعـين كانت ملابسهما رثة وقد غطاها التراب والعرق ، وكان مظهرهما غريبا لا يعرف منه ما اذا كانا من أصـحاب الحرف أم من السادة ولا يعلم كنهما الا الله ·

ـ وهل خرج معهما ؟

ـ نعم · قدم لهما بعض الطعام ثم خرجوا معا · وقد ذكرت لى صـاحبة البيت أن هذين الرجلين قد أتيـا على طبقين كبـيرين من العصيدة وقالت انهـما كانا يلتهمان الطعام بشراهة ذئاب جائعة ·

ـ فابتسمت يلينا ابتسامة خفيفة ثم قالت :

يخيل الى أن كل هذا سوف يتمخض فى النهاية عن شىء تافه ·

ـ أرجو ذلك · ولـكنك ما كان يجب أن تسـتعملى هـذه الـكلمة · فليس فى انزاروف شىء تافه وان كان شوبين يصر ·

ـ فقاطعته يلينا قائلة : شوبين ـ طبعا · ولـكنك تقر ولا شك أن الرجلين وهما يلتهمان الطعام ·

ـ فعلق برزنيف على كلامها بابتسامة قائلا :
كان ثميستوكليس هو الآخر يأكل بشراهة عشية معركة سالاميس ·
ـ فقالت : هـذا صحيح ولـكن كانت ثمة معركة حينذاك ·· على أى حال أرجو أن تبلغنى بعودته ·
ثم حاولت تغيير الموضوع ولو أن الحديث لم يسلس قياده لنا ·
ودخلت زويا الحجرة على أطراف أصابعها وكان هذا دليلا على أن أنا فاسيليفنا كانت لا تزال نائمة ·
وقام برزنيف وغادر المكان ·
وفى المساء وصلتهـا رسالة من برزنيف جاء فيهـا ما يلى : عاد وقد لفحته الشمس وغطى التراب كل جسده حتى حاجبيه ولـكنى لا أعرف أين كان ولا لمـاذا خرج · هل فى مقدورك أن تعرفى ذلك ؟
ـ فهمست يلينا لنفسها قائلة : هل فى مقدورك أن تعرفى ذلك ! هل يبدلنى الحديث أبدا ؟

(١٤)

بعد ظهر اليوم التالى كانت يلينـا تقف فى الحديقة أمام بيت صغير للكلاب كانت تحتفظ فيه بجروين · كان البستانى قد وجدهما بالقرب من السور فأحضرهما لها ، اذ كان قد سمع من احدى الغسالات أنها تعطف على جميع الحيوانات · ولم يخطىء ظنه فقد أعطته يلينا مبلغا لابأس به نظير الجروين ·

ومدت بصرها داخـل بيت الـكلاب واطمـأنت الى أن الجروين كانا بخير وأن القش الذى وضع فى أرضية البيت قد استبدل به قش نظيف · ثم استدارت واذا بهـا ترى انزاروف قادما بمفرده فى الطـريق · وكادت تصرخ من المفاجأة ·
ـ قال لها وهو يقترب منها وقد رفع قبعته محييا :
ـ طاب مساؤك ·
ولاحظت أن وجهه قد لفحتـه الشمس فعلا · ومضى يقول : لقد أردت أن أحضر مع اندريا بتروفتش ولكنه لم يكن قد استعد بعد · فجئت بمفردى · ليس فى بيتـكم أحد فالجميع اما نائم أو يتمشى · وهأنذا قد حضرت ·
وردت يلينا قائلة : انك تتحدث وكأنك تعتذر ·· ليس هناك ما يدعو للاعتذار · نحن جميعا نسر لرؤيتك · هلم بنا نجلس على هذا المقعد فى الظل ·
وجلست وجلس انزاروف الى جوارها ··
قالت : علمـت انك تغيبت عن البيـت خلال الايام القليلة الماضية ·
ـ فقـال : هـذا صـحيح ·· هـل أخبرك اندريا بتروفتش بذلك ؟

ونظر اليها وابتسم وأخذ يعبث بقبعته • وكان وهو يبتسم يرمش سريعا بعينيه وقد مد شفتيه فبدا شخصا طيبا •

ثم أضاف وهـو لا يزال يبتسـم : لا بد أن اندريا بتروفتش قد أخبرك اننى خرجت مع شخصين رثى الهيئة•

وشعرت يلينا بشيء من الحرج ، ولـكنها تنبهت بعد لحظة الى أنه من الواجب قول الصدق لانزاروف • فأجابت: نعم •

ـ فسألها فجأة : وماذا كان رأيك فى ؟

فنظرت يلينا اليه وأجابته قائلة :

ـ أنا اعتقد •• اعتقـد أنك تعرف دائمـا ما تفعل وأنك لا تستطيع أن ترتكب خطأ ••

ـ شكرا لك على هذه الثقة ••

ثم قال وهو يدنو منها وكأنه يسر اليها أمرا :

ـ نحن نكون هنا أسرة صغيرة وبعضنا لم يتلق الا قدرا ضـئيلا من التعليم ، ولـكننا جميعا نكرس حياتنـا للقضية المشتركة• ومع ذلك ، فاننا لسوء الحظ لانستطيع أن نعيش دون أن نختلف ونظرا لأنهم جميعـا يعرفوننى ويثقون فى ، فقد استدعيت لتسوية أحد الخلافات وكان لا بد لى أن أذهب ••

ـ وهل كان المكان بعيدا عن هنا ؟

ـ لقد ذهبت الى تروبتسكى بوسار وهى تبعد حوالى

ستين كيلو مترا من هنـا ويعيش فيهـا بعض مواطنى فى الدير • وعلى كل فلم تكن العمليـة مضـيعة للوقت فقـد تمكنت من تسوية الموضوع ••

ـ وهل كانت المهمة شاقة ؟

ـ نعم فقد كان أحدهما عنيدا وكان يرفض التنازل عن بعض النقود •

ـ ماذا هل تعنى أنهما تشاجرا بسبب النقود ؟

ـ نعم ، ولم يكن المبلغ كبيرا • هـل كنت تعتقدين أن الأمر يتعلق بشيء آخر ؟

ـ هل قطعت كل هذه المسافة من أجل هذا الموضوع التافه ؟ وهل هو يستحق أن تنفق فيه ثلاثة أيام ؟

ـ الأمر لا يصبح تافهـا يا يلينا نيكولايفنـا عندما يتعلق بأبناء وطنى • ولو أننى رفضت لكنت مخطئا • انى أراك لا تضنين بالمساعدة حتى على الكلاب وأنا أقدر فيك هذا • ولا ضير على من اضاعه بعض الوقت ، فانى أستطيع أن أعوضه • ان وقتنا ليس ملكا لنا •

ـ ملك من اذن ؟

ـ ملك لمن هم فى حاجة اليه • انى أقول لك هـذا لاننى أقدر رأيك • اننى أستطيع أن أتصور مدى الدهشة التى سببها لك اندريا بتروفتش •

فقالت له يلينا بصوت منخفض :

ـ هل تقدر رأيى ؟ ولكن لماذا ؟

فابتسم أنزاروف مرة أخرى وقال: لأنكفتاة لطيفة ولست ارستقراطية هـذا هو السبب واعقبت ذلك فترة سكون قصيرة ·

ـ ثم قالت يلينا : هل تعلم يادمترى نيكا نوروفتش ان هذه أول مرة تحدثنى فيها بهذه الصراحة ؟

ـ حقا ؟ لقد كنت أظن أنى كنت أكاشفك دائما بما يجول بخاطرى ·

ـ كلا · هذه أول مرة وأنا بها فى غاية السرور ·· أنا بدورى أريد أن أكون صريحـة معك · فهل تسـمح لى بذلك ؟

فضحك انزاروف وقال : لك هذا ··

ـ اذن فلتحذر فانى كثيرة الاسئلة ·

ـ لا بأس · تحدثى ·

ـ لقـد حدثنى اندريا بتروفتش كثيرا عن حيـاتك وشبابك حديثا سريعا · انى أعرف حدثا معينـا · وأعلم أنك عدت بعده الى وطنك ·

ـ اسـتحلفك بالله ألا ترد على سـؤالى اذا رأيت أنه محرج · ولكن هناك مايحز فى نفسى · قل لى : هل التقيت بذلك الرجل ؟ قالت ذلك مبهورة الأنفاس ··

كانت تشعر بالخجـل والفزع من جرأتهـا · وكان انزاروف يحملق فيها وقد ضاقت عيناه وهو يعبث بذقنه·

وأجابها أخيرا وكان صوته أكثر خفوتا · الأمر الذى أخاف يلينا ـ قال : أعرف الرجل الذى تعنين · لم أقابله واحمد الله على ذلك ·· والواقع أنى لم أكن أبحث عنه · ولا يعنى هذا أننى كنت أعتقد أنه ليس من حقى أن أقتله
ـ كلا ·· ما كنت لأحجم عن قتله ، وأنا مستريح الضمير
ـ ولكن يجب ألا يكون هناك مجال للانتقام الشخصى عندما تكون المسألة متعلقة بانتقام شعب ·

ـ كلا ، ليس هـذا هـو التعبير الدقيق ، ينبغى أن أقول : عندما تكون المسـألة متعلقة بتحرير شـعب ، فان أحدهما يحول دون الآخر · ولـكن سـيأتى اليوم لهـذا أيضا · لهذا أيضا ··

كررها ثم هز رأسه ، فنظرتاليه يلينا نظرة جانبية ·· ثم سألته فى تحفظ :

ـ هل تحب وطنك كثيرا ؟

فأجابها قائلا : سترين الدليل على ذلك ·· لا يمكن أن يقال ان الانسان يحب وطنه الا اذا مات فى سبيله ·

فقالت يلينـا : معنى ذلك انك اذا منعت من العودة الى بلغاريا ستجد الحياة صعبة فى روسيا فأحنى انزاروف رأسه ثم قال : لا أعتقد أننى أستطيع أن أتحمل هذا ··
فسألته يلينا : هل من الصعب تعلم اللغة البلغارية ؟

ـ كلا · ومن العـار ألا يتعـلم كل روسى اللغـة البلغـارية · يجـب على كل روسى أن يعرف اللهجـات السـلافية · هـل تريدين أن أحضر لك بعض الـكتب

البلغارية ؟ سترين بنفسك كم هى سهلة هذه اللغة ٠ كذلك فان أغانينا جميلة وهى لا تقل جمالا عن أغانى الصرب ٠ اسمحى لى أن أترجم لك احدى هذه الأغنيات ٠ انها عن ـ هل تعرفين تاريخنا ؟

ـ كلا ٠ لا أعرف شيئا عنه ٠

ـ سأحضر لك كتابا عن تاريخنا يعطيك على الأقل فكرة عن وقائعه الهامة٠ والآن استمعى للأغنية٠ ولو أننى أفضل أن أقدم لك ترجمة مكتوبة ٠

ـ اننى واثق من أنك سوف تحبيننا لأنك تحبين كل مظلوم ٠ بلادى مليئة بالخيرات ورغم ذلك فانها تداس بالأقدام ويسام شعبها العذاب ، ثم قال وهو يحرك يديه حركة لا ارادية وقد علت وجهه سحابة من الحزن : نحن محرومون من كل شيء وقد نهب منا كل شيء ـ كنائسنا وحقوقنا وأرضنا ٠ الاتراك الملاعين يعاملوننا كالسوائم ٠ انهم يذبحوننا ٠

قالت يلينا متعجبة : ماذا بل يا دمترى نيكانوروفتش

فتوقف عن الكلام وقال : أرجو المغفرة فاننى لا أستطيع الحديث عنها بهدوء ٠ ولكنك كنت تسألينني منذ لحظة ٠ ما اذا كنت أحب بلادى ٠ اذا لم يحب الانسان بلاده فهل هناك شيء آخر يستحق أن يحب ٠ ما هو الشيء الوحيد الذى لايقبل التغير؟ ما هو الشيءالذى يرتفع فوق كل الشكوك ؟ ما هو الشيء الوحيد الذى يؤمن به الانسان بعد ايمانه بربه ؟ عندما تشعرين أن بلادك فى حاجة اليك لا تنسى أن أبسط فلاح وأفقر فقير فى بلغاريا وأنا نريد جميعا نفس الشيء ٠ ليس لنا سوى ٠٠ هدف واحد ٠ ولك أن تتصورى مدى الثقة والقوة التى نستمدها من ذلك ٠

وصمت انزاروف فترة قصيرة ثم عاد للحديث عن بلغاريا ٠ وكانت يلينا تنصت له بانتباه وحزن وقد تملكتها الدهشة ٠ وبعد أن انتهى من حديثه قالت له مرة أخرى :

ـ ليس هناك اذن ما يدفعك الى البقاء فى روسيا ٠

ظلت يلينا بعد أن تركها انزاروف تتبعه بعينيها طويلا ٠ لقد أصبح شخصا مختلفا بالنسبة لها فى ذلك اليوم ٠ ان الرجل الذى كانت تتحدث اليه منذ لحظة لم يكن هو نفس الرجل الذى قابلته منذ ساعتين ٠

وراح يتردد عليها كثيرا منذ ذلك اليوم بينما لم يكن برزنيف يزورها الا لماما ٠ لقد تسلل شيء غريب بين الصديقين شيء كانا يخشيان التحدث عنه ٠ كل منهم يحسه بوضوح وجلاء دون أن يستطيع تعريفه ٠

ومر شهر على هذه الحال ٠٠

(١٥)

كانت أنا فاسيليفنا كما يعرف القارىء تحب البقاء في البيت الا انه كانت تتملكها من آن لآخر رغبة جامحة فى القيام بشىء غير عادى كتنظيم حفل تخرج بهجته عن المألوف ، وكانت كلما زادت صعوبة تنظيم الحفل وكلما زادت الاستعدادات والترتيبات اللازمة له وكلما زاد انهماكها فى ذلك تزداد سرورا · واذا تملكتها هذه الرغبة فى فصل الشتاء ، فقد كانت تحجز مقصورتين أو ثلاثا وتذهب الى المسرح أو الى احدى الحفلات التنكرية مع كل صديقاتها ومعارفها · أما فى الصيف فقد كانت تقوم بتنظيم رحلة الى منطقة ريفية بعيدة ثم تشكو ، فى اليوم التالى ، من الصداع والألم وتبقى فى البيت · وما يمضى شهران الا وتعاودها الرغبة فى القيام بشىء « غير عادى » وهذا ما حدث هذه المرة أيضا · فقد تحدث بعضهم فى حضورها عن جمال تسارتسينو ، فأعلنت فى الحال أنها ستذهب الى تسارتسينو بعد يومين · وبدأ البيت يموج بنشاط غير عادى · أرسل رسول على وجه السرعة الى موسكو لاستدعاء ستاكوف وصحبه خادم لشراء النبيذ والفطائر وغير ذلك من المأكولات · وطلب الى شوبين أن يستأجر عربة خاصة لان العربة العامة لا تكفى ، وأن يجهز عددا أكبر من الخيل · وكان على الخادم أن يذهب مرتين الى كل من برزنيف وانزاروف يحمل دعوات مكتوبة مرة

بالّلغة الروسية ومرة أخرى بالفرنسية بخط زويا· وكانت آنا فاسيليفنا تختار بنفسها ملابس السفر للفتيات المشتركات فى الرحلة · وعندما انتهى الاستعداد للرحيل اذا ستاخوف يصل من موسكو وهو منحرف المزاج ـ كان لا يزال على خلاف مع أوجاستينا كريستيانوفنا ـ ولما علم بالموضوع اعلن بلهجه قاطعة انه لن يشترك فى الرحلة · كما أعلن انه من العبث الذهاب من كونتسوفو الى موسكو ومن موسكو الى تسارتسينو ثم من تسارتسينو الى موسكو ومن موسكو الى كونتسوفو فى طريق العودة · ثم اردف: وأخيرا أريد أن يثبت لى أى امرىء أن هناك مكانا على سطح الارض فيه متعة أكثر من أى مكان آخر · وعندئذ آفكر فى الذهاب ·

لم يكن من اليسير اثبات ذلك ·· وكانت أنا فاسيليفنا على وشك التخلى عن القيام بالرحلة لافتقارها الى رفيق مناسب ولكنها فكرت فى يوفار ايفانوفتش فأرسلت تستدعيه وراحت تحدث نفسها: ان الغريق يتمسك بقشة· وأوتظ يوفار من النوم · ونزل لمقابلتها واستمع لاقتراحها فى صمت وأخذ يثنى أصابعه وأدهش الجميع بموافقته : فقبلته انا فاسيليفنا على وجنته وشكرته · فابتسم ستاكوف بازدراء وقال بالفرنسية : يالك من تافه ! كان مولعا باستعمال بعض الجمل الفرنسية الغريبة اذا سمحت له الظروف بذلك ·

وفى السابعة من صباح اليوم التالى جهزت العربتان

الكبيرة والصغيرة وخرجنا من الفناء • واستقلت السيدات والخدمة وبرزنيف العربة الكبيرة بينما ركب انزاروف الى جوار السائق • أما العربة الصغيرة فقد استقلها يوفار ايفانوفتش وشوبين • وأشار يوفار ايفانوفتش الى شوبين لكي يجلس الى جواره وكان يعلم أن شوبين سيضايقه طوال الطريق الى تسارتسينو ولكن رابطة غريبة كانت تربط هذا الرجل بالفنان الى جانب الصراحة الزائدة عن الحد • ومع هذا ، فقد ترك شوبين صديقه وشأنه ، ولاذ بالصمت • كان شارد الذهن رقيقا •

كانت الشمس فى كبد السماء الزرقاء عندما وقفت العربتان أمام قلعة تسارتسينو التى بدت كئيبة منفرة وقت الظهيرة • ونزلت الجماعة على النيل وساروا جميعا الى الحديقة • كانت يلينا وزويا وانزاروف يسيرون فى المقدمة تتبعهم أنا فاسيليفنا وقد اتكأت على ذراع يوفار ايفانوفتش واكتسى وجهها بسعادة لا حد لها • أما يوفار ايفانوفتش فكان يلهث وهو يسير الهوينا وقد ضغطت القبعة القش على جبهته وأحس بحرارة قدميه وهو يرتدى الحذاء الطويل الرقبة ، ولكنه كان هو الآخر يستمتع بالنزهة •

وكان شوبين وبرزنيف يسيران فى المؤخرة ••

ـ وقال شوبين لبرزنيف هامسا: نحن من الاحتياطى ياصديقى كالمحاربين القدماء •

ـ ثم أضاف وهو يشير الى يلينا بحركة من حاجبه : انها الآن فى بلغاريا ••

كان يوما جميلا وكان كل شىء متفتحا مغردا • كانت المياه تلمع فى البحيرات على بعد • وكان كل شىء يثير النشوة • وأخذت انا فاسيليفنا تكرر من وقت لآخر قولها: آه •• ياله من منظر جميل ! •• آه •• ما أجمله من منظر ! وكان يوفار ايفانوفتش يتبين صيحاتها الجذلة ويؤمن عليها بهزة من رأسه • وكانت يلينا تتبادل مع انزاروف بعض التعليقات من آن لآخر • أما زويا فكانت تمسك حافة قبعتها العريضة بين أصبعها وهى تسير وقد مال جسدها الى الامام فيما يشبه الخجل • كانت تلبس رداء أرجوانيا وحذاء رماديا بدون كعب وجعلت تتلفت على جانبيها وخلفها • وفجأة قال شوبين بصوت منخفض : أوه ! أظن ان زويا تنظر خلفها • لعل من الافضل أن أذهب اليها • ان يلينا نيكولايفنا تحتقرنى الآن وتحترمك يا اندريا بتروفتش ولو ان النتيجة واحدة فى الحالتين • اننى ذاهب فقد تلكأت أكثر من اللازم • أما أنت أيها الرجل العجوز فانى أنصحك أن تعنى بدراسة النباتات التى حولك فهذا أحسن شىء تفعله ثم ان هذا مفيد لك من الناحية العلمية •• الى اللقاء •

ثم جرى الى زويا وقدم لها ذراعه وهو يقول : ضعى يدك هنا ياسيدتى • ثم أسرعا فى السير •

أما يلينا فقد توقفت ونادت برزنيف وأمسكت

بذراعه وهى لا تزال مستمرة فى الحديث مع انزاروف · وسالته عن الاسماء البلغارية للزنبق والوادى والبلوط وشجرة الليمون · (فقال برزنيف التعس فى نفسه : بلغاريا !) ··

وبغتة ، سمعوا صيحة · ونظر الجميع أمامهم فرأوا علبة سيجار شوبين وقد قذفتها زويا · تطير فى الهواء وتسقط وسط شجيرة صغيرة فصاح بها : سأسير معك حتى رغم هذا ·

ثم سار الى الشجيرة واستعاد علبة السيجار وعاد الى زويا · ولكنه ما ان اقترب منها حتى طارت علبه السيجار مرة أخرى عبر الطريق · وتكررت هذه العملية أربع أو خمس مرات وهو يضحك ويتوعد بينما كانت هى تبتسم ابتسامة ماكرة وتقهقه احيانا · واخيرا امسك باصابعها وضغطها بشدة حتى صرخت ثم أخذت تنفخ على أصابعها فترة وهى تتظاهر بالغضب بينما كان هو يهمس ببعض الكلمات فى أذنها · فعلقت انا فاسيليفنا على ذلك بقولها بمرح ليوفار ايفانوفتش : طيش شباب ·

فأخذ يثنى إصابعه ··

ـ وقال برزنيف محدثا يلينا : ما رأيك فى زويا نيكيتشنا ؟

ـ فقالت له : وما رأيك فى شوبين ؟

كانت الجماعة قد وصلت الى شجرة تعرف باسم

شجرة المنظر الجميل فوقفوا جميعا لكى يستمتعوا بجمال البحيرات الصغيرة فى تسارتسينو وهى تمتد عدة كيلومترات ، وتقع خلفها غابة كثيفه ·

وكانت الحشائش الصغيرة التى تغطى المنحدرات حتى البحيرة الرئيسيه تضفى على المياه لونا أخضر جميلا· ولم تكن المياه تتحرك أو تتموج حتى بالقرب من الشاطىء· وبدت كبركة كبيرة ملئت بزجاج سائل تجمد فاصبح كتلة كبيرة شفافة تعكس فتحتها زرقة السماء وهيكل الاشجار الهائلة · ووقفوا بعض الوقت يستمتعون بجمال المنظر فى صمت · حتى شوبين كان صامتا وحتى زويا كانت مستغرقة فى التأمل وأخيرا قرروا جميعا أن يركبوا قاربا· وجرى شوبين وانزاروف وبرزنيف على المنحدرات التى تغطيها الحشائش وراء بعضهم البعض · ووجدوا قاربا كبيرا والى جانبه رجلان للتجديف، فنادوا السيدات فذهبن اليهم وفى أثرهن يوفار ايفانوفتش الذى كان يتحسس فى حذر موضع قدميه · وقد أثار ضحك الجميع وهو يخطو الى القارب ويتخذ فيه مكانه ·

ـ قال له أحد الرجلين وكان قصير الانف ويرتدى صديريا : احذر ياسيدى حتى لا تغرق القارب ·

ـ فأجابه يوفار ايفانوفتش قائلا : اخرس أيها المجرم·

وأخذ القارب يتحرك · وأمسك الشبان الثلاثة بالمجاديف ولكن انزاروف كان الوحيد بينهم الذى يستطيع

التجديف • واقترح شوبين عليهم أن يغنوا معا أغنية روسية • وبدأ هو باغنية (عبر نهر الفولجا) وقد انضم له برزنيف وزويا ، حتى انا فاسيليفنا انضمت اليهم (لم يستطع انزاروف أن يغنى) ولكن النتيجة لم تكن مشجعة فقد تعثر المغنون فى الفقرة الثالثة وظل برزنيف وحده يحاول الاستمرار فى الغناء بصوت خفيض ولكنه ما لبث أن توقف هو الآخر • وأخذ الرجلان الممسكان بالمجاديف يتغامزان ويبتسمان • فقال شوبين وهو يتجه اليهما : يبدو ان السيدات والسادة لا يعرفون الكثير عن الغناء • أليس كذلك ؟ فهز الرجل ذو الصديرى رأسه • فقال له شوبين : انتظر أنت ياذا الانف القصير وسوف ترى • أرجوك يازويا نيكتيشنا أن تغنى أغنية البحيرة لفيدرماير •

وأوقفوا التجديف • وارتفعت المجاديف المبللة كالاجنحة الحائمة وقطرات الماء تتساقط منها فى البحيرة • وأخذ القارب ينساب فى الماء مسافة أخرى ثم وقف وهو يهتز قليلا كالاوزة • وحاولت زويا أن تتمنع • ولكن انا فاسيليفنا شجعتها ، فخلعت زويا قبعتها وأخذت تغنى ••

لم يكن صوتها قويا ولكنه كان واضحا • وأخذ هذا الصوت ينساب فوق صفحة البحيرة اللامعة فيسمع صدى كلماته فى الغابة البعيدة • كان يبدو كأن شخصا آخر يغنى بصوت واضح غامض ولكنه ليس كأصوات البشر ولا ينتمى الى عالمنا هذا • وما أن انتهت زويا من الغناء حتى

ارتفعت أصوات تهتف لها وتصفق • وقد انبعثت هذه الاصوات من خلف شجرة كبيرة على الشاطىء • واندفع نحوهم عدد من الشبان الالمان حمر الوجوه كانوا قد أتوا الى تسارتسينو لاحتساء الخمر • وكان بعضهم قد خلع المعاطف وأربطة العنق والصديريات وصاحوا : أعد•• أعد وهم فى حالة من الهياج الشديد دفعت انا فاسيليفنا الى الاصرار على التحرك بسرعة الى طرف البحيرة البعيد• ولكن قبل أن يرسو القارب على الشاطىء خرج عليهم يوفار ايفانوفتش بمفاجأة جديدة فقد لاحظ ان الصوت يرجع فى بعض أجزاء الغابة بصدى واضح فبدأ يصيح ، فجأة ، مقلدا بعض الطيور • وانزعج الجميع فى أول الامر ولكنهم لم يلبثوا ان اعجبوا به اعجابا حقيقيا ، فقد كان يوفار بارع التقليد وشجعه نجاحه على أن يموء كالقط ولكنه لم يكن يجيد ذلك فعاد للصياح مرة أخرى• ثم لاذ بالصمت بعد أن استعرض وجوه الجماعة كلها • فقام اليه شوبين وأخذه بين ذراعيه وقبله ، ولكنه دفعه عنه وكان القارب قد بلغ الشاطىء ونزلت منه الجماعة وأحضر السائق والخادم والخادمة سلال الطعام من العربة وأخذوا يقدمون الطعام على الحشائش فى ظل بعض أشجار الليمون وقد التفوا حول مفرش فرشوه على الارض وبدءوا فى تناول الفطائر وغيرها من انواع الطعام • كان الجميع يتناولون طعامهم فى تلذذ وشهية وكانت أنا فاسيليفنا تزود ضيوفها بكميات وفيرة من الاطعمة بين آونة وأخرى وهى

تؤكد لهم أن تناول الطعام فى الهواء الطلق مفيد للصحة ٠ وكانت توجه حديثها الى يوفار ايفانوفتش كذلك وكان يقول لها وقد امتلأ فمه بالطعام : لا تقلقى ٠٠

وكانت هى تردد من آن لآخر قولها : ياله من يوم جميل ! لقد حدث لها تغير ملحوظ وكأنها قد رجعت الى الوراء عشرين عاما ٠ وقد لفت برزنيف نظرها الى ذلك فردت تقول : نعم ٠ لقد كنت مجتهدة أيام الدراسة وكنت دائما من العشر الأوائل ٠

وأخذ شوبين الذى جلس الى جوار زويا يملأ كأسها بالنبيذ المرة تلو المرة ، وكانت ترفض ولكنه كان يلح عليها وكان الموقف ينتهى بأن يشرب هو كأسها ثم يعيد الكرة مرة أخرى ٠ وكان يؤكد لها أنه يريد أن يضع رأسه فى حجرها ولكنها لم تكن تسمح له بمثل « هذه الحرية الزائدة » وكانت يلينا تبدو جادة أكثر منهم جميعا ولكن قلبها كان مفعما بهدوء لم تجرب مثله منذ وقت طويل ٠ كانت تشعر بطيبة لا حد لها وأرادت ألا ينفرد انزاروف بصحبتها بل أن يكون برزنيف أيضا الى جوارها ٠

ولم يكن اندريا بتروفتش يدرك مغزى ذلك بوضوح وكانت تصدر منه من آن لآخر تنهدات خفية ٠

مرت الساعات سراعا ، واقترب المساء ٠ وفجأة أحست أنا فاسيليفنا بالانزعاج وهتفت : يا الهى لقد تأخرنا كثيرا ٠ لقد تناولتم الطعام والشراب أيها السادة وحان وقت الرحيل ٠

وأخذت تصخب وكذلك فعل الآخرون ٠ قاموا وساروا نحو القلعة التى تركوا الى جوارها العربات وتوقفوا عند مرورهم بالبحيرات ليستمتعوا بالنظر الى تسارتسينو للمرة الاخيرة ٠ كان الريف يلتف فى غلالة حمراء كساه بها شفق الغروب ٠ وكانت السماء قرمزية اللون ، وكانت أوراق الشو تلمع وهى تهتز بفصل الهواء وهى تعكس خليطا من الالوان الزاهية كما كانت المياه تلتمع على البعد كأنها ذهب سائل ٠ وكانت القباب الصغيرة الحمراء المنتشرة فى الحديقة تظهر بوضوح أمام خضرة الاشجار الفاتحة ٠ وتمتمت أنا فاسيليفنا بصوت خافت قائلة : وداعا ياتسارتسينو ٠ سوف لا ننسى نزهة اليوم ٠ وفى نفس اللحظة حدث شىء لم يكن من الممكن أن ينسى سريعا٠ فما أن ألقت أنا فاسيليفنا على تسارتسينو تحية الوداع حتى تعالت على مسافة قريبة ضحكات وصياح وضجيج من خلف احدى الاشجار ، واندفع نفر من الرجال فى هيئة رثه ــ نفس الجماعة التى صفقت وهتفت لزويا ــ الى الطريق ٠ ٠ كان واضحا أنهم قد أفرطوا فى الشراب ٠ ووقفت جماعتهم أمام السيدات ٠ وتقدم أحدهم وهو شاب ضخم الجثة له رقبة كرقبة الثور وعينان حمراوان وهو يتمايل وينحنى بغير اتزان ، واقترب من أنا فاسيليفنا التى تسمرت فى مكانها من الخوف ثم قال لها بصوت أجش : طاب صباحك ياسيدتى ٠٠ كيف حالك ؟

فتراجعت أنا فاسيليفنا الى الوراء فى فزع ٠ وأردفه

الرجل بلغة روسية ركيكة : لماذا لم تعيدوا الغناء عندما صاحت جماعتنا « أعد » ؟

فصاح باقي افراد الجماعة : نعم ·· لماذا ؟ وخطا انزاروف الى الأمام ولكن شوبين أوقفه وتوسط هو بين أنا فاسيليفنا والألماني ثم قال : اسمح لي أيها السيد المحترم أن أعبر لك عن استنكارنا الشديد لسلوكك · انني أستطيع أن أستنتج انك تنتمي الى الفرع السكسوني من الجنس القوقازي وهذا يجعلنا نفترض انك على علم بقواعد اللياقة ، ورغم ذلك فها أنت توجه الخطاب الى سيدة دون أن يقدمك أحد لها · وصدقني انني كنت أرحب بالتعرف عليك في أي وقت آخر فانني أرى أن عضلاتك قوية وبصفتي مثالا فانني كنت أرحب بك كنموذج لتمثال أما الآن فأرجوك أن تتركنا وشأننا ·

واستمع « السيد المحترم » لكلام شوبين وهو ينظر اليه باحتقار وقد وضع يديه في وسطه ثم قال له : لم أفهم شيئا مما قلته ·· ربما كنت تعتقد انني اسكافي أو ساعاتي · ها ·· انني موظف ·· نعم ·· موظف ·

فقال له شوبين : أنا لم أشك في ذلك ·

فنحاه الرجل بذراعه القوى كمن يزيل غصنا من طريقه ثم قال : ولكنني أقول لماذا لم تعيدوا الغناء عندما صحنا « أعد » وعلى كل فاني ذاهب ، ولكنني أريد من هذه الفتاة ــ لا هذه المرأة ــ كلا ··· هذه الفتاة أو هذه الفتاة ــ مشيرا الى يلينا وزويا ــ أن تمنحني قبلة صغيرة ·· كما يقول بالألمانية ·· نعم قبلة صغيرة ·· ولا ضرر في هذا ·

فعقب أصدقاؤه قائلين :

ــ أجل ، قبلة صغيرة لا ضرر منها ··

أمسكت زويا بذراع انزاروف ولكنه انتزع ذراعه منها وتصدى للرجل مخاطبا اياه بصوت منخفض حاد النبرات : ابتعد من فضلك ··

فقهقه الألماني ثم قال :

ــ ماذا تعني ابتعد ؟ انني أحب أن أقف هنا · ألا أستطيع أن أسير قليلا أنا أيضا ؟ ماذا تعني بهذه الكلمة ·· ابتعد ؟ ولماذا أبتعد ؟

أجاب انزاروف وقد امتقع وجهه : لانك تجرأت على مضايقة السيدة ولأنك ثمل ·

ــ كيف هذا ؟ أنا ثمل ؟ هل سمعت يا هرسايداس ؟ هل سمعت يا هربروفيزور ؟ أنا موظف ورغم ذلك فانه يتجرأ ــ والآن لابد لي من ترضية ·· أريد قبلة صغيرة ·

فأنذره انزاروف قائلا : اذا خطوت خطوة أخرى ···

ــ حسن ماذا سيحدث ؟

ــ سأقذف بك في الماء ·

ــ في الماء ؟ هل هذا كل ماهنالك ؟ حسن ، سنرى · انه لشيء مثير أن تلقيني في الماء ·

ورفع « الموظف » يديه وتقدم الى الأمام ولكن حدث نجاة شيء فريد . فقد صدرت عنه أنة ثم ارتفع جسمه الضخم عن الأرض وأخذت قدماه تضربان الهواء وقبل أن تصرخ السيدات وقبل أن يتبين أى شخص حقيقة ماحدث سقط « الموظف » فى البحيرة واختفى فى الحال تحت سطح الماء .

فصاحت السيدات جميعا فى صوت واحد : أوه ! وقال واحد من الألمان بلغة قومه : يا الهى .. ومرت دقيقة ثم ظهر على سطح الماء رأس مستدير يغطيه الشعر المبلل وتخرج منه فقاعات من الهواء ، وظهرت يدان تضربان الماء فى ذعر وعصبية فصاحت انا فاسيليفنا بانزاروف الذى وقف يلهث على الشاطىء وقدماه متباعدتان : سيغرق .. ادركه .

فقال لها بنبرة يختلط فيها الاحتقار والقسوة :

ـ بل سيخرج سليما .. هيا بنا ..

ثم أخذ ذراع أنا فاسيليفنا وقال :

ـ هلم بنا يا بوفار ايفانوفتش هلمى بنا يا يلينا نيكولايفنا .

وفجأة صاح الألمانى التعس الذى تمكن من الامساك ببعض النباتات النامية على الشاطىء : أوه .. آه ... أما الآخرون فقد ساروا خلف انزاروف وتعدءه هو وصاحبه وجبن المهرجون بعد أن فقدوا زعيمهم ولم ينطقوا بكلمة الا واحدا منهم كان أشجعهم ، فقد تمتم وهو يهز رأسه :

ـ الآن .. هذا .. الله وحده هو الذى يعلم ماهذا .

وخلع آخر قبعته . كان انزاروف يبدو لهم مخيفا وكانوا على حق فقد كانت تعلو وجهه نظرة تنذر بالشر . واندفع الألمان الى زميلهم وانتشلوه من الماء وما ان وجد نفسه على أرض صلبة حتى بدأ يسب ويلعن والدموع تنساب من عينيه « أولئك المجرمين الروس » ويصيح قائلا انه سوف يشكوهم وأنه سيقدم شكواه لصاحب السعادة الكونت فون كيزاريتز شخصيا . ولكن «المجرمين الروس» أسرعوا الى القلعة غير مبالين بضجيجه . كانوا جميعا يسيرون فى صمت عبر الحديقة ماعدا أنا فاسيليفنا التى كانت تئن بصوت منخفض . ولكنهم عندما وصلوا الى العربات وقفوا ثم انفجروا فى الضحك . وكان شوبين أول من انفجر يضحك كالمجنون ثم تبعه برزنيف الذى كان يقهقه فى سرور ثم تبعتهم زويا التى جعلت تضحك ضحكات خافتة ثم أغرقت أنا فاسيليفنا فى الضحك فجأة ، وحتى يلينا لم تتمالك نفسها من الابتسام . وأخيرا استسلم انزاروف نفسه للضحك . أما يوفار ايفانوفتش فكان أكثرهم ضحكا . وكان يتوقف عن الضحك برهة ويقول والدموع تنساب من عينيه : لقد دهشت من صوت الوقوع فى الماء ـ ثم رأيت ـ ذلك الشىء ـ كان هو ـ يهوى الى القاع . وما يكاد ينطق آخر كلمة حتى تعاوده نوبة الضحك وتهز كيانه كله . وكانت زويا تدفعه الى المزيد من الضحك بقولها :

ـ لقد رأيت قدمين يضربان الهـواء ٠٠٠ فيضيف يوفار ايفانوفتش قائلا : تماما ٠٠ قدمان ٠٠ وفجأة هبط الى القاع ٠ ثم تساءلت زويا :

ـ ولكن كيف استطاع انزاروف أن يفعل ذلك ؟ لقد كان ذلك الألمانى يبلغ ثلاثة أضعاف حجمه ٠ فأجابها يوفار ايفانوفتش وهو يمسح عينيه :

ـ أستطيع أنا أن أصف لك كيف فعـل ذلك فقد رأيت كل شيء ـ لقد لف أحد ذراعيه حول وسط الرجل ثم حمله وقذف به فى الماء ٠ وقد تعجبت للصوت الذى سمعته فاذا به صوت وقوعه فى الماء ٠

ظـل يوفار ايفانوفتش فترة طويلة بعـد أن بدأت العربات سيرها واختفت قلعة تسارتسينو وهو لا يخفى جذله ٠ وأخيرا أسكته شوبين الذى كان يجلس الى جواره فى العربة ٠ أما انزاروف ، فقد كان يشعر بالخجل ، فكان يجلس صامتا فى العربة فى مواجهة يلينا ، بينما كان برزنيف يجلس الى جـوار السائق ٠ وكانت يلينـا هى الأخرى صامتة ٠ وتوهم انزاروف ان يلينا خائفة عليه ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فقد فزعت أول الأمر ولكنها بوغتت بعد ذلك بالتعبير الذى ارتسم على وجهه فجعلت تفكر ٠ ولم تكن هى نفسها تعرف فيم تفكر ٠ وزايلها الشعور الذى لازمها أثناء النهار ، ولكن شيئا آخـر حل مكانه لم تستطع هى أن تميزه لقد استمرت النزهة أطول من اللازم ومضى المساء وأقبل الليل ، والعربة تعدو مسرعة

بحذاء حقول القمح الناضج وقد عبق الجو برائحته ، وعبر بالمروج الخضراء المترامية التى كانت ترســـل موجات من الهواء المنعش على الوجوه ٠ كانت السماء تبدو داكنة فى الأفق ، ثم بزغ القمـــر بلونه الأحمـر البـاهت وكانت أنا فاسيليفنا تغفو من آن لآخر فى حين كانت زويا تنظر الى الطريق متكئة على النافذة ٠ وتنبهت يلينا فى النهاية الى أن ساعة قد مضت دون أن تتحدث الى انزاروف ، فسألته سؤالا تافها رد عليه فى الحال بسرور ٠ ثم طرقت أسماعهم أصوات غامضة كأنهـــا همهمة آلاف من الناس يتحدثون بعيدا ٠ كانت هذه موسكو وهم يقتربون منها ٠ وكانت الأضواء تتلألأ على البعد ، وتزداد عددا وأخيرا مست عجلات العربة الطريق الحجرى فاستيقظت أنا فاسيليفنا وبدأ كل من فى العربة يتحدث ، ولكن أحدا لم يكن يتبين مايقال بسبب صوت عجلات العربتين وحوافر الخيل على الطريق الحجرى ٠ كانت الرحلة من موسكو الى كونتسومو تبدو لا نهائية ٠ وكان المسافرون مابين غاف وجالس فى صمت ٠ يلينا كانت هى الوحيدة التى لم يغمض لها جفن ٠ كانت ترتكز نظراتها على انزاروف ٠٠ أما شوبين فقد غلبه الحزن وكانت النسائم الخفيفة التى تهب على وجهه تزعجه فأخفى وجهه فى ياقة معطفه وهو أقرب ما يكون الى البكاء ٠ وأما يوفار ايفانوفتش فقد استغرق فى النوم ٠ وعلا شخيره وأخـذ يتأرجح فى مقعده ٠ وأخيرا توقفت العربتان وقام اثنان من الخـدم بمساعدة أنا فاسيليفنا على الترجل من

العربة وكانت منهكة تماما وقالت وهى تودع صحبها انها توشـك أن تموت من التعب • وأخـذوا يعربون لها عن شكرهم ولكنها كانت تردد أنها على وشك الموت • ومدت يلينا يدها الى انزاروف تحييـــه ـ وكانت هذه اول مرة تفعل فيها ذلك ـ وظلت فى مجلسها بكامل ملابسها أمام نافذة غرفتها فترة طويلة • وانتهز شوبين فرصة وهمس فى اذن برزنيف وهو يخرج : الا تظنه بطلا ؟ لقد ألقى الألمانى الثمل فى المـاء •

فرد عليه برزنيف قائلا : انك لم تفعل شيئا كهذا • ثم رافق انزاروف الى البيت •

ووصل الصديقان الى دارهما قرب الفجر ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد ، ولكن النسيم كان يهب باردا ، وقطرات الندى تغطى الحشيش • وشقشقة عصافير وبقى نجم واحد يتلألأ فى السماء •

(١٦)

بعـد أن تعـرفت يلينا على انزاروف بدأت تكتب مذكراتها ـ وذلك للمرة الخامسة او السادسة • وها هى بعض مقتطفات منها •

يونيـه ، يحضر لى انـدريا بتروفتش بعض الكتب ولكننى لا أستطيع أن أقرأها ولا أستطيع فى الوقت ذاته

أن أحمل نفسى على الاعتراف له بذلك ، ولا أجرؤ على رد الكتب اليه واخباره أننى لم أقرأها فاننى أعتقد أن ذلك سيصيبه بخيبة أمل • انه يلاحظ كل شىء أعمله • وهو يبدو شديد التعلق بى • ان اندريه بتروفتش رجل لطيف للغاية •

•• ولكن ما الذى أريده ؟ ولمـاذا أشـعر أن قلبى حزين ؟ لمـاذا أنظر بحسد للطيور العابرة ؟ اننى أشعر اننى أطير معها ولكننى لا أعرف الى أين ، لابد أن يكون هذا الى مكان بعيد • ألست مخطئة فى هذه الرغبة ؟ والدى ووالدتى وأسرتى هنا • الا أحبهم ؟ كلا ، اننى لا أحبهم كما يجب • ان مثل هذا القول شىء فظيع ولكنها الحقيقة • وقد أكون مذنبة وقد يكون هـذا هو السبب فى حزنى وقلقى • اننى أشعر كأن يدا ثقيلة تضغط على كأننى فى سجن توشك جدرانه أن تتهدم فوقى • ولكن لماذا لايشعر الآخرون بهذا الشعور ؟ وكيف يمكننى أن أحب اى انسان اذا كنت لا أهتم بأقاربى • يبدو أن والدى على حق حين يشكو منى ويقول اننى لا أحب الا القطط والكلاب • لابد لى أن أفكر أكثر فى هذا • اننى لا أصلى كما يجب • لابد لى أن أصلى أكثر ولكننى أعتقد رغم هذا ، اننى أستطيع أن أحب ••

اننى لا أزال أشعر بالخجل فى حضور السيد انزاروف ولكننى لا أعرف لمـاذا •• أنا لست صغيرة السن فهـو متواضع وعطوف • انه يبدو أحيانا فى غاية الجد • ربما

لديه أشياء أخرى غيرنا يفكر فيها • اننى اذ أحس بذلك لا أشعر أن من حقى أن أستحوذ على وقته • ولكن اندريا بتروفتش يختلف عنه فأنا أستطيع أن أتحدث اليه طول اليوم • ولكنه هو الآخر لا يكف عن الحديث عن انزاروف • لقد أعطانى عنه تفاصيل رهيبة • وقد رأيته فى الحلم فى الليلة الماضية • كان يمسك بخنجر فى يده ، وقال لى « سأقتلك وأقتل نفسى أيضا » ياله من تخريف !!

••• لو أننى وجدت من يقول لى « هذا ما يجب أن تفعليه » •• لا يكفى أن يكون للانسان قلب رحيم • ان فعل الخير هو الشىء المهم فى الحياة • ولكن كيف أستطيع أن أفعله ؟ ليتنى أستطيع أن أسيطر على نفسى ! اننى لا أفهم السر فى انشغالى بالسيد انزاروف • اننى أنظر اليه حين يأتى الى هنا ويجلس وهو ينصت باهتمام وانتباه دون أن يحاول أن يظهر قدراته ، وأشعر بالارتياح • ولكن هذا هو كل ما هنالك ••

وبعد أن ينصرف أظل أفكر فيما قاله وأغضب من نفسى بل وأشعر بالضيق •• لا أدرى سببا لذلك •

••• أعطيت اليوم قطعة من النقود لسائلة فسألتنى قائلة :

ـ لماذا يبدو عليك الحزن ؟ ولم يكن قد خطر ببالى أننى أبدو حزينة • أعتقد أن ذلك يرجع الى وحدتى فأنا وحيدة دائما بكل ما فى ذلك من خير وشر • ليس هناك

من أمد له يدى • اننى لا أرحب بمن يأتون الى ، أما من أريده فانه يمضى ويتركنى •

••• عجبا ! ما الذى ألم بى اليوم : اننى أشعر بدوار • اننى على استعداد لأن أجثو على ركبتى فى طلب العون بيد أننى لا أعرف من يستطيع أن يقدم لى يد المساعدة ولا كيف يقدمها ؟ اننى أشعر وكأننى أقتل وأننى أصيح من أعماقى وأبكى وأنا لا أملك زمام نفسى •• هدىء يا الهى هذه العاطفة فى نفسى • انك الوحيد الذى يملك ذلك فان كل من عداك لا حول له ولا قوة • فلا صداقاتى التافهة ولا أعمالى ولا أى شىء آخر مهما كان يمكن أن يأخذ بيدى • أنا على استعداد لأن أعمل خادمة • ان كان فى ذلك مايشعره بتحسن •• وما فائدة شبابى ولماذا أعيش وما قيمة روحى وكل شىء آخر ؟

••• ان انزاروف •• السيد انزاروف •• أنا فى الحقيقة لا أعرف كيف أتحدث عنه ـ يسيطر على أفكارى • كم أود أن أطلع على ما بقلبه • انه يبدو صريحا سهل الفهم ، ورغم ذلك فاننى لا أرى شيئا • انه أحيانا ينظر الى كمن يبحث عن شىء ـ أم تراه خيالى هو الذى يصور لى ذلك ؟ ان بول يضايقنى دائما وأنا غاضبة منه • فما الذى يريده ؟ انه يحبنى ولكن مابى حاجة الى حبه • انه أيضا يحب زويا • اننى أظلمه • لقد قال لى بالأمس اننى لا أعرف كيف أخفف من ظلمى • وهو على حق • ولا شك ان ذلك شىء سيىء •

آه ... انني على يقين أن الانسان محتاج لمصيبة كالفقر أو المرض حتى لا يصيبه الغرور .

... ولماذا حدثني اندريا بتروفتش عن هذين البلغاريين اليوم . يبدو انه قد تعمد ذلك وما أهمية السيد انزاروف بالنسبة لي ؟ انني حانقة على أندريا بتروفتش .

... امسك قلمي ولا أدري كيف أبدأ . لقد كان حديثه الي في الحديقة اليوم مفاجأة . كم كان لطيفا ! ويا للسرعة التي تم بها كل شيء ! لقد كنا صديقين قديمين التقيا حديثا . ولا أدري كيف مر على كل هذا الوقت حتى أفهمه . كم هو قريب الى نفسي الآن ! الشيء الغريب انني الآن اهدأ نفسا . لا أدري كيف كنت غاضبة من أندريا بتروفتش ومنه بالأمس حتى ناديته قائلة « ياسيد انزاروف » .. أما اليوم ـ فقد عثرت في النهاية على رجل مخلص أستطيع الاعتماد عليه . إنه ليس كاذبا .. انه أول رجل صادق اقابله . الجميع ، عداه يكذبون . يا صديقي العزيز الطيب يا أندريا بتروفتش لماذا أظلمك ؟ ولكن لا ... قد يكون أندريا بتروفتش أكثر ثقافة أو أكثر ذكاء منه . ولكنه يبدو ضئيلا الى جانبه .. انه عندما يتحدث عن بلاده يبدو كبيرا ويصبح وجهه جذابا وصوته قويا ويبدو حينذاك أنه ليس هناك من يستطيع أن يجعله يغمض عينيه . انه لا يتكلم فحسب بل يعمل ويعمل ، عندى اسئلة كثيرة ساوجهها له .. لقد التفت الى فجأة وابتسم .. لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك على

هذا النحو سوى أخ شقيق .. كم أنا مسرورة الآن . عندما جاء لزيارتنا أول مرة لم أكن أتصور اننا سنغدو صديقين بهذه السرعة . ولكنني الآن مغتبطة اذ لم أبال في أول الأمر . لم أبال ؟ ألم أعد عديمة المبالاة ؟

... انني لم أشعر بهذا الهدوء الداخلي منذ مدة . انني الآن أشعر بهدوء داخلي . ليس هناك ما أسجله . انني أراه كثيرا . هذا كل ما هنالك . وهل هناك شيء آخر يستحق التسجيل ؟

... ان بول يتجنبني . وقد قلل أندريا بتروفتش من زياراته .. يا للرجل التعس ! انني أظن أنه .. ولكن هذا مستحيل . انني شغوفة بالحديث الى أندريا بتروفتش .. انه لا يتحدث أبدا عن نفسه بل يتحرى دائما أن يتحدث عن شيء معقول ومفيد . انه ليس كشوبين .. ان شوبين ذو رونق وبهاء كالفراشة ولكنه بخلاف الفراشات يزهو بنفسه . على كل ، فان كلا من شوبين وأندريا بتروفتش .. انني أعرف ما أعني ..

... انه يحب المجيء الى هنا .. أجل هذا جلي واضح . ولكن لماذا ؟ ما الذى وجده في ؟ .. ان أذواقنا في الحقيقة متشابهة : فكلانا لا يحب الشعر وكلانا لايعرف الكثير عن الفن .. ولكنه يفوقني كثيرا . هو هادىء بينما انا دائمة القلق ، كذلك فان امامه طريقا يتبعه وهدفا يسعى لتحقيقه . ولكن ما هو الوقت بالنسبة لي ؟ والى أين أنا ذاهبة وأين عشي ؟

انه هادىء ولكن أفكاره بعيدة الغور .. لسـوف يفارقنا يوما ما ليعود الى وطنه عبر البحر .. كان الله فى عونه ..

ولكن لم لم يكن هـذا الرجل روسيا ؟ كلا ... فما كان من الممكن له أن يكون روسيا .

ان والدتى تقدره أيضا . تقول انه رجل متواضع . فليباركها الله . انهـا لا تفهمه . لقـد كف بول عن مضايقتى ـ لابد انه أدرك اننى لا أقر تلميحاته ـ ولكنه رغم ذلك لايزال يغار منه .. يا له من شاب شرير !! أى حق له ؟ هل حدث ان ..... ؟

كل هذا هراء . لا أدرى لماذا ترد هذه الأفكار على عقلى ..

... انه لأمر غريب اننى وقد بلغت العشرين لم أصب بعد .. أعتقد أن « د » ولاسمه بهذا الحرف .. فأنا أحب اسم دمترى ـ أعتقد أنه جاد فقد كرس كل حياته وتوفر بكل ايمان على قضيته وعلى أحلامه .. فلماذا يقلق .. ان كل من يكرس نفسه عقلا وروحا لشىء ما لايقلق لشىء . انه لا يعبأ بذاته . فقد وهب نفسه لقضية بلده .. نحب نفس الزهور . لقد قطفت اليوم وردة وسقطت ورقة منها على الأرض فالتقطها فأعطيته الوردة .

... ان « د » يأتى كثيرا وقد أمضى مساء الأمس كله معى . انه يريد أن يعلمنى اللغة البلغارية .. اننى

أشعر وأنا معه كأننى مع واحد من ذوى بل وربما أحسن .

.. الأيام تمر بسرعة . اننى فى سـعادة بيد أننى أشعر بشىء من الخوف . وبرغبة فى حمد الله وشكره ، بى رغبة فى البكاء . ألا ما أجمل هذه الأيام ـ أيام الدفء والشمس المشرقة .

... لا أزال قريرة العـين ولكن الحـزن يداخلنى أحيانا ، اننى سعيدة . هل أنا سعيدة حقا ؟

... سأظل أذكر نزهة الأمس وقتا طويلا . لقد تركت فى نفسى انطباعات غريبة وجديدة ومريعة . اننى لم أشعر بالخوف عندما رفع ذلك المارد فجأة وألقى به فى الماء كالكرة . ولكنه هو أخافنى .. لقد كان وجهه ينطق بالجد بل والقسوة . ولا أنسى لهجته التى قال بها ان الرجل سيخرج من البحيرة .. لقد اقشعر بدنى . يبدو انى لم أكن أعرفه على الاطلاق . وعندما ضحك الجميع بعد ذلك . وعندما شاركتهم الضحك كنت أشعر بألم بالغ من أجله . كان هو يشعر بالخجل ـ أجل ، لقـد أحسست بذلك بالخجل منى .وقد كاشفنى بذلك فيما بعد ونحن فى العربة حينما كنت أحاول أن أسدد النظر فى الظلام فتولانى الخوف منه . انه ليس ممن يستهان بهم وهو يعرف كيف يواجـه شخصا آخـر ، ولكن ما سبب الغضب ورعشـة الشـفتين ونظرة العينين القـاسية ؟ ألا يمكن أن يـكون الانسان مقاتلا ويظل رغم ذلك وديعا ورقيقا ؟ لقد قال لى أخيرا ان الحياة قاسية . ورددت ذلك لأندريا بتروفتش

فلم يكن من رأى دمترى .. أيهما ياترى المصيب ؟ مع ذلك فكم كانت جميلة بداية ذلك اليوم . يا لسعادتى وأنا أسير الى جواره مع اننا لم نتحدث . أنا منشرحة الصدر بما حدث وأعتقد انه كان لابد أن يحدث بهذه الطريقة .

... القلق يعاودنى لا أشعر أننى على مايرام .

... لم أسجل شيئا فى هذه المفكرة لعدة أيام لانى لم أكن أشعر برغبة فى الكتابة . كنت أشعر أن أى شىء أكتبه سيكون مختلفا عما احس به فى قلبى . ولكن ما لقلبى ؟ لقد تبادلت معه حديثا طويلا فتح عينى على أشياء كثيرة . أخبرنى عن مشروعاته . وعلى فكرة لقد علمت الظروف التى أصابه فيها الجرح الذى فى رقبته . يا الهى .. ان الدهشة تستبد بى كلما تذكرت انه قد حكم عليه بالاعدام وأنه نجا من الموت بأعجوبة . انه رائع . هو على يقين أن الحرب ستشتعل وهذا يجلب له البهجة والسرور . ورغم هذا لم يسبق لى أن رأيت « د » مهموما على هذا النحو . ما الذى يمكن أن يحزنه دون الناس جميعا ؟ لقد عاد والدى من المدينة ووجدنا معا وكانت النظرة التى رمقنا بها غريبة حقا . عندما جاء أندريا بتروفتش لاحظت أنه قد ضمر وشحب لونه . وقد أنبنى لسلوكى نحو شوبين ووصفه هذا السلوك بالبرود وعدم المبالاة . لقد نسيت كل شىء عن بول حين القاه ثانية سأحاول ان أكفر عن خطئى والحق أن وقتى أصبح لا يتسع له الآن ـ ولا لأى شخص آخر على وجه الأرض قاطبة . كان أندريا

بتروفتش يتحدث الى كمن يشعر بالأسف من أجلى . ولكن ماذا يعنى كل هذا ؟ ما بال كل شىء حولى وكل شىء فى قرارة نفسى غامض ؟ اننى أحس ان شيئا غامضا يحدث حولى وفى أعماقى واننى لابد أن أعثر على الكلمة الصحيحة .

... لم أتمكن من النوم الليلة الماضية وأشعر بصداع شديد . ما الداعى لكتابة أى شىء ؟ لقد انصرف مبكرا جدا اليوم وكنت شديدة الرغبة فى التحدث اليه . انه يبدو كمن يتحاشانى . نعم انه يتحاشانى ... لقد عثرت على الكلمة ـ لقد هبطت على ! يا الهى .. رحمتك .. اننى أحب ..

(١٧)

فى اليوم الذى سطرت فيه يلينا هذه الكلمات الأخيرة فى مفكرتها كان انزاروف يجلس فى حجرة برزنيف وكان برزنيف يقف أمامه وقد ارتسمت على وجهه نظرة استغراب . كان انزاروف قد أعرب عن رغبته فى العودة الى المدينة فى اليوم التالى .

فقال برزنيف :

ـ ولكن يا صديقى لقد بدأت أجمل فترات السنة ما الذى ستفعله فى موسكو ؟ وما سبب هذا القرار المفاجىء ؟ هل تلقيت أخبارا خاصة ؟

فاجابه انزاروف قائلا :

ـ كلا لم أتلق أى أخبار · ولكن ثمة أسباب تحول دون بقائى هنا أكثر من ذلك ·

ـ ألا تستطيع البقاء ؟

فقال له انزاروف :

ـ أرجو يا أندريا بتروفتش ألا تصر على · ذلك اننى أجد صعوبة فى فراقك ولكننى لا أستطيع البقاء ·

فنظر اليه برزنيف جيدا ثم قال له أخيرا :

ـ اننى أعرف أنه لا شىء يمكن أن يثنيك عن عزمك ·· هل هذا قرار نهائى ؟

قال له :

ـ نهائى ولا رجعة فيه · ثم قام من مكانه وخرج ··

واخذ برزنيف يمشى فى الحجرة قليلا ثم أخذ قبعته وذهب الى بيت ستاكوف ·

وما ان انفردت به يلينا حتى بادرته قائلة :

ـ لديك ماتريد أن تخبرنى به ·

ـ نعم ـ وكيف عرفت ؟

ـ لا تهتم بذلك ، وقل لى ما وراءك ·

وأخبرها برزنيف بقرار انزاروف ، فشحب وجـه يلينا ·· ثم سألته :

ـ وما سبب رغبته فى الرحيل ؟

قال لها برزنيف :

ـ أنت تعلمين أن انزاروف لا يعطى أسبابا لتصرفاته· ورغم ذلك فاننى أعتقد ··· تعالى نجلس ، أنت متوعكة يا يلينا · اعتقادى اننى أستطيع أن أحدس سبب هـذا الرحيل المفاجىء · قالت يلينا وقد أمسكت يد برزنيف بلهفه بأصابعها التى أصابتها برودة مفاجئة :

ـ وما هو السبب ؟

فقال لها برزنيف وقد بدت على شفتيه ابتسـامة باهتة :

ـ كيف أستطيع أن أوضح لك ؟ اننى أجـد نفسى مضطرا الى الرجوع الى الربيع الماضى وهو الوقت الذى أتيح لى أن أعرف فيه انزاروف معرفة أحسن · كنت قد قابلته فى منزل أحد الأقارب · وكان لهذا القريب ابنة وهى فتاة رائعة الجمال فاعتقدت ان انزاروف قد وقع فى حبها وأخبرته بهذا ·· فضحك وقال اننى مخطىء لان قلبه محصن ضـد الحب وأنه لو أحس بشىء كهذا لغادر المكان لتوه اذ لم يكن يريد ، حسبما قال ، أن يتخلى عن قضيته وعن واجبه لكى يشبع عاطفة شخصية ·

ثم أضاف : اننى بلغارى ولا أريد أن أقع فى حب فتاة روسية ·

فقالت له يلينا هامسة وقد أدارت وجهها كمن ينتظر ضربة ولكنها كانت لاتزال ممسكة بيده :

ـ والآن ٠٠ هل تعتقد انه ؟

فقال لها وقد خفض صوته هو الآخر :

ـ أعتقد ان ما أخطأت فى تخمينه وقتذاك قد تحقق الآن ٠٠

فانفجرت يلينا قائلة :

ـ أى انك تعتقد ٠٠٠ لا تعذبنى ٠

فأجابها برزنيف بسرعة :

ـ أعتقد ان برزنيف قد وقع فى حب فتاة روسية ، ولكنه قرر أن يحتفظ بوعده لوطنه وأن يهرب منها ٠

وشددت يلينا الضغط على يده وأدارت رأسها وكأنها تريد أن تخفى عن شخص غريب تلك الحمرة المفاجئة التى طغت على وجهها ورقبتها ٠

وقالت له :

ـ أنت طيب كملاك يا أندريا بتروفتش ٠٠ ولكنه سيأتى لوداعنا أليس كذلك ؟

ـ نعم ٠٠ أعتقد انه سيحضر لانه لا يريد أن يرحل دون أن ٠٠٠

ـ قل له من فضلك قل له ٠٠

ولكن الفتاة المسكينة لم تستطع أن تكمل فقد انهمرت الدموع من مقلتها وخرجت من الحجرة وهى تجرى ٠

وقال برزنيف لنفسه وهو فى طريقه الى بيته :

ـ اذن الى هذا الحد تحبه ٠٠ لم أكن أتوقع ذلك ٠٠ لم أتخيل أن يكون هذا الحب قويا هكذا بهذه السرعة ٠ تقول اننى طيب ٠ ليس هناك من يعرف المشاعر أو الدوافع التى جعلتنى أقول ليلينا هذا الكلام ٠ لم يكن هذا ولا شك من باب العطف والطيبة ٠ كان ذلك بدافع الرغبة اللعينة لمعرفة هل غاص الخنجر فى الجرح الى عمق كبير ؟ ٠٠ كان يجب على أن اقر عينا ـ انهما متحابان وأنا الشخص الذى ساعدهما على ذلك « أنا وسيط المستقبل بين العلم والشعب الروسى » كما يسمينى شوبين ٠ يبدو أنه مقدر على أن أكون وسيطا ٠ ولكن لعلنى واهم ٠٠ كلا لست واهما ٠ كان برزنيف مكتئبا ٠ ولما بلغ بيته لم يستطع أن يركز تفكيره وهو يقرأ كتاب رومير ٠ وفى اليوم التالى قام انزاروف بزيارة بيت ستاكوف بعد الواحدة بقليل ٠ وكان لدى أنا فاسيليفنا لحسن الحظ زائرة هى زوجة القسيس التى تقطن فى بيت قريب ٠ كانت امرأة طيبة محترمة ولكنها كانت تشكو من متاعب مع البوليس سببها انها نزلت للاستحمام فى يوم حار فى بحيرة على الطريق يستعملها عادة أفراد أسرة أحد الجنرالات المهمين ٠

وظنت يلينا فى أول الامر ان وجود شخص غريب بالبيت سيخفف عنها ٠ وامتقع لونها حال سماعها وقع اقدام انزاروف ٠ ولكن قلبها كادت تتوقف ضرباته عندما خطر ببالها انه قد يودعها دون أن يتحدث اليها على انفراد٠

وبدا على انزاروف الارتبـــاك ، وكان يتجنب نظراتها • وقالت لنفسهـا : لا يمكن أن يودعنى فى لحظة • والتفت انزاروف الى أنا فاسيليفنا وكأنما يؤكد مخاوفها ، ولـكن يلينا قامت على عجل وقادته الى النافذة •

ودهشت زوجة القسيس لهذا التصرف وحاولت ان تلتفت اليهما • ولكنها كانت ترتدى ملابس محبكة فكان أن عجزت عن ذلك وعدلت عن المحاولة •

قالت يلينا على عجل لانزاروف :

ـ أعرف سبب مجيئك فقد أخبرنى اندريا بتروفتش بما تنويه ، ولكننى أرجوك بل وأتوسل اليـك ألا تودعنا اليوم وأن تحضر غدا حوالى الحـادية عشرة لانى أريد أن أتحدث اليك •

فانحنى انزاروف ••

وقالت يلينا :

ـ لن أستبقيك أكثر من ذلك ، فهل تعدنى ؟

فانحنى انزاروف مرة أخرى ولكنه لم يجب ••

وهنا تحدثت أنا فاسيليفنا قائلة :

ـ تعالى يايلينا وانظرى الى هذه الحقيبة الجميلة ••

فقالت زوجة القسيس :

ـ لقد طرزتها بنفسى •

ـ وابتعدت يلينا عن النافذة • وخرج انزاروف بعد

ذلك بربع سـاعة • وكانت يلينـا تختلس اليه النظر فى الفترة التى كان فيها معها • ولم يكن هو مرتاحا لذلك وظل يقلب عينيه فى كل اتجـاه ثم خرج وهو فى حالة غريبة وسرعان ما اختفى ••

ومضى اليوم بطيئا أما الليـــل فكان أطول • كانت يلينا تجلس تارة على فراشها وقد أمسكت ركبتيها بيديها وأسندت رأسها عليهما وتسير تارة أخرى الى النافذة وتضع جبهتها على زجاجها البارد وهى نهبة للافكار حتى أخذ منها الارهاق كل مأخذ • وكاد قلبها يتوقف دقاته أو يقفز من صدرها وكانت عروقهـــا تنتفض مع كل نبضة • وجفت شفتاها •• كانت تقول لنفسها : سيأتى ـ انه لم يودع والدتى ـ وهو لا يمكن أن يخدعنى •• أمن الممكن أن يكون اندريا بتروفتش صادقا فيمـا حدثنى به ؟ كلا •• هذا مستحيل • ولكنه لم يقل انه سيعود •• ترى هل فارقته الى الأبد ؟

كانت هذه هى الهواجس التى تقض مضجعها • لم تكن أفكارها تروح وتجىء فى رأسـها بل كانت تتلاحق فيهـا كالموج الصـــاخب ، كانت تقول لنفسها : « انه يحبنى » وتهز هذه الفكرة كل كيانها ، ثم تحملق فى الظلام ويبدو على شفتيها ظل ابتسامة ، ولكنها سرعان ما تلقى برأسها للخلف ثم تمسك مؤخرة رأسها بيديها وتعاودها هواجسها السابقة •

ولما حان الفجر خلعت ملابسها وأوت الى فراشها ولكنها لم تخلد الى النوم · ثم تسللت الى حجرتها بعد هنيهة أشعة الشمس وفجاة هتفت قائلة : « اه ·· لو انه يحبنى » وفتحت ذراعيها وهى غير عابئة بأشعة الشمس والضوء الذى سقط عليها ·

غادرت الفراش وارتدت ملابسها وهبطت من حجرتها ولم يكن أحد قد استيقظ بعد · وذهبت الى الحديقه وكانت هادئة خضراء منعشه وكانت الطيور تغرد والازهار جميلة مما اثار فيها شعورا بالرهبة · وقالت لنفسها : اذا كان ذلك صحيحا فلا يمكن أن يكون هناك عود من أعواد الحشيش أسعد منى · ولكن هل ذلك حقيقى ؟ ثم عادت لحجرتها وأخذت تغير ملابسها ولكن كان كل شىء تمسكه يقع من يدها · وأخيرا جلست أمام المرآة نصف عارية · واستدعيت لتناول الشاى ، فنزلت من حجرتها ولاحظت والدتها شحوبها ، ولكنها لم تزد على قولها : انك تبدين جميلة هذا الصباح · ثم تفحصتها بنظرها وقالت لها :

— هذا الثوب يناسبك تماما وأنصحك أن ترتديه كلما أردت أن تدخلى السرور على نفس أى انسان· وجلست يلينا فى أحد الاركان فى صمت · ودقت الساعة التاسعة وبقيت ساعتان حتى الحادية عشرة · والتقطت كتابا ثم تركته وتناولت شغل الابرة ثم عادت للكتاب مرة أخرى · ثم قررت أن تسير جيئة وذهابا فى الحجرة مائة مرة ، وفعلت ذلك ثم نظرت الى الساعة فلم تكن قد بلغت

العاشرة · ثم حضر شوبين الى حجرة الجلوس وحاولت أن تتحدث اليه وقدمت له اعتذارها وهى تجهل ما تعتذر عنه ·

كانت كل كلمة تنطقها تحيرها · وكان شوبين ينحنى لها · وكانت تتوقع منه السخرية ولكنها عندما نظرت اليه وجدت أمامها وجها ينطق بالود والحزن ·

وابتسمت لهذا الوجه ورد عليها شوبين بابتسامة مماثلة ثم انصرف فى هدوء · أرادت أن تستوقفه ولكنها لم توفق الى طريقة تستدعيه بها ·

وأخيرا دقت الساعة الحادية عشرة ·· وأخذت تنتظر وتنتظر وتنتظر وهى تنصت ولم يعد فى وسعها أن تفعل أى شىء بل لقد عجزت حتى عن التفكير · وبدأت دقات قلبها تعلو رويدا رويدا وبدا لها ان الوقت يمر سريعا · ومرت ربع ساعة ثم نصف ساعة ثم بضع دقائق أخرى أو هكذا تخيلت ثم انتفضت فجأة عندما دقت الساعة الواحدة لا الثانية عشرة ·

قالت لنفسها :

— سوف لا يأتى — سيرحل دون أن يودعنا · واندفع الدم الى رأسها عندما خطرت لها هذه الفكرة · وأحست بأنفاسها تتلاحق وبالدموع على وشك أن تنهمر من عينيها· فعادت الى حجرتها وألقت بنفسها على الفراش وقد وضعت وجهها بين راحتيها ·

ظلت راقدة دون حراك نصف ساعة والدموع تنساب بين أصابعها وتبلل الوسادة • وفجأة هبت جالسة وكان هنـــاك شيء غريب يجرى فى قرارة نفسهـــا وتغير وجهها وجفت دموعها تلقائيا وأخذت عيناها تلمعـــان ، قطبت حاجبيها وزمت شفتيها • وانقضت نصف ساعة أخرى • وأصاخت يلينا السمع لآخر مرة لعلها تسمع الصوت الذى تنتظره • ثم قامت ولبست قبعتها وقفازها ووضـــعت الشال حول كتفيهـــا وتسللت من البيت دون أن يراها أحد • وأسرعت تسير فىالطريق المؤدى الى بيت برزنيف •

- ١٨ -

سارت يلينا وقد نكست رأسها وركزت عينيها على الطريق • لم تكن تخشى شيئا كما لم تكن تعرف ماتفعله• كانت تريد أن ترى انزاروف مـــرة أخرى ، هـــذا كل ما هنـــالك • ولم تحس بأن الشمس قد توارت من مدة خلف السحب الداكنة وان ريحا قويةكانت تعبث بالاشجار وبردائها وأن الغبار أخذ يندفع علىطول الطريق ويرتفع • وبدأ المطر يتسقط فى قطرات كبيرة ، ولكنها لم تعرها أى التفات ، وزادت غزارة المطر وبدأت السماء ترعد وتبرق• ووقفت يلينا لتنظر حولها •• ووجدت لحسن الحظ بالقرب منها كوخا صغيرا يعلو بئرا فأسرعت تحتمى به • وظـل

المطر يسقط بغزارة ، من ســماء ملبدة بالغيوم • ونظرت يلينا فى يأس الى الستار الكثيف الذى نسخه المطر وأخذ أملها الاخير فى رؤية انزاروف يتضاءل • وانضمت اليها فى مأواها شحاذة عجوز قالت لها وهى تنحنى :

ـ أنت مختبئة من المطر ياصغيرتى •• ثم جلستعلى الارض تتنهد وتئن • ودست يلينا يدها فى جيبها ورأت المرأة العجوز هذه الحركة فاشرق وجهها المجعـد الشاحب الذى كان جميلا فى يوم من الايام •• وقالت لها : شكرا لك ياملاكى •• ولم تجد يلينا حافظة نقودها ولكن المرأة العجوز كانت قد مدت يدها بالفعل ••

فقالت لها يلينا :

ـ ليس معى نقود ياجدتى ولكن يمـكنك أن تأخذى هذا ـ فقد ينفعك •• وأعطتها منديلها ••

قالت الشحاذة :

ـ ماذا أستطيع أن أفعل بمنديلك يافتاتى ؟ سأهديه لحفيدتى يوم زفافها •• أسأل الله أن يجزيك عن عطفك خيرا •• وهنا رعدت السماء وأبرقت ••

فقالت العجوز :

ـ يا الهى •• ثم رسمت الصليب على صدرها ثلاث مرات • ثم أضافت بعد برهة : يخيل الى اننى رأيتك من قبل • أظنك أعطيتنى صدقة ذات مرة •

فنظرت يلينا بتمعن للمرأة العجوز وتذكرتها ثم قالت لهـا :

ـ نعم ياجدتى وقد سألتنى يومئذ عن سبب حزنى.

فقالت لها العجوز :

ـ نعم يابنيتى لقد فعلت . وهذا هو ماجعلنى أتعرف عليك ثانية . ولكنك تبدين حزينة الآن أيضا . منديلك مبتل كله ـ هل كنت تبكين ؟ كلكن أيتهـا الفتيات سواء بأحزانكن وهمومكن ..

ـ أى أحزان ياجدتى ؟

ـ تسالين أى أحزان ؟

لا تحاولى يا ابنتى الطيبة أن تموهى على امرأة عجوز مثلى . اننى أعرف ما يؤلمك . ألمك لا يرجع الى انك فقدت والديك . لقد كنت شابة يوما ما يا فتاتى وخبرت هذا كله اننى أقول لك هذا لأنك أحسنت الى .. لقد التقيت برجل طيب وأهل للثقة وتريدين التمسك به .

اذا كان مقدرا لهذا أن يتم فسيتم والا فلتكن ارادة الله . هـــذا هو الموقف . لماذا تحملقين فى هكذا ؟ الم تكونى تعرفين اننى أقرأ الطـالع ؟ اذا أردت فاننى سآخذ كل أحزانك مع منديلك . سأبعدها كلها عنك وهذا كل ما هناك . انظرى ، لقد بدأ المطر يخف فما تنظرى حتى يتوقف أما أنا فلا بـد لى أن أنصرف ولن تكون هذه هى

المرة الاولى التى يبللنى فيهـا المطر تمـاما .. تذكرى ياعزيزتى انك كنت حزينة ، ولكن حزنك قد انتهى الآن .

ونهضت المرأة العـجوز وانصرفت وتتبعها يلينـا بنظرات مأخوذة وقالت يلينا لنفسها :

ـ ماذا يمكن أن يعنى هذا ؟

لقد بدأت شـدة المطر تخف وأخذت الشمس تظهر وتختفى . وكانت يلينا على وشك أن تترك مخبأها عندما رأت انزاروف فجأة على بعد اثنتى عشرة خطوة وكان يسير ملتفا بمعطفه فى نفس الطريق الذى سارت هى فيه يبدو انه كان مسرعا الى بيته . حاولت أن تناديه ولكن صوتها خانها . ومر انزاروف أمامهـا دون أن يرفـع عينيه . واستطاعت أخيرا أن تناديه .

فوقف انزاروف ونظر خلفه .. لم يعرف يلينا فى بادىء الامر ولكنه بعد لحظة واحدة ، رجع اليها ..

وقال لها متعجبا :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟!

فدخلت الى الكوخ فى هـدوء وتبعها انزاروف وكرر سـؤاله .. فلم تجبه .. ولكنها نظرت اليه نظرة طويلة رقيقة .. أما هو فقد خفض عينيه .

وسألته :

ـ أكنت عائدا من بيتنا ؟

ـ كلا ـ كنت عائدا من مكان آخر ٠

فتساءلت يلينا قائلة :

ـ كلا ـ ؟ وهل هذه هى الطريقة التى تحافظ بها على كلمتك لقد قضيت الصباح فى انتظارك ٠٠

ـ لعلك تذكرين يايلينا نيكولايفنا اننى لم أعدك بشىء بالأمس ٠

فابتسمت يلينا ابتسامة باهتة ومرت بيدها على وجهها وكانت يداها شاحبتين ووجهها ممتقعا ٠ قالت :

ـ أى انك كنت ستتركنا دون أن تودعنا ؛

فقال انزاروف بصوت حزين :

ـ نعم ٠

ـ بعد أن عرف أحدنا الآخر كل هذه المدة ٠ وبعد الموضوعات الكثيرة التى ناقشناها ٠ بعد كل هذا ٠٠ معنى هذا اننى اذا لم أكن قد قابلتك هنا بالصدفه (وهنا ارتعش صوت يلينا وتوقفت هنيهة عن الكلام) لرحلت دون ان تقرئنى السلام للمرة الاخيرة دون أن تأسف على هذا ؟

فابتعد عنها انزاروف ثم قال :

ـ لا تتكلمى هكذا يا يلينا نيكولايفنا فعندى من التعاسة الكفاية ٠ وصدقينى ان قرارى هذا قد كلفنى جهدا ضخما ٠ واذا عرفت ٠٠ فقاطعته يلينا قائلة :

ـ لا أريد أن أعرف سبب رحيلك فأنا أعتقد انك

مجبر عليه وواضح انك لا بد أن ترحل ٠ فانك ما كنت تتسبب فى مضايقة أصدقائك دون سبب ٠ ولكن هل يفترق الاصدقاء هكذا ؟

اننى وانت أصدقاء أليس كذلك ؟

فقال انزاروف :

ـ كلا ٠

فقالت يلينا وقد احمرت وجنتاها قليلا :

ـ ماذا تقول ؟

قال انزاروف :

ـ اننى راحل لاننا لسنا صديقين ٠

ولا تضطرينى الى قول مالا أريد أن أقوله ـ وماسوف لا أقوله ٠

فقالت يلينا وفى صوتها رنة تأنيب :

ـ لقد اعتقدت أن تكون صريحا معى ٠ ألا تذكر ذلك؟

ـ كان هذا عندما كان فى استطاعتى أن أكون صريحا حيث لم يكن لدى شىء أخفيه ٠ أما الآن ـ فسألته يلينا : الآن ماذا ؟

ـ الآن ـ الآن لابد لى أن أذهب ٠ وداعا ٠

لو أن انزاروف كان قد رفع رأسه فى هذه اللحظة لرأى وجه يلينا وهو يزداد اشراقا بينما كان وجهه هو يزداد تجهما ٠ ولكنه كان لا يرفع عينيه عن الارض ٠

قالت له :

ـ وداعا اذن يادمترى نيكاموروفتش ·· ولكن اعطنى يدك على الاقل مادمنا قد التقينا ·

وهم انزاروف بأن يمد لها يده ولكنه ابتعد وقال هامسا :

ـ كلا لا أستطيع ··

ـ لا تستطيع ؟

ـ كلا · وداعا · ثم اتجه صوب الباب ··

فقالت له يلينا : انتظر لحظة واحدة · انك تبدو خائفا منى ·· ولكننى أشجع منك · ان فى استطاعتى أن أصارحك ـ هل أقول ـ لماذا وجدتنى هنا ؟ هل تعرف الى أين كنت ذاهبة ؟

فنظر انزاروف الى يلينا فى عجب :

ـ كنت ذاهبة اليك ·

ـ الى ؟

فاخفت يلينا وجهها بين يديها وهمست قائلة :

ـ لقد أردت أن تدفعنى الى مصارحتك بحبى · والآن هأنذا قد كاشفتك بذلك ·

فهتف انزاروف قائلا : يلينا !!

فرفعت يديها من على وجهها ونظرت اليه ثم ألقت بنفسها على صدره ··

احتضنها دون أن ينبس · ولم يكن فى حاجة لأن يصرح لها بأنه يحبها ، فان التعبير الذىظهر عليه والتحول المفاجىء الذى حدث له وصدره الذى كان يعلو ويهبط وهى متعلقة به بكل ثقة وأصابعه التى كانت تعبث بشعرها ـ كانت كلها توحى ليلينا أنه يحبها · لم يقل شيئا ولم تكن هى فى حاجة الى كلمات وكانت تقول لنفسها : انه هنا· انه يحبنى · فماذا أريد أكثر من ذلك ؟ وغمرتها موجة من هدوء الغبطة ·· والشعور بالامن ·· الشعور بأن هدفا قد تحقق ·· الهدوء السماوى الذى يضفي جمالا على كل شىء·· لم تكن فى حاجة الى شىء فقد أصبحت تملك كل شىء ··

قالت له هامسة وهى لا تدرى ان كان قلبه أو قلبها هو الذى يدق ويذوب فى صدرها : أخى ·· صديقى ·· عزيزى ··

ووقف هو بلا حراك وقد التفت ذراعاه القويتان حول هذه الفتاة التى أسلمت نفسها له ، كانت تشعر به وهو يضمها الى صدره ·· وقد حطم حبها وحطمت رقتها عزمه واندفعت الى عينيه دموع لم يكن له بها عهد من قبل ·

ولكنها هى لم تبك بل أخذت تكرر قولها : صديقى· أخى ··

ومر ما يقرب من ربع ساعة وهو لا يزال ممسكا بها بين ذراعيه ثم قال :

ـ اذن فانت على استعداد للذهاب معى الى أى مكان·

ـ الى أى مكان الى آخر الدنيا ·· أحب أن أكون حيث تكون ·

ـ هل انت واثقة انك لا تخدعين نفسك ؟ انت تعرفين ان والديك لا يمكن أن يوافقا على زواجنا ·

ـ أنا لا أخدع نفسى ·· اننى أعرف ·

ـ وهل تعلمين اننى فقير بل وأكاد أكون معدما ؟

ـ أجل ··

ـ واننى لست روسيا · واننى لا أنوى أن أعيش فى روسيا وانك ستضطرين لقطع علاقاتك مع بلادك وأقاربك؟

ـ اعرف ذلك ·

ـ وهل تعلمين أيضا اننى قد كرست حياتى لقضية صعبة لا هوادة فيها · واننى ـ واننا سنضطر لمواجهة الاخطار والمصاعب بل وربما الهوان ؟

ـ أعلم ذلك ـ أعرف كل هذا · أحبك ·

ـ وانك ستضطرين للتخلى عن كل عاداتك وستكونين هناك وحيدة بين قوم أغراب وقد تضطرك الظروف للعمل ؟

فوضعت يديها على شفتيه وقالت له :

ـ أحبك يا عزيزى ··

فبدأ يقبل يدها ـ الرقيقة الوردية فى شغف ·· ولم تحاول يلينا أن تسحب يدها منه بل أخذت تراقبه

بمرح كمرح الطفولة وهو يغطى راحة يدها وأصابعها بقبلاته ·

وفجأة احمر وجهها وأخفت وجهها فى صورة ·· ولكنه رفع رأسها برقة ونظر فى عينيها وقال لها :

ـ تحية لك اذن يا زوجتى أمام الله وأمام الناس ··

- ١٩ -

عادت يلينا فى هدوء الى حجرة الجلوس بعد ساعة وقد أمسكت قبعتها فى احدى يديها وشالها فى اليد الأخرى · كان شعرها غير مرتب ، على وجنتيها وردة حمراء وعلى شفتيها وفى عينيها ابتسامة · كانت متعبة للغاية حتى انها كانت تجد فى السير مشقة ولكنها كانت تستمتع بذلك التعب بل تستمتع بكل شىء · كان كل شىء يبدو أمامها لطيفا جميلا · كان يوفار ايفانوفتش يجلس أمام نافذتها فذهبت اليه ووضعت يديها على كتفيه وضحكت ··

فسألها فى دهشة :

ـ ماذا هناك ؟

ولم تعرف بم ترد عليه ·· كانت على استعداد لأن تعطيه قبلة ·· وأخيرا قالت : لقد مضى ··

ولكن يوفار ايفانوفتش لم يحرك عضلة واحدة وهو يحملق فى يلينا فى دهشة · ووضعت شالها وقبعتها عليه

.. ثم قالت : اننى متعبة يا عزيزى يوفار ايفانوفتش كما اننى أشعر بالنعاس . ثم ضحكت مرة أخرى والقت نفسها على المقعد المجاور له .

فتمتم يوفار ايفانوفتش وهو يثنى أصابعه وقال :

ـ غفوة ... نعم ... لا بأس ..

ونظرت يلينا حولها وهى تقول لنفسها : سأكون مضطرة للتخلى عن كل هذا قريب . الغريب اننى لا اشعر بخوف أو شك أو أسف . ولو أننى سأشعر بالأسف على فراق أمى . ثم رأت الكوخ الصغير مرة أخرى وسمعت صوت انزاروف وأحست بذراعيه تطوقانها .. كان قلبها يدق بمرح وهدوء فقد كان هو الآخر فى غمرة من السرور ثم تذكرت السائلة العجوز وقالت لنفسها : لقد أزالت حزنى فعلا . كم أنا سعيدة الآن ولو انى لا أستحق هذه السعادة . ما أسرع ما جاءت سعادتى . واستسلمت لعواطفها قليلا لتطلق العنان لدموع الفرح التى ظلت تحبسها طويلا .

كانت كل حركة من حركاتها متأنية ورقيقة . واختفى جمودها العادى وحيرتها . ودخلت زويا وخيل ليلينا عندما رأتها انها لم تر وجها أجمل من وجهها . ثم تبعتها أنا فاسيليفنا . وأحست يلينا بالألم وقامت واحتضنت أمها فى محبة وحنان وقبلتها فى جبهتها عند شعرها الأشيب . ثم ذهبت بعد ذلك الى حجرتها ، وكان كل شىء فيها يبدو

جميلا . وجلست على فراشها وهى تشعر بالبهجة والاطمئنان ، نفس الفراش الذى أمضت عليه منذ ثلاث ساعات لحظات مريرة .. وقالت لنفسها : كنت أعرف حينذاك طبعا انه يحبنى وحتى قبل ذلك . ولكن لا ... لا ... من الجرم أن أفكر فى هذا .. ثم همست : لقد قال « انك زوجتى » ثم غطت وجهها بيدها وركعت على ركبتيها .

عندما اقترب المساء بدا عليها الوجوم . لقد شعرت بالحزن لأنها ستمضى فترة طويلة دون أن ترى انزاروف . لم يكن يملك البقاء مع برزنيف دون أن يثير الشكوك ، لذا فقد اتفق مع يلينا على ضرورة عودته الى موسكو على أن يزورهم مرة أو مرتين قبل نهاية الصيف . كما وعدت من جانبها أن تكتب له وان تعمل على أن يلتقيا فى أى مكان بالقرب من مكونتسوفو ان أمكن ذلك ، ونزلت الى حجرة الجلوس لتناول الشاى وهناك وجدت جميع أفراد العائلة وشوبين الذى أخذ بمجرد ظهورها ينظر اليها بدهاء ، كانت تود لو أمكنها أن تبدأ معه حديثا وديا كما كانت تفعل من قبل ولكنها كانت تخشى نظراته الثاقبة كما انها لم تكن تثق فى نفسها . كانت تشك فى أنه ليس من قبيل الصدفة أن يتركها دون أن يقابلها فترة أسبوعين . وسرعان ما حضر برزنيف ونقل الى انا فاسيليفنا تحيات انزاروف واعتذراته لأنه اضطر الي الرحيل الى موسكو دون أن يزورها لتقديم شكره وتقديره . كانت هذه أول مرة

يذكر فيها اسم انزاروف ذلك اليوم فى حضور يلينا ٠ وأحست بأن وجهها قد علاه الاحمرار ٠ قد تنبهت أن عليها أن تعبر عن أسفها لهذا الرحيل المفاجىء لمثل ذلك الصديق ولكنها لم تستطع أن تتظاهر فجلست صامتة دون حركة بينما أعربت أنا فاسيليفنا عن أسفها ٠ وحاولت يلينا أن تظل بالقرب من برزنيف الذى لم تكن تخشاه رغم انه كان يعلم جزءا من سرها ، وكانت تحتمى به من شوبين الذى كان يكرر النظراليها كمن يبحث عنشىء أو كمن يستفسر عن شيء ٠ وشعر برزنيف بالجرأة أكثر من مرة ذلك المساء لانه كان يتوقع أن يجد يلينا أكثر حزنا مما رآها ولكن كان من حسن حظها ان بدأ هو وشوبين نقاشا حول الفن فابتعدت عنهما وأخذت تنصت الى أصواتهما وكأنهـا فى حلم من الاحلام ٠ ورويدا رويدا أصبح كل شيء فى الحجرة جزءا من حلم ـ فاناء الشاى على المنضدة والصديرى الذى يلبسه يوفار ايفانوفتش وأظافر زويا اللامعة وصورة الدوق قسطنطين بافلوفتش الزيتية على الحائط ـ كل هذا اختفى من أمام عينيها ٠ ولكنهـا كانت تتحسر عليهم جميعـا وتتساءل قائلة :

ـ ما الذى يعيشون من أجله ؟

وسألتها أمها :

ـ هل تشعرين بالنعاس يا يلينا ؟

ولكنها لم تسمع السؤال ٠٠

وفجأة قال شوبين فى نبرات حادة مخاطبا برزنيف: تقول انها اشارة لها بعض ما يبررها ؟ فايقظها صوته من حلمها ٠ واستمر شوبين فى حديثه قائلا : ولكن هـذا ما يجعل لها قيمة ٠ فالاشارة التى لها كل ما يبررها تسبب اليأس الذى لا تحبذه المسيحية والاشارة التى ليس لها ما يبررها تجعل الانسان لا يعبأ بشيء ٠ فاذا قلت مثلا ان يلينا نيكولايفنا تحب أحدنا فماذا يكون نوع هـذه الاشارة ؟

فقالت يلينا :

ـ آه ياسـيد بول كان بودى أن أبين لك كم أنا ضيقة الصدر بهذا الحديث ولكننى لا أستطيع فأنا منهكة جدا ٠

فسـألتها أنا فاسـيليفنا التى كثيرا ما كان يغلبها النعاس فى المساء فيحملها على دفع الآخرين الى النوم :

ـ ولماذا لا تذهبين للنـوم ؟ حيينى تحية المسـاء واذهبى لتنامى ـ ان اندريا بتروفتش سيأذن لك بذلك ٠٠

فقبلت يلينا والدتها وانحنت للجميـع وخرجت ورافقها شوبين الى الباب ٠ وهمس فى اذنها وهى على عتبة الباب : يا يلينا نيكولايفنار انك تطئين السيد بول بقدميك تدوسين عليه بقسوة ، ورغم ذلك فان السيد بول يعبدك ويعبد قدميك الصغيرتين والحذاء الذى تلبسينه فى قدميك الصغيرتين بل ونعل حذائك ٠

فهزت يلينا كتفها ومدت له يدها على غير رغبة منها، لم تكن هى اليد التى قبلها انزاروف . وعندما رجعت الى حجرتها خلعت ملابسها وصعدت الى فراشها ونامت نوما عميقا كنوم طفل .

- ٢٠ -

ما ان خرج برزنيف من بيت أنا فاسيليفنا حتى قال له شوبين : تعال معى الى حجرتى لحظةواحدة فان لدى ما أريد أن أطلعك عليه . فذهب برزنيف الى جناح شوبين وفوجىء بكثرة التماثيل والنماذج الملفوفة بخرق مبللة فى كل ركن . فقال لشوبين :

– لابد انك تعمل بمنتهى الجد .

فرد عليه شوبين قائلا :

– لابد لى من شىء ما أعمله . وعندما لا ياتى الشىء كما تريد فلا بد لك من عمل شىء آخر . اننى كالفنان بالكورسيكى – فانا أهتم بالصفات العامة أكثر من اهتمامى بالفن كفن بحت .

فقال له برزنيف :

– زدنى ايضاحا .

فقال له شوبين .

– انظر يا صديقى العزيز الى هذا التمثال الذى أسميه « الانتقام رقم ١ » – .. قال ذلك ورفع الغطاء عن أحد التماثيل الصغيرة .. رأى برزنيف تمثالا نصفيا جميل الصنع لأنزاروف ويشبهه تماما . فقد نجح شوبين فى ابراز تقاطيع وجهه فكانت تعبر تعبيرا مدهشا عن الشرف والنبل والرجولة ..

وشعر برزنيف بالسرور .. وقال لشوبين :

– مدهش جدا .. تهنئتى .. انه تمثال جدير بأن يعرض . ولكن لماذا تسمى هذا العمل الفنى العظيم « بالانتقام » ؟

فقال شوبين :

– لأننى أريد أن أقدم هذا التمثال الذى قلت عنه انه عمل فنى رائع هدية ليلينا نيكولايفنا يوم عيد ميلادها هل فهمت الاشارة ؟

لست أعمى .

اننى استطيع أن أرى ما يحدث حوله ولكننى رجل مهذب ، كما اننى انتقم بطريقة مهذبة ..

أما هذا التمثال الصغير (قالها وهو يرفع الغطاء عن تمثال آخر) فنظرا لأن مقاييسالجمال الحديثة تخول للفنان حق تخليد الشىء الكريه مع تعظيمه الى درجة بدائع الخلق فاننى اذ أعظم المخلوق الذى يمثله هذا التمثال الذى سميته رقم ٢ ، فقد انتقمت ولكننى لم انتقم كرجل مهذب .

وأزال الحرقة وشاهد برزنيف تمثالا آخر لانزاروف نحت على طريقة دانتين وقد ظهرت فيه البراعة الفائقة الى جانب السخرية الشديدة · فقد صور هذا البلغاري ككبش يقف على رجليه الخلفيتين وقد استعد برأسه للنطح، وقد ارتسمت على وجهه الجدية مختلطة بالغباء والتحدى والعناد والحماقة · ولكن الشبه كان شديدا جدا حتى ان برزنيف انفجر ضاحكا ·

وقال شوبين :

ـ مثير · أليس كذلك ؟ لابد انك تعرفت على البطل· هل ترى ان أعرض هذا التمثال أيضا ؟ سأقدمه لنفسى يوم عيد ميلادى · هل تسمح لى بقفزة يا صاحب الفخامة ؟ ثم قفز شوبين قفزتين أو ثلاث · أما برزنيف فانه التقط الحرقة وغطى التمثال الصغير ··

وقال شوبين : برنة حزن وهو يكشف الغطاء عن تمثال ثالث كبير :

ـ والآن سوف ترى شيئا يقنعك بتواضع صديقك ونفاذ بصيرته ·

سوف تقتنع انه ـ كفنان أصيل ـ يعرف كيف يدفع نفسه · انظر !!

ونزع الحرقة فظهر أمام برزنيف تمثال لرأسين وضعا متجاورين وكأنهما نبتا معا · ولم يستطع أن يتبين فى بادىء الامر ما يدل عليه التمثال ولكنه عندما دقق النظر

وجد ان أحد الرأسين هو رأس انوشكا والرأس الثانى هو رأس شوبين · وقد أظهر رأس انوشكا على انه رأس فتاة ممتلئة ذا جبهة منخفضة وعينين منتفختين وأنف قصير وشفتين غليظتين تنفرجان عن ابتسامة مغرية ويرتسم على وجهها تعبير شهوانى مع لمسة خفيفة تدل على طبيعة طيبة· وصور شوبين نفسه كعربيد ضائع له أنف مدبب وصدغان غائران وقد تدلت على جبهته خصلة صغيرة من الشعر وبدت عيناه وقد خلتا من البريق ·

وابتعد برزنيف فى اشمئزاز وسأله شوبين :

ـ ما رأيك فى هذين ؟ الا تستطيع أن تفكر فى اسم يطلق على هذا التمثال ؟ لقد فكرت أنا فى تسميتين للتمثالين الاولين· سيكتب تحت التمثال النصفى: « بطل عقد العزم على انقاذ وطنه » أما التمثال الصغير فسيكتب تحته « احترسوا أيها الطغاة » أما تحت هذا فمن الممكن أن يكتب « مستقبل الفنان بافل شوبين » · ما رأيك فى هذا ؟

فقال برزنيف :

ـ كف عن هذا · كيف يمكنك أن تضيع وقتك فى مثل هذا ال

ولم يستطع أن يجد كلمة ملائمة ·

فقال له شوبين :

ـ هل كنت تنوى أن تقول « الدنس » ؟ دعنى أقول

لك اننى لو كنت قد خلقت شيئا يستحق العرض فهو هذا التمثال الاخير للراسين ٠

فقال برزنيف :

ـ ان « دنس » هى الكلمة الصحيحة ٠ ولكن ما كل هذا العبث ؟ يبدو انك لا تملك البصيرة النافذة للقيام بمثل هذا العمل على عكس فنانينا الذين يتجهون اليه أكثر من اللازم ٠ انك بهذا تلطخ سمعتك ٠

فقال شوبين :

ـ هل تظن ذلك ؟ اننى اذا كنت عديم البصيرة فاللوم فى ذلك يقع على شخص ما ٠ هل تعلم اننى قد بدأت أعاقر الخمر ٠٠

ـ مستحيل

فقال شوبين :

ـ أقسم على ذلك ٠ ولكننى لم أحب الخمر فانى أجد صعوبة فى ابتلاعها ٠ كما اننى بعد احتسائها أشعر برأسى يدور ٠ كذلك فقد صرخ لوشخكين العظيم ـ اعنى فارلامبى لوشخكين نفسه وهو أعظم سكير فى موسكو بل يقول البعض انه أعظم سكير فى روسيا ـ لست سكيرا مدمنا ٠ وهو يقول ان الخمر لا تستهوينى ٠

ورفع برزنيف قبضته لكى يحطم تمثال الراسين ولكن شوبين منعه وقال له :

ـ لا تفعل هذا أيها الرجل فقد يصلح هذا التمثال اداة للتحذير من عمل شنيع ٠

فضحك برزنيف وقال :

ـ حسن سأبقى على أداة التحذير هذه لك ٠ وليحيا الفن الحقيقى الخالد ٠

فصاح شوبين بدوره قائلا :

ـ ليحيا الفن ٠ فبالفن يبدو الشىء الجيد أكثر جودة أما الشىء الردىء فلا ضرر منه ٠

وشد الصديقان كل منهما على يد الآخر مسلما وافترقا ٠

- ٢١ -

كان أول ما خامر يلينا عندما استيقظت شعور بخوف لذيذ ٠ وسألت نفسها قائلة : هل هذا ممكن ؟ هل هذا ممكن حقا ؟ كانت تشعر بسعادة جعلت قلبها يكاد يكف عن الدق ٠ وطغت عليها وتملكتها الذكريات ثم غمرها الهدوء مرة أخرى ٠ ولكن القلق استولى عليها من جديد ٠٠ فى الصباح وأحست فى الايام التالية بخمول ووحدة ٠ لقد أصبحت الآن تعرف ما تريد ولكن هذا لم ييسر الامور بالنسبة لها ٠ لقد أخرجها ذلك اللقاء الذى لا تنسى عن

طريقها القديم الى الأبد · وطالما انها لم تعد فى الطريق القديم بل أمست بعيدة عنه فان كل شىء كان يسير كالمعتاد وكأن شيئا لم يتغير · استمرت الحياة السابقة مع ما ينتظر فيها من يلينا من مشاركة وعون · حاولت أن تكتب خطابا لانزاروف ولكنها فشلت كانت الكلمات التى كتبتها لا حياة فيها أو لعلها كانت كاذبة ·· وتوقفت عن الكتابة فى مفكرتها بعد أن وضعت خطا سميكا تحت آخر جملة فيها · هذه المفكرة كانت ملكا للماضى بينما كانت كل افكارها بل وكيانها كله متجها للمستقبل · كانت تشعر بالأسى · وكانت تتصور أن هناك جريرة فى جلوسها الى جوار والدتها التى لم تكن تشك فى أى شىء وهى تنصت اليها وتجيب عن اسئلتها وتبادلها الحديث · كانت تحس بالنفاق وتشعر بالخطة رغم انها لم تقترف ذنبا يدعوها الى الخجل· وتملكتها أكثر من مرة رغبة شديدة فى أن تطلع والدتها على كل شىء وتريح نفسها ، وليكن ما يكون ·

وكانت تقول لنفسها : لماذا لم يأخذنى دمترى فى الحال من ذلك الكوخ الى حيث يريد أن يأخذنى ؟ ألم يقل لى اننى زوجته أمام الله ؟ وما الذى يبقينى هنا ؟ وبدأت تتجنب الجميع حتى بوفار ايفانوفتش الذى كان فى حيرة بالغة وأكثر من ثنى أصابعه أكثر من أى وقت مضى · ولم تعد الأشياء حولها تبدو جميلة أو مثيرة للأحلام ولكنها كانت تأخذ بخناقها كالكابوس · كانت حملا ثقيلا لا يتزحزح كأنها تؤمنها أو تعارضها وترفض أن تكون لها بها أية

علاقة · كانت تبدو وكأنها تقول لها : لازلت تنتمين الينا· حتى الشتلات الصغيرة والطيور المهيضة الجناح والحيوانات كانت تنظر اليها ـ أو هكذا خيل لها ـ نظرة خالية من الثقة بل وعدائية · كانت تشعر بالخجل من مشاعرها · وكانت تقول لنفسها : هنا بيتى وأسرتى ووطنى · ولكنها كانت تسمع صوتا آخر يردد : كلا لم يعد هذا الوطن وطنك ولم تعد هذه الاسرة أسرتك وغلبها الخوف وكان خوفها يزهق أنفاسها · لقد بدأت متاعبها ولكنها كانت فاقدة الصبر ·

واحتاجت الى فترة لكى تستجمع قواها ·· ومر أسبوع وأسبوع آخر حتى تمكنت يلينا من استعادة بعض هدوئها وتعودت وضعها الجديد كتبت خطابين قصيرين لانزاروف ووضعتهما بنفسها فى صندوق البريد لأنها بدافع من الخجل والكبرياء لم تأمن الخادم عليهما ·· وكانت تتوقع زيارة قريبة من انزاروف ولكن ستاكوف جاء بدلا منه فى صباح أحد الايام ·

- ٢٢ -

لم يسبق لأحد فى منزل الضابط المتقاعد ستاكوف أن رآه متجهما ورغم ذلك كان يبدو عليه الاعتداد بالنفس فى ذلك اليوم الى حد كبير · فقد دخل الى حجرة الجلوس

بخطى وئيدة وهو يرتدى معطفه وقبعته · ثم اقترب من المرآه وأخذ يتفرس فى وجهه فى جد وهدوء وهو يهز رأسه ويعض على شفتيه · وقابلته أنا فاسيليفنا بانفعال خارجى وسرور خفى · ولم يهتم بأن يخلع قبعته أو بأن يحييها وسمح ليلينا وهو صامت أن تقبل قفازه · وسألته أنا فاسيليفنا بعض الأسئلة عن الادوية التى يستعملها ولكنها لم تتلق منه جوابا ·· ثم جاء بوفار ايفانوفتش فنظر اليه ستاكوف وقال له :

ـ مرحبا ·· كان يعامل بوفار ايفانوفتش ببرود وغطرسة رغم علمه انه كانت تجرى فى عروقه آثار من دماء عائلة ستاكوف ، وكل العائلات الارستقراطية الروسية تعتقد ان لها صفات معينة متوارثة · ودخلت زويا وانحنت لستاكوف الذى جلس على أحد المقاعد وبعد أن طلب فنجانا من القهوة خلع قبعته أخيرا وأخذ ينظر للحاضرين واحدا بعد الآخر ثم أمرهم بالفرنسية : « اخرجوا من فضلكم والتفت الى زوجته وقال لها بالفرنسية :

ـ أما أنت يا سيدتى فأرجوك أن تجلسى ··

وخرج الجميع ماعدا أنا فاسيليفنا التى جعل رأسها يهتز من الانفعال وقد أدهشتها هيئة الجد والاهتمام فيه · كانت تنتظر منه شيئا غير عادى ·· وتساءلت بمجرد أن أغلق الباب ··

ـ ماذا هناك ؟

فنظر ستاكوف اليها بغير اكتراث ثم قال :

ـ ليس هناك شىء ذو أهمية خاصة · ولكن لم تلعبين دائما دور الضحية ؟ لقد أردت فقط أن أنبهك الى أن ضيفا جديدا سيحضر لتناول الغذاء معنا ·

ـ ومن يكون ؟

ـ يجوز اندريفتس كورنا توفسكى ·· انت لا تعرفينه · انه السكرتير الاول فى مجلس الشيوخ ··

ـ وهل سيأتى لتناول الغداء ؟

ـ نعم ·

ـ وهل أمرت الجميع بمغادرة الحجرة لمجرد أن تخبرنى بهذا ؟

وهنا نظر اليها ستاكوف بتهكم وأضاف :

ـ وهل يدهشك هذا ؟ هناك مفاجأة أكبر فى الطريق ··

وصمت قليلا والتزمت أنا فاسيليفنا هى الأخرى الصمت ·· ثم قطعته قائلة :

ـ أحب ···

فقاطعها فجأة وقال :

ـ أعرف انك تعتبريننى رجلا لا أخلاق له ·

فقالت مأخوذة :

ـ أنا ؟

فاستطرد :

ـ قد تكونين على حق ٠٠ أنا لا أنكر انه كان لديك ، أحيانا ، من الأسباب مايبرر تذمرك ٠٠ تذكرت موضوع الحصانين ، ولكنها قالت :

ـ ولكننى لا ألومك اطلاقا يا نيكولاى ارتيمفيتش ٠

فقال لها :

ـ ممكن وعلى أى حال فاننى لا أحاول تبرير سلوكى ولكن الوقت هو الذى سيتكفل بهذه المهمة ٠ أؤكد لك اننى أعرف التزاماتى كما اننى قادر على رعاية مصالح الأسرة التى أنا ربها ٠

فقالت أنا فاسيليفنا فى نفسها :

ـ ما الذى يجول بخاطره ؟ لم تكن تعرف أن مناقشة حامية قد قامت في اليوم السابق فى أحد أركان احدى الحجرات بالنادى الانجليزى حول عدم قدرة الروس على القاء الخطب حيث قال أحد المتناقشين : من منا يستطيع أن يتكلم ؟ اعطنى ، ان استطعت اسما واحدا لا أكثر لشخص يستطيع أن يلقى خطابا ٠٠ فرد عليه شخص آخر قائلا : ما اعتراضك على ستاكوف ؟ وأشار شخص ثالث الى ستاكوف الذى أخذ يعبر عن سروره بشتى الطرق ٠٠

واستمر ستاكوف فى حديثه فقال : لنتحدث عن ابنتى يلينا مثلا ٠٠ ألا ترين أن الوقت قد حان لكى تبدأ السير بقدم ثابتة فى طريق الزواج ليس هناك ضرر من

التفلسف ولا من القيام بأعمال البر والاحسان ولكن الى حد محدود والى سن معينة ٠ ولكن حل الوقت لكى تخرج من هذا الجو الذى تعيش فيه وتنسحب من صحبة هؤلاء الفنانين والطلبة ، وتصبح كغيرها من الناس ٠

فسألته أنا فاسيليفنا :

ـ ماذا تعنى ؟

فأجاب :

ـ أرجو أن تعطينى الفرصة لأنتهى من حديثى ٠٠ أريد أن أخبرك دون لف أو دوران اننى تعرفت على شاب اسمه السيد كورناتوفسكى أود أن أزوجه ابنتى ٠ أعتقد أنك عندما ترينه سوف لا تتهمينني بالتحيز أو التسرع فى الحكم ٠٠ كان ستاكوف معجبا بفصاحته ٠٠ وأضاف : لقد تلقى قدرا ممتازا من التعليم ـ فهو محام ، حسن الأخلاق، وقد بلغ الثالثة والثلاثين من عمره ويعمل سكرتيرا أول ، ومستشارا قانونيا كما أنه يحمل وسام سانت ستافيسلاس ٠ أعتقد أنك لن تبخلى على بما أستحقه من ثناء حين تعترفين أننى لست من الآباء الذين يغضون النظر عن نواحى الامتياز ٠ لقد قلت لى مرة ان يلينا نيكولايفنا تفضل الرجال الذين يتميزون بايجابية رجال الأعمال ولا شك أن يجور اندريفتش رجل ممتاز فى مجاله٠ كذلك فان ابنتى مهتمة بالأعمال الخيرية ٠٠ لذلك فعندما يصبح يجور اندريفتش رجلا ذا مركز ٠٠٠ أنت تفهميننى أليس كذلك ؟ ذا مركز يسمح له بأن يعيش معتمدا على

ايراده فانه سيتنازل لاخوته عن المساعدات السنوية التى يدفعها له والده ·

فتساءلت :

ـ وما عمل والده ؟

ـ والده ؟ والده رجل مشهور أيضا ويستمتع بصفات خلقية ممتازة · ضابط متقاعد على ما أعتقد وهو يشرف على ادارة كل ممتلكات الكونت « ب » ·

فقالت أنا فاسيليفنا فى دهشة :

ـ أوه !

قال لها ستاكوف :

ـ أوه ؟ ماذا تعنين بقولك أوه ؟

فقالت أنا فاسيليفنا :

ـ ولكننى لم أقل شيئا ·

ـ كلا ·· لقد قلت « أوه » · لقد رأيت على أى حال أن أطلعك على نواياى مقدما · وأنا أثق أن السيد كورناتوفسكى سوف يستقبل استقبالا وديا ·

ـ بالطبع ·· يجب أن نخطر فانكا الطباخ بأن يعد طبقا اضافيا ·

ـ أنا لا أحب أن أتدخل فى هذا ·

ثم قام ولبس قبعته وخرج الى الحديقة ليتنزه قليلا وهو يصفر بفمه · ونظر اليه شوبين من نافذة حجرته وأخرج لسانه ··

وفى الرابعة الا عشر دقائق وقفت عربة أمام بيت ستاكوف ونزل منها شاب أنيق يرتدى ملابس بسيطة ولكنها تنم عن ذوق سليم وطلب أن يعلن عن وصوله · كان الزائر هو يجور اندريفتش ·

وفيما يلى ماكتبته يلينا لانزاروف فى اليوم التالى :

تستطيع أن تهنئنى يا عزيزى دمترى ، فقد تقدم الى أحد الخطاب لقد تناول معنا طعام الغذاء بالأمس · كان والدى قد التقى به فى النادى الانجليزى على ما أعتقد · لم يحضر بالأمس ، طبعا ، على انه خطيب ولكن والدتى التى أسر لها والدى بأمله أطلعتنى على السر · اسمه يجور اندريفتش كورناتوفسكى · انه السكرتير الأول فى مجلس الشيوخ · وسأصف لك شكله · قصير بعض الشىء ـ فهو اقصر منك ـ قوى البنيان متناسق التقاطيع ذو شعر قصير · عينان صغيرتان (كعينيك) عسليتان وشفتان غليظتان وهناك ابتسامة لا تفارق شفتيه وفى عينيه كأنها تؤدى عملا هناك · بسيط يتحدث بوضوح وكل ما فيه متميز : يسير ويضحك ويأكل وكأنه يعمل · ربما قلت لنفسك « لقد درسته جيدا » · نعم ·· درسته جيدا لكى أتمكن من وصفه لك وعلاوة على ذلك فلابد للانسان أن يعرف خطيبه · وهناك شىء كالحديد فيه ـ شىء كئيب وسطحى ـ يقولون عنه انه مخلص · انت أيضا تشبه الحديد ولكنه شبه مختلف · وقد جلس الى جوارى أثناء الغذاء وجلس شوبين فى مواجهتنا · وجرى الحديث فى

اول الأمر حول المشروعات التجارية وأعتقد انه يعرف الكثير عنها ، لقد ترك العمل فى الوظائف الحكومية ليدير مصنعا كبيرا • ثم تطرق السيد شوبين بعد ذلك بالحديث الى ذكر المسرح • وصرح المستر كورناتوفسكى •• دون تواضع مفتعل – ان الفن بالنسبة له يعتبر كتابا مغلقا • وذكرنى ذلك بك ولكننى قلت لنفسى « دمترى وأنا نجهل الفن ولكن على نحو آخر » كان هذا الرجل يبدو وكأنه يقول : اننى لا أعرف شيئا عن الفن وهو شىء لا لزوم له ، ولكن من الممكن أن يسمح به فى دولة جيدة التنظيم • وعلى كل يبدو انه لا يفكر كثيرا فى بطرسبرج بل لقد وصف نفسه بأنه بروليتارى فقال : نحن لسنا أكثر من عمال • وقلت لنفسى : لو أن دمترى قال ذلك لما أعجبنى ولكننى لا أهتم بما يقوله هذا الرجل ولا يهمنى أن يتباهى بنفسه • كان مجاملا الى حد كبير ولكننى كنت أشعر رغم ذلك ان محدثى شخص مترفع • وعندما يريد أن يمتدح شخصا فانه يقول ان فلانا « له مبادىء » وهى جملة من جمله المفضلة • واثق من نفسه ، كثير الانتاج ، فيما يبدو ، ولديه مقدرة على التضحية أى التضحية بمصالحه الخاصة ولكنه طاغية كبير • ولا شك أن من الأمور السيئة جدا أن يقع الانسان بين يديه • وقد تطرق الحديث أثناء الغداء عن الرشوة فقال :

– أعتقد أن المرتشى غير ملوم فى كثير من الحالات لانه ليس فى وسعه أن يفعل غير ذلك •• ورغم ذلك فانه اذا قبض عليه متلبسا فلابد أن يسحق •

فصدرت عنى صرخة •• وقلت :

– يسحق •• وهو البرىء !

فقال :

– نعم •• تمشيا مع المبدأ •

فقال له شوبين :

– أى مبدأ ؟

وهنا اعترى كورناتوفسكى شىء من الدهشة ••

فقال :

– ليس هناك ما يدعو لتوضيح هذا •

وهنا قال أبى الذى كان يشعر نحوه باحترام شديد انه يعتقد فعلا انه لا لزوم لذلك وصرف النظر عن الموضوع• وفى المساء حضر برزنيف وأثار معه مناقشة رهيبة • لم أر فى حياتى أندريا بتروفتش ثائراً بهذا الشكل • ولم ينكر السيدكورناتوفسكى أهمية العلوم والجامعات وفائدتها ولكننى كنت أعرف السبب فى ثورة السيد أندريا بتروفتش فان الآخر كان يعتبرها شيئا كماليا • وقد جاء لى شوبين بعد الغداء •• وقال : هذا الرجل والرجل الآخر (انه لا يتحمل أن يذكر اسـمك) كلاهما رجل عملى ولكنهما مختلفان • فالعمل بالنسبة لأحدهما مثل أعلى وأصيل تمده به الحياة نفسها بينما هو بالنسبة لهذا الرجل أمر يتوقف على أمانة الموظف • انه كفاءة بلا روح •

ان شوبين لماح ذكى وقد ذكرت لك ما قاله ولكننى

فى الحقيقة لا أظن ان هناك أى تشابه بينكما • فأنت تؤمن أما هو فلا يؤمن ، والانسان لا يجب أن يؤمن بنفسه فقط • وقد غادرنا الزائر فى ساعه متاخرة وحاولت والدتى أن تفهمنى انه أعجب بى وان أبى مسرور بذلك ولا أدرى ان كان قد قال عنى أنا الاخرى اننى ذات مبادىء • وقد هممت بأن أقول لوالدتى اننى اسفه لان لدى زوجا بالفعل • لا أدرى لماذا لا يحبك والدى • أما والدتى فمن الممكن اقناعها بطريقة أو بأخرى •

لقد وصفت لك ياعزيزى هذا الرجل بهذه التفاصيل لكى أتغلب على حزنى • لا حياة لى بدونك وأنا أراك وأسمعك دائما • اننى فى انتظارك ولكن ليس فى هذا المنزل كما اقترحت ـ ويمكنك أن تتخيل مدى ما يسببه هذا لنا من صعوبة وألم ـ ولكن فى ذلك المكان الذى كتبت لك عنه ـ ذلك الكوخ • ياعزيزى ، كم أحبك ••

- ٢٣ -

بعد ثلاثة أسابيع من زيارة كورنا توفسكى الاولى عادت أنا فاسيليفنا الى موسكو • الى بيتها الخشبى الكبير بالقرب من شارع بريتشيستينكا وهو بيت ذو أعمدة تعلو نوافذه الازهار وبه حجرة صغيرة فوق السطح واستراحات وحديقة أزهار وفناء كبير زرعت فيه الاشجار وبئر فى

الفناء الخارجى وكوخ للكلب بالقرب من البئر • لم يحدث أن عادت أنا فاسيليفنا الى المدينة بهذه السرعة • ولكن برد الخريف أصابها بوعكة صحية • وقد افتقد ستاكوف زوجته بعد أن انتهى من العلاج لا سيما وأن أوجاسيتا كريستيانوفا كانت قد رحلت الى ريفال لزيارة بعض أقاربها • وكانت قد وصلت الى موسكو فرقة أجنبية قدمت عروضا مثيرة أثار وصفها فى الصحف حب استطلاع أنا فاسيليفنا • وباختصار فان البقاء فى الريف أكثر من ذلك لم يعد مرغوبا فيه ولم يعد يتفق مع ما أطلق عليه ستاكوف وصف «مشروعاته» • أحست يلينا ان الاسبوعين الاخيرين كانا طويلين جدا • وقد زارهم كورنا توفسكى مرتين فى يومين من أيام الآحاد لانشغاله باقى الايام • ومع انه كان يأتى لزيارة يلينا الا أن معظم حديثه كان مع زويا التى أعجبت به كثيرا •

كانت زويا على ثقة ـ انه ليس هناك من له صوت كصوته الرائع وهو يتحدث •

أما انزاروف فانه لم يذهب لزيارة عائلة ستاكوف ولكن يلينا قابلته خفية فى كهف صغير يطل على النهر ولم يسمح لهما الوقت الا بتبادل بضع كلمسات • وقد عاد شوبين الى موسكو مع انا فاسيليفنا ثم تبعهم برزنيف بعد بضعة أيام •

كان انزاروف يجلس فى حجرته وهو يقرأ للمرة

الثالثة خطابات وصلته من بلغاريا مع بعض الرسل العابرين حيث أنه لم يكن من المرغوب فيه استعمال البريد. وأزعجته الخطابات فقد تحولت الاحداث في الشرق تحولا سريعا • كان احتلال القوات الروسية لمقاطعة الدانوب قد سبب قلقا عاما وكانت العاصفة تتجمع كما أصبحت الحرب وشيكة الوقوع • كانت الحرائق تندلع فى كل مكان ولم يكن هناك من له القدرة على تعرف الاتجاه الذى ستتخذه النيران ولا الى أين ستنتهى وظهرت الاحقاد القديمة كما ظهرت الآمال القديمة مرة أخرى • وأخذ قلب انزاروف يدق بعنف متزايد • ان آماله فى طريق التحقيق ولكنه تساءل في قلق : ألم يزل الوقت مبكرا ؟ وما الذى يحدث اذا فشلت الخطة ؟ اننا لم نستعد بعد • ولكن ليكن ما يكون • لا بد أن أذهب • ثم سمع وقع اقدام في الممر وفتح الباب ودخلت يلينا فاندفع اليها انزاروف وقد أخذته رعشة من رأسه الى قدميه • وركع على ركبتيه أمامها ولف ذراعيه حول وسطها وضغط برأسه على جسدها •

وقالت له وهي تلهث : -

ـ لم تكن تتوقع مجيئي اليس كذلك ؟ ثم وهي تضع يديها على رأسه وتنظر حولها : هذا اذن مسكنك ياعزيزى! لم أجد صعوبة في الاستدلال عليك فقد دلتنى ابنة صاحب البيت على الطريق • لقد عدنا منذ أيام وفكرت فى الكتابة اليك ولكننى غيرت رأيى وفضلت أن أحضر لرؤيتك •

لا أستطيع البقاء أكثر من ربع ساعة انهض واغلق الباب بالمفتاح • فقام وأغلق الباب بخفة ثم عاد اليها وأمسك يديها ولكنه لم يستطع أن يتحدث من فرط ما غمره من سرور •

ونظرت الى عينيه وهى تبتسم ورأتهما تفيضان بالسعادة •• فقالت له بلطف وهى تسحب يديها :

ـ انتظر • دعنى أخلع قبعتى ••

وفكت شرائط قبعتها والقت بها بعيدا كما نزعت الشال الذى كان يغطى كتفيها وجلست على الاريكة الصغيرة • ولم يتحرك انزاروف بل أخذ ينظر اليها مأخوذا•

فقالت له وهى تشير الى المكان المجاور لها ولكن دون أن تنظر اليه : اجلس ••

وبدلا من أن يجلس على الاريكة جلس على الارض عند قدمها •

وقالت له بصوت مرتعش وقد بدأت تشعر بالخوف :

ـ انزع عنى هذا القفاز •

ففك أزرار القفاز وبدأ ينزعه • وعندما تبدت أصابعها ألصق شفتيه باليد الرقيقة ••

ففزعت يلينا وحاولت أن تبعده عنها برفق بيدها الاخرى ، ولكنه بدأ يقبلها • فسحبتها يلينا ثم ألقى هو برأسه الى الخلف ، ونظرت هى فى وجهه وانحنت الى الامام

والتقت شفتاهما .. ومضت لحظة ثم ابتعـــدت عنه وهى تهمس قائلة : كلا ! كلا ! ثم اتجهت بسرعة الى المـائدة وقالت :

ـ أنا سيدة هذا المكان ـ أليس كذلك ؟ يجب ألا تخفى عنى أى شىء .

ثم أدارت له ظهرها .. وقالت :

ـ ما أكثر الاوراق التى لديك . وما هذه الخطابات ؟

فقطب انزاروف ما بين حاجبيه وقال وهو ينهض :

ـ الخطابات ؟ تستطيعين قراءتها .

فقلبتها يلينا فى يديها ثم قالت :

ـ انها كثيرة جدا كما انها مكتوبة بخط بالغ الدقة لا بد أن أنصرف سريعا . سأترك هذه الخطابات وأرجو ألا تكون قد تلقيتها من منافسة لى . لم لا أراها مكتوبة باللغة الروسية ؟

واقترب منهـــا انزاروف ومس خصرها فاستدارت بسرعة وابتسمت له ابتسامة تفيض بالسعادة واتكأت على كتفه .

قال لها :

ـ هذه الخطابات من بلغـاريا يايلينا .. أصدقائى يستدعوننى .

ـ يستدعونك الآن ؟

ـ نعم الآن ولا يزال هناك متسع من الوقت والطريق لا يزال مفتوحا .

وفجأة ألقت ذراعيها حول عنقه وقالت :

ـ ستأخذنى معك أليس كذلك ؟

فضمها الى صدره .. قائلا :

ـ يا فتاتى الرائعة . يابطلى . ما أحلى هذه الكلمات التى خرجت من ثغرك . ولكن أليس من الاجرام ومن الجنون ان أجرك وأنا رجل ضال وحيد ـ معى الى مكان كهذا .

فاغلقت فمه بيدها وقالت :

ـ صه ! والا سأغضب منك ولا أعود . ألم نتفق ؟ ألم نسو كل شىء بيننا ؟ ألست زوجتك ؟ وهل هناك زوجة تتخلف عن زوجها ؟

فقال لها :

ـ الزوجات لا يذهبن للاشتراك فى الحرب .

ـ هذا اذا كان من الممكن أن يبقين فى البيت . ولكن كيف أستطيع البقاء هنا ؟

ـ انت ملاك يايلينا . ولكن يجب ألا تنسى أننى قد أضـطر لمغـــادرة موسكو ـ خلال أسبوعين . ان حضور المحاضرات فى الجامعة أو انهاء مهمتى هنا أصبحت أشياء لا مجال للحديث فيها الآن ..

فقاطعته يلينا قائلة :

ـ تقول انك لا بد أن ترحل سريعا هل تريدنى أن أبقى معك من هذه اللحظة والى الأبد والا أعود لبيتى ابدا؛ لنســافر الان اذا أردت فضمها انزاروف أ لثر الى صدره وقال لها :

ـ ليعــاقبنى الله اذا ارتكبت معصية • ومنذ الآن فنحن مرتبطان الى الابد •

وسألت يلينا :

ـ هل أبقى ؟

فقال :

ـ كلا يا فتاتى الطاهرة • لابد أن تعودى الى البيت• ولكن كونى على اســتعداد • لن نســتطيع تسوية هذا الموضوع بهذه السرعة بل لا بد لنا أن نفكر فى كل شىء ونحن نحتاج لجوازات سفر ولنقود ••

قالت يلينا :

ـ لدى بعض النقود • ثمانون روبلا ••

فقال انزاروف :

ـ هذا ليس مبلغا كبيرا على أن من الممكن تدبير أمر النقود •

ـ اننى أستطيع الحصول على قدر أكبر من المال • ويمكننى أن أقترض أو أن أطلب من والدتى بعض المال • كلا لن أطلب منها شيئا ولكننى أستطيع ان أبيع ساعتى• كما ان عندى قرطا وسوارين واشياء أخرى ثمينة •

ـ النقود ليست هى المشكلة يايلينا •• المشكلة فى جواز سفرك •

ـ صحيح • ولــكن أمن الممكن بالنسبة لى الاستغناء عن جواز السفر ؟

ـ كلا بالطبع •

فضحكت يلينا وقالت : تذكرت شيئا • فعندما كنت فتــاة صغــيرة هربت خادمتنا ولكن أمكن القبض عليها وصفحنا عنها ، وعاشت معنا فترة طويلة بعد ذلك • رغم هذا كنا نطلق عليها اسم تاتيانا الهاربة ولم يخطر لى فى ذلك الوقت أننى قــد أكون أنا الاخرى هاربة مثلها ذات يوم •

ـ الا تشعرين بالخجل من نفسك يا يلينا ؟

ـ ولماذا أخجل من نفسى ؟ لا شك انه من الأفضل أن يكون لدى جواز سفر • ولكن اذا لم استطع الحصول على جواز ••

فقال :

ـ سنهتم بهذه المسألة فيما بعد • اعطنى فرصة لكى أدرس الموقف وأفكر فى الموضوع • سوف نناقش كل شىء بالتفصيل أما فيما يختص بالنقــود فان لدى بعض المال •

وهنا رفعت يلينــا خصلة الشــعر التى تدلت على جبهته ثم قالت له :

ـ أوه يا دمترى ! ستكون متعة أن نسافر معا ٠

فقال انزاروف :

ـ نعم ولكن عندما نصل هناك ـ

فقاطعته يلينا قائلة :

ـ الا يكون موتنا معا هو الآخر متعة ؟ ولكن لماذا نتحدث عن الموت ؟ سنعيش ، فنحــن لا نزال فى شرخ الشباب ٠ كم عمرك ؟ ألست فى السادسة والعشرين ؟

ـ نعم ٠

ـ انى فى العشرين ٠ ولا يزال أمامنا وقت طويل ٠ كنت تريد أن تهرب منى أيها البلغــارى ٠ لم تكن تريد حبيبة روسية ٠ والآن أرنى كيف تستطيع أن تتخلص منى ٠ ولكن ما الذى كان سيحل بنا لو لم أخرج لمقابلتك فى ذلك اليوم ؟

ـ هل تعلمين ما الذى جعلنى اتركك ؟

ـ نعم ٠ كنت خائفا من حبيبتك ٠ ولكن ألم يكن لديك احساس انها هى الاخرى تحبك ؟

ـ كلا واقسم على هذا بشرفى ٠

فقبلته قبلة خاطفة على غير انتظار وقالت :

ـ هذا هو ما جعلنى أحبك ٠ والآن الى اللقاء ٠٠

فقال لها انزاروف :

ـ ألا تستطعين البقاء أكثر من ذلك ؟

ـ كلا يا عزيزى ٠ هــل تعتقد ان خروجى بمفردى كان أمرا سهلا ؟ لقد انقضى ربع الساعة منذ مدة ٠ ثم وضعت شالها على كتفيها ولبست قبعتها وقالت له :

ـ تعال لزيارتنا مساء الغد ـ أو لعــل الافضل أن تحضر بعد غد ٠ ستكون زيارة ثقيلة لا بهجة فيها ولكننا على الاقل سنرى أحدنا الآخر ٠ والآن الى اللقـــاء ودعنى أخرج ٠ واحتواها بين ذراعيه مرة أخيرة ٠٠ فقالت له : لقد قطعت عقدى ياعزيزى ولكن لا يهمك فهذا أحسن لاننى ساذهب الى كوزنتسكى لاصلاحه ٠ واذا سألونى أين كنت فسأقول اننى ذهبت اليه لاصلاح العقد ٠ ثم مدت يدها وأمسكت مقبض الباب وقالت :

ـ نسيت أن أخبرك ان الســيد كورناتوفسكى قد يأتى قريبا ليطلب يدى ولكنه لن ينال مايريد ٠ الى اللقاء٠ اننى الآن أعرف الطريق لا تضيع وقتك ٠

ثم فتحت يلينا الباب قليلا وانصتت ثم التفتت الى انزاروف وحيته برأسها وانسلت خارجة ٠٠

ووقف هو أمام الباب المغلق لحظة وهو ينصت حتى سمع الباب الخارجى يغلق فسار عائدا الى الاريكة وجلس وغطى عينيه بيديه ٠ انه لم يمر بمثل هذه التجربة طوال حيــاته ٠ وقال لنفسه : ما الذى فعلته أنا لأستحق هذا الحب ؟ أو لعلى فى حلم ؟

ولكن رائحــة عطر الياسمين الذى تركته يلينــا فى

حجرته الصـــغيرة المعتمة ظلت تذكره بزيارتهـا وبصوتها الرقيـــق وبخطواتها الوئيـــدة وبدفء جســـدها الشاب ونضرته ٠

- ٢٤ -

قـــرر انزاروف أن ينتظر حتى يحصل على معلومات أكثر دقة ، ولكنه كان فى نفس الوقت يعد العدة للرحيل٠ لم يكن شيء يقف فى طريقه فما كان عليه الا أن يقدم طلبا للحصول على جواز سفر ولكن ماذا يفعل بخصوص يلينا ؟ كان من المتعـــذر الحصول لهـا على جواز سفر بالطريقة القانونية : وسأل نفسه : هل يتزوجها فى السر ثم يذهب الى والديها وهل سيصرحان لنـا بالسفر ؟ ولكن ما الذى يحدث اذا لم يصرحا ؟ سنسافر رغم ذلك ٠ ولكنهما قـد يقدمان شكوى للسلطات٠٠ من الافضل أن أحاول الحصول على جواز سفر بطريقة أو أخرى ٠

وقـــرر أن يستشير أحد معـــارفه ، وهو من رجال القانون المتقـــاعدين وخبير بمثل هذه المسائل ودون ذكر أسماء ٠ كان هذا الرجل يعيش فى منطقة بعيدة استغرق وصول انزاروف اليها ساعة كاملة ٠ ولكنه لم يجده فى بيته ٠ تعرض انزاروف عند عودته لمطر غزير بلل ملابسه٠ وكرر نفس المحاولة فى اليوم التـــالى رغم شعوره بصداع

شديد وتمكن من مقابلة الرجل الذى انصت إليه باهتمام وكان ينظر اليه من ان لاخر بعينين صـــغيرتين ماكرتين ٠ وبعد أن استمع اليه جيدا طلب منه تفاصيل أكثر ٠ ولكنه لما لمس عدم استعداد انزاروف للادلاء بأية تفاصيل نصحه بان يتزود بقدر كبير من المال ويحضر لزيارته مرة أخرى عندما يكون « أكثر ثقة وأقل شكا » أما جواز السفر فقد قال عنه انه شيء من صنع الانسان ٠ ثم قال لنفرض ان هناك سيدة مسافرة فمن الذى يســـتطيع أن يعرف ما اذا كانت هى ماريا يريد كينا أو كارولين فوجلمير ٠ وشـــعر انزاروف بالاشمئزاز ولكنه شـــكر الرجل ووعده بالعودة خلال يومين ٠

وزار انزاروف بيت ســـــتاكوف فى هذا المســـاء ٠ ورحبت به انا فاسيليفنا ولكنها عاتبته لانه نسيهم ٠ ولما رأت وجهه شاحبا سألته عن صـــحته ٠ أما ستاكوف فلم ينبس بكلمة بل ظل ينظر اليه فى شيء من التعجب ٠ وأما شـــوبين فلم يعبأ به ٠ ولكن يلينا أدهشته ٠ كانت فى انتظاره وقد ارتدت من اجله ذلك الرداء الذى كانت ترتديه يوم أن تقابلا فى الكوخ ولكنها حيته باتزان كمـــا اظهرت ظرفا ومرحا ولم يكن أحد يشك ان مصيرها قد تحدد وأن الحيوية التى اكتست بها ملامحها والخفة والسحر الباديين فى كل حركاتها كانت كلهـــا نتيجة لاحساس خفى بالحب السعيد ٠ وقامت يلينا بتوزيع الشاى بدلا من زويا٠ كانت تضحك وتتحدث ٠ وكانت تعلم ان شوبين يراقبها وان

برژنيف لايمكنه أن يتظاهر بعدم الاهتمام • وكان تخمينها صحيحا فقد ظل شوبين يراقبها بينما كان برزنيف منحرف المزاج قليل الكلام طوال المساء • وكانت يلينا فى حالة من السعادة جعلتها تفكر فترة فى مداعبته • فسألته فجأة :

ـ ما الذى حدث لمشروعك؟ هل احرزت فيه أى تقدم؟

ففوجىء انزاروف وقال :

ـ أى مشروع ؟؟

فقالت وهى تضحك فى وجهه ضحكة من ضحكاتها التى لم يكن يعرف معناها الا هو ••

ـاعنى كتاب القراءة الذى تنوى عمله باللغة البلغارية للروس •

فتمتم قائلا بالفرنسية :

ـ يالها من دعابة !

وجلست زويا أمام البيانو • واشارت يلينا الى الباب بعينيهــا تطلب الى انزاروف ان ينصرف • ثم دقت على المنضدة • دقتين خفيفتين باصبعها ونظرت اليه ففهم انها تسعى للقائة بعد يومين وابتسمت عندما تبينت انه فهم • ونهض انزاروف لكى يخرج متذرعا ببعض التعب • وهنا حضر كورنا توفسكى ، فقفز ستاكوف من مكانه وصافحه باحترام بالغ • ورأى انزاروف أن يبقى بضع لحظات ليرى غريمه • ولم ير صاحب المنزل ما يستدعى تقــديم

الرجلين أحدهما للآخر وخرج انزاروف بعد أن تبادل نظرة أخيرة مع يلينا • وجلس شوبين يفكر برهة ثم بدأ مناقشة عنيفة مع كورنا توفسكى حول مشكلة قانونية لا يعرف عنها شيئا •

لم يذق انزاروف النوم فى تلك الليلة وأحس بالتعب فى الصباح •• ورغم ذلك فقد جعل ينظم أوراقه ثم كتب عددا من الخطابات رغم انه كان يشعر بثقل فى رأسه وبشىء من الاضطراب •

وعندما حلت الظهيرة كانت الحمى قد تملكته فلم يستطع أن يتناول الطعام • وباقتراب الليل زادت حالته سوءا كما هاجمته الام روماتزمية بعنف • فضــلا عن الصداع الذى لا يطـاق • ورقــد على الأريكة حيث كانت يلينا تجلس منذ يومين وقال لنفسه : اننى أستحق هذا فقد أخطأت بالذهاب الى ذلك الأفاق • وحاول أن ينــام ولكن دون جدوى •• أخذت عروقه تدق بشدة وكاد الدم يغلى فى عروقه وفى غمرة من الأفكار غير المستقرة فقد وعيه • كان يرقد مســتلقيا على ظهره وكأنه تحت ثقل كبير • وخيل اليه أنه يسمع شخصا يضحك ويهمس فوق رأسه ففتح عينيه ولكن ضوء الشمعة اذى عينيه • خيل اليه انه يرى رجل القانون العجوز فى رداء حريرى كما رآه فى اليوم السابق وهو يقول : « كارولين فوجلمير » • وعندما دقق انزاروف النظر فيه اخذ الرجــل ينتفخ ثم

تحول الى شجرة خيل اليه أنه يتسلق جذعها المائل . وتسلقها وهو يمسك بفروعها ولكنه سقط وارتطم صدره بصخرة على الأرض ، بينما كانت كارولين فوجلمير فى شكل بائعة فى السوق تجلس على الأرض وهى تقول : فطائر ! فطائر ! فطائر ! ثم اندفع الدم الى رأسه ورأى وميضا أمام عينيه وصاح قائلا : يلينا ـ ثم غاب عن وعيه .

- ٢٥ -

فى مساء اليوم التالى جاء خادم برزنيف لسيدة وقال له :

ـ بالباب شخص يبدو عليه مظهر الحداد يريد مقابلتك .

فقال له برزنيف .

ـ دعه يدخل .

ودخل الرجل وعرف برزنيف انه صاحب الحجزة التى يسكنها انزاروف ..

فسأله برزنيف .

ـ ماذا وراءك ؟

فقال الرجل وهو يتحدث ببطء وينقل ثقله من قدم الى أخرىويحرك يده اليمنى :

ـ لابد أن أتحدث اليك يا سيدى . اننى لا أدرى ما الذى حل بالساكن الذى يسكن عندى ـ انه مريض جدا .

ـ تعنى انزاروف ؟

ـ نعم يا سيدى . فقد ظل مستيقظا طوال الليل حتى الصباح وعند المساء طلب كوبا من الماء وقد اعطته زوجتى الماء ولكنه بدأ يهذى فى الليل وكنا نسمع هذيانه. اما هذا الصباح فقد كف تماما عن الكلام ورقد بلا حراك وقد ارتفعت درجة حرارته كثيرا . فقلت لنفسى ان هذا الرجل قد يموت فى أى لحظة ومن الافضل اخطار البوليس لأنه وحيد . ولكن زوجتى طلبت منى أن أحضر اليك لاخطارك فحضرت اليك يا سيدى لاننا لا نستطيع ـــ .

فخطف برزنيف قبعته ووضع روبلا فى يد الرجل واسرعا سويا الى حجرة انزاروف .

ووجدا انزاروف فاقد الوعى راقدا ببدلته على الاريكة وقد تغير وجهه تغيرا كبيرا فطلب برزنيف الى الرجل وزوجته ان يخلعا ملابس انزاروف ويحملاه الى فراشه واسرع هو بالخروج لاحضار الطبيب الذى جاء ووصف له العلاج اللازم .

ساله برزنيف :

– هل الحالة سيئة ؟

– فاجاب الطبيب : نعم ، سيئة جدا ، انه مصاب بالتهاب رئوى حاد وقد يؤثر هذا على عقله . وقد ارسلتم فى استدعائى متأخرين ولكننى سأفعل كل ما فى مقدورى .

وبقى برزنيف الى جواره طول الليل . واظهر صاحب البيت وزوجته كثيرا من الطيبة والاستعداد لمد يد العون .

استرد انزاروف وعيه فى الصباح بضع دقائق . وتعرف على برزنيف وساله قائلا : انا مريض ، اليس كذلك ؟ ونظر حوله نظرات زائغة ثم راح فى غيبوبة . وعاد برزنيف الى بيته واغتسل ثم اخذ معه بعض الكتب وعاد الى حجرة انزاروف . وقرر أن يبقى فيها بصفه مؤقتة على الأقل . وأمر بان يوضع ستار حول فراش انزاروف واعد لنفسه مكانا على الأريكة . وأخذت الساعات تمر بطيئة مملة . ولم يخرج برزنيف الا مرة واحدة ليتناول بعض الطعام . وعندما حل المساء أضاء شمعة وبدأ يقرأ . كان كل شيء هادئا فى الحجرة . وكان يسمع من خلف الستار انفاس انزاروف ثقيلة تتخللها من آن لآخر انات متقطعة . وكانت تتوالى فى رأس برزنيف أفكار غريبة . فقد كان فى حجرة رجل علقت حياته بخيط رفيع وكان موضع حب يلينا . تذكر تلك الليلة التى لحق به فيها

شوبين وأخبره انها تحب انزاروف ثم سال نفسه : والآن ماذا أفعل ؟ هل اخطر يلينا بمرضه أو انتظر ؟ هذا الخبر أسوأ من الخبر الذى نقلته اليها ذلك اليوم . ما اغرب هذا القدر الذى يضعنى بينهما .

وقرر اخيرا أن ينتظر . ووقع بصره على اكوام الأوراق المكدسة على مكتبه ، فتساءل : هل سيتمكن من تنفيذ مشروعاته ؟ ارجو الا تكون هذه نهاية كل شيء . وشعر بالأسف نحو هذا الشاب وقرر أن يفعل كل ما يستطيع لانقاذه .

وجاء الليل ثقيلا وكان المريض يهذى . واستيقظ برزنيف عدة مرات وكان يسير على اطراف أصابعه الى فراش انزاروف ويستمع الى هذيانه قال انزاروف ذات مرة بوضوح غير منتظر : اننى لا أريده ... لا أريده ... لاتفعل .

ونظر برزنيف بقلق الى انزاروف الذى تقلص وجهه من الالم . وكانت يداه ممدودتين على الفراش بلا حراك . ثم قال مرة أخرى : لا أريده .

وفى الصباح حضر الطبيب مرة أخرى ونظر الى المريض وهز رأسه ووصف دواء جديدا . ثم قال وهو يضع قبعته على رأسه وينصرف : لا يزال هناك وقت طويل حتى تنتهى الأزمة .

ثم ساله برزنيف :

ـ وماذا بعد الأزمة ؟

ـ بعد الأزمة ، اما كل شيء أو لا شيء ٠

وخرج الطبيب ٠ وأخذ برزنيف ، وقد أحس بالحاجة لبعض الهواء المنعش ، يسير فى الطريق جيئة وذهابا بعض الوقت ثم عاد الى الحجرة واستأنف القراءة ٠ كان قد انتهى من قراءة رومير من وقت طويل وأخذ يدرس جروت٠

وفجأة فتح الباب بهدوء وأطلت منه ابنة صاحب المنزل بحذر ، وقالت لقد حضرت تلك الفتاة التى اعطتنى بعض النقود منذ بضعة أيام ٠٠

وتراجعت البنت ودخلت يلينا ٠٠

فقفز برزنيف وكأن قد لدغته عقرب ولكن يلينا لم تتحرك ولم تصرخ ويبدو انها فهمت كل شيء بسرعة ٠ وعلا وجهها شحوب غريب وسارت ناحية الفراش ونظرت خلف الستار وكانت على وشك أن تندفع الى انزاروف ولكن برزنيف حال بينها وبينه ٠ وسالها فى همس : ماذا تريدين أن تفعلى ؟ انك قد تقضين عليه ٠٠ وترنحت ولكنه صحبها الى الاريكة وأجلسها ٠٠

فحملقت فى وجهه ثم نظرت الى الأرض وقالت له :

ـ هل هو يحتضر ؟

فقال لها :

ـ بحق السماوات يا يلينا كيف تقولين هذا ؟

انه مريض ومرضه خطير ولكننا سننقذه ٠ انا على ثقة من أننا سننقذه ٠٠

فسألته :

هل هو فاقد الوعى ؟

ـ نعم ٠٠ بصفة مؤقتة ، فان هذا المرض يبدأ دائما هكذا ، ولكن هذا لا يعنى شيئا ، صدقينى ٠ خذى هذا الكوب من الماء واشربى ٠ فرفعت عينيها وتنبه الى انها لم تسمعه ٠٠

ثم قالت له بنفس الصوت الهادىء :

ـ اذا مات فسأموت أنا أيضا ٠

واصدر انزاروف انينا خافتا فارتعشت يلنا وامسكت رأسها بيديها ثم بدأت تفك شرائط قبعتها ٠

وسالها برزنيف :

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ سأبقى هنا ٠

ـ الى متى ؟

ـ لا ادرى ٠ ربما ابقى حتى المساء أو حتى الصباح أو ربما الى الابد ـ لا أدرى ٠٠

ـ ارجو يا يلينا نيكولايفنا أن تفكرى فيما انت مقدمة عليه • انا طبعا لم اكن اتوقع أن اراك هنا • ولكننى اعتقد انك حضرت لزيارة قصيرة • ولا تنسى انهم قد يفتقدونك فى البيت •

ـ وماذا فى ذلك ؟

ـ سيبدءون فى البحث عنك وسيعثرون عليك •

ـ وماذا في ذلك ؟

ـ الا ترين يا يلينا نيكولايفنا انه لا يستطيع حمايتك الآن •

فطاطات راسها كانها قد استغرقت فى تفكير عميق، ووضعت منديلهاعلى شفتيها ثم انفجرت فى البكاء بشدة والقت بنفسها على الاريكة ووجهها لأسفل وهى تحاول أن تكتم صوت بكائها •• ولكن جسدها كان يهتز كله •

فقال لها برزنيف وهو يقف الى جوارها :

ـ استحلفك بالله يا يلينا نيكولايفنا •

وفجأة تردد صوت انزاروف وهو يقول : آه •• ما هذا ؟

فاعتدلت يلينا ووقف برزنيف جامدا ولكنه بعد لحظة اقترب من الفراش ورأى انزاروف يرقد كما كان وعيناه مغلقتان ••

وهمست يلينا قائلة :

ـ هل هو يهذى ؟

فاجابها برزنيف قائلا :

ـ أعتقد ولكن هذا لا يهم فهذا ما يحدث دائما وخاصة اذا •••

فقاطعته يلينا قائلة :

ـ ومتى مرض ؟

ـ اول امس ، وقد جئت الى هنا أمس ولك أن تعتمدى على يا يلينا نيكولايفنا • سوف لا أتركه لحظة واحدة وسأفعل المستحيل لمساعدته سأجمع الأطباء له فى مجلس استشارى اذا لزم الأمر ••

فقالت له :

ـ قد يموت وأنا غير موجودة •

ـ اعد بان أحيطك علما بحالته يوميا واذا وجدت أن هناك خطرا حقيقيا ـ

ـ اقسم أن ترسل فى طلبى فى أى وقت فى الليل أو فى النهار •

ويمكنك أن تكتب لى مباشرة فلم يعد هناك ما يهمنى الآن • هل تعدنى أن تفعل •

ـ أعدك • وليساعدنى الله •

ـ اقسم ·

ـ أقسم ·

وفجاة أمسكت بيده وقبل أن يتمكن من ان يسحبها قبلتها ·

فقال مأخوذا :

ـ كيف تفعلين هذا يا يلينا نيكولايفنا ؟

ـ كلا ! كلا ! لا تفعلي هذا ثم سـحب يده وتنهد تنهيدة حزينة ·

وتقدمت يلينا من الستار وهي تعض على منديلها ونظرت الى المريض طويلا والدموع تنهمر من عينيها ··

فقال لها برزنيف ·

ـ قد يفيق ويعرفك ولا يعرف الا الله ان كان هذا في صالحه أم لا ·

وعلاوة على ذلك فان الطبيب على وشك الوصول في اى لحظة ·

فالتقطت يلينا قبعتها من فوق الأريكة ولبستها ، وأخذت عيناهـا تتحولان في الحجرة بنظرات زائفة وهي نهبة للأفكار · واخيرا قالت :

ـ لا أستطيع أن أذهب ·

فضغط برزنيف على يدها وقال لها :

ـ تشجعي وهدئي من روعك · انك تتركينه في رعايتي وسأزورك مساء اليوم ·

فنظرت اليه يلينا وقالت :

ـ يا لك من صديق رائع ·

ثم خرجت وهي تبكي ··

واتكا برزنيف على الباب وقد اعتصر قلبه احساس بالحزن والمرارة وان لم يخل من بعض الراحة · وفكر فيما قالته « يا لك من صديق رائع » ثم هز كتفيه ·

وهنا سمع صوت انزاروف وهو يقول :

ـ من هناك ؟

فذهبت اليه برزنيف وقال له :

ـ هذا أنا يا دمترى نيكاتوروفتش · هل هناك ما استطيع أن أعمله لك ؟ كيف حالك الآن ؟

ـ هل أنت بمفردك ؟

ـ نعم ·

ـ وأين هي ؟

ـ هي ؟ من تقصد ؟

ولم يجب انزاروف في الحال · ثم قال وهو يهمس : عطر الياسمين ، وأغمض عينيه من جديد ·

ظل انزاروف يتارجح بين الحياة والموت ثمانية أيام كاملة · وكان الطبيب يتردد عليه كثيرا فقد كان صغير السن وكان مهتما بحالته وحضر شوبين بعد أن سمع بحالة انزاروف الخطيرة لزيارته · كما حضر لزيارته مواطنوه البلغاريون وقد عرف برزنيف من بينهم الرجلين الغريبين اللذين فوجىء بزيارتهما غير المتوقعة فى الكوخ · وكان الجميع يعربون عن أسفهم · وعرض بعضهم أن يحل محل برزنيف فى العناية بأمر انزاروف ولكن برزنيف لم يقبل متذكرا وعده ليلينا · وكان يراها كل يوم ويبلغها سرا ـ اما كتابة أو بالكلام بتطور المرض · وكانت تنتظر لقاءه بشوق وقلب مشغول وتساله عن كافة التفاعيل · كانت تتوق للذهاب الى انزاروف ولكن برزنيف توسل اليها الا تذهب لان انزاروف لم يكن يتحرك بمفرده الا نادرا · وقد مرضت هى تقريبا يوم علمت بمرضه ·· وما ان عادت للبيت حتى حبست نفسها فى حجرتها · وعندما استدعيت لتناول الغذاء كانت شاحبة ممتقعة مما أزعج أنا فاسيليفنا فأشارت عليها بأن تستريح فى حجرة نومها · ولكن يلينا تماسكت · وظلت تقول لنفسها : «ان مات هو فسألحق به» وقد أراحتها هذه الفكرة وساعدتها على أن تتظاهر بعدم الاكتراث · على أن أحدا لم يثقل عليهـا · فقد كانت أنا

فاسيليفنا مشغولة بمرضها وكان شوبين يعمل بكل نشاط وكانت زويا مشغولة بافكارها الحزينة ، وكان ستاكوف يعارض بشدة زيارة « الطلاب » المتكررة لا سـيما وان مشروعاته المتعلقة بكورناتوفسكى لم تكن تحرز اى تقدم

ولم تقدم يلينا الشـكر لبرزنيف فان هناك من الخدمات ما يشعر الانسان بالخجل من تقديم الشـكر عليه · وقد ذكرته بقسمه ووعده مرة واحدة وذلك فى زيارته الرابعة لها وكان انزاروف قد أمضى ليلة سيئة · وقال لها :

ـ حسنا هيا بنا · فبدأت ترتدى ملابسها للخروج ولكنه استدرك قائلا لها :

ـ كلا ·· لننتظر للغد وقد تحسنت حال انزاروف عند المساء ··

واستمر هـذا العذاب ثمانية أيام · وكانت يلينا تبدو هادئة ولكنها لم تكن تتذوق طعاما ولا نوما وكانت أطرافها وراسها تؤلمها كثيرا ·

وأخيرا جاء التحسن فى اليوم التاسع · كانت يلينا تجلس فى حجرة الجلوس بجوار أنا فاسيليفنا تقرأ بصوت مرتفع دون أن تعى ما تقراه حين دخل برزنيف · ونظرت اليه يلينا ـ وكانت بنظرتها الأولى اليه كل مرة نظرة سريعة حادة قلقة ـ ورأت فى الحال انه يحمل أخبارا طيبة · فقد

كان يبتسم واومأ اليها براسه فقامت لتلقاه وهمس فى اذنها قائلا :

ـ لقد أفاق وزال الخطر وسيشفى تماما بعد أسبوع من اليوم .

ولم تنبس يلينا بكلمة وارتعشت شفتاها واكتسى وجهها بلون أحمر داكن . ثم اتجه برزنيف للحديث مع انا فاسيليفنا . وذهبت يلينا الى حجرتها وركعت على ركبتيها واخذت تصلى شكرا لله ودموع الفرح تنساب من عينيها ، وبدأت تحس بمدى ما تعانيه من تعب وارهاق ، ووضعت راسها على الوسادة وقالت لنفسها « مسكين اندريا بتروفتش » واستسلمت للنوم فى الحال وقد بللت الدموع رموشها ووجنتيها . كان قد مضى عليها وقت طويل لم تنم فيه ولم تبك .

- ٢٧ -

تحقق بعض ما تنبأ به برزنيف ، فرغم أن انزاروف قد تجاوز مرحلة الخطر فان شفاءه كان يسير ببطء ، وقد اشار الطبيب الى صدمة عنيفة هزت كيان المريض . ورغم ذلك غادر انزاروف الفراش وأخذ يروح ويجىء فى الحجرة كما عاد برزنيف الى شقته ولكنه كان يذهب كل يوم

لرؤية صديقه الذى كان لا يزال ضعيفا . وكان يبلغ يلينا كل يوم بتطور الحالة كما كان يفعل من قبل . اما انزاروف فلم يجرؤ على الكتابة اليها واكتفى بالاشارة اليها فى حديثه مع برزنيف الذى كان يخطره بدوره متصفا عدم الاهتمام بزياراته لبيت ستاكوف . وأوضح له أن يلينا كانت فى غاية الاضطراب ولكن حالتها النفسية قد تحسنت ..

ولم تكتب يلينا لانزاروف لأنها عقدت العزم على اتخاذ خطوة أخرى . وذات يوم بعد أن أخبرها برزنيف فى بهجة وسرور أن الطبيب قد صرح لانزاروف بأن يأكل قطعة من اللحم وانه ربما استطاع الخروج قريبا طاطأت راسها منكرة . واخيرا قالت له : هل تستطيع أن تحقق ما اريد أن اقوله لك ؟ ..

وشعر برزنيف بالحرج فقد فهم مرادها . وقال لها وهو ينظر بعيدا عنها : ربما تريدين أن تقولى انك ترغبين فى رؤيته .

فاحمر وجهها وقالت بصوت واضح مسموع :

ـ نعم ..

ـ حسنا . أظن أن فى امكانك أن تفعلى ذلك بكل سهولة .

ثم قال محدثا نفسه :

– سحقا لهذا الشعور السخيف الذى اشعر به .
وقالت له يلينا :

– تعنى انى – ولكننى أخشى – انك تقول انه نادرا ما يترك بمفرده هذه الأيام .

فقال لها برزنيف وهو لا يزال يتحاشى نظراتها :
– هذا شىء يمكن التغلب عليه . ولكننى طبعا لا أستطيع ان اخطره مقدما ، فلترسلى له معى رسالة . فمن ذا الذى يملك أن يمنعك من الكتابة لأحد معارفك القدامى الذين يهمك أمرهم ؟ ليس فى هذا ما تلامين عليه . فحددى له ميعادا – أعنى اكتبى له لتخطريه بميعاد ذهابك .

فقالت يلينا هامسة :

– اننى أشعر بالخجل .

– اكتبى رسالة وسأحملها له .

– لا حاجة لذلك . ولكننى أريد أن أرجوك – دون أن تشعر من ذلك بأية اساءة يا اندريا – ألا تزوره غدا .

فعض بنزريف على شفته ثم قال وهو يغادر الحجرة على عجل :

– أوه لقد فهمت حسنا سوف لا أذهب .
وقال لنفسه وهو فى طريقه الى بيته :

– هذا أحسن ! هذا أحسن ! . ان ما علمته ليس جديدا ولكن هذا افضل . ما الذى يجعلنى أتشبث بعش ليس لى ؟ لست آسفا فقد قمت بما أملاه على ضميرى ولكننى الآن قد انتهيت من كل شىء . وليفعلا ما يشاءان . كان أبى محقا عندما قال لى : اننى انا وأنت لسنا مدللين يابنى ولسنا ارستقراطيين .

نحن من الكادحين يابنى . من الكادحين . فالبس فوطتك الجلدية واذهب الى ورشتك المظلمة ! أما الشمس فدعها تضىء للغير . وحتى فى حياتى المظلمة هناك ما افخر به واغتبط ..

وفى اليوم التالى تسلم انزاروف رسالة قصيرة من يلينا عن طريق البريد جاء فيها ما يلى :

انتظرنى ولا تستقبل أحدا . لن يزورك أ . ب .
ما ان قرأ انزاروف رسالة يلينا حتى شرع يرتب حجرته الصغيرة ، فطلب الى صاحبة المنزل أن تزيل زجاجات الأدوية وخلع ملابس النوم ولبس بدلته . كان ضعيفا وسعيدا فاذا بقلبه يدق بسرعة . وتراخت قدماه فارتمى على الاريكة ونظر الى الساعة ثم قال لنفسه : انها الثانية عشرة الا ربعا . لا يمكن ان تأتى قبل الظهر . ولابد لى أن أفكر فى شىء آخر أفعله خلال الربع الساعة القادمة والا فسوف يعيينى تحمل الانتظار . لا يمكن أن تأتى قبل .

وفتح البـاب ودخلت يلينا ترتدى رداء حريريـا وتبدو شاحبة ولكنها منتعشة وسعيدة · القت نفسها بين ذراعيه وهى تصيح صيحة خافتـة مرحـة · وقالت وهى تطوق عنقه بذراعيها وتربت على رأسه :

ـ انك على قيد الحياة · انك لى ·· وكررتها عدة مرات ·· أما هو فقد ظل ساكنا وهو يلهث من التصاقها به ومن لمساتها ومن السـعادة التى كانت تغمره ·· ثم جلست الى جانبه وقد تعلقت به وأخذت تتطلع اليه وقد بدا عليهـا تعبير السرور والتدليل الذى لا يبدو الا على امراة تحب ·

واختفى هذا التعبير من وجهها فجاة ·· ثم قالت وهى تمر بيدها على صدغيه :

ـ نحفت كثيرا يا مسـكين · ونما شـعر ذقنك كثيرا ·· فقال لها ·· وهو يقبل أصابعها وهى تربت على وجهه :

ـ انت أيضا أصبحت أكثر نحـافة عـن ذى قبل يا يلينا يا مسكينة ·

فقالت وهى تهز خصلات شعرها :

ـ لا تهتم · انك سترى أن وزننا سيزداد سريعا ·· لقد جاءت العاصفة كما جاءت فى ذلك اليوم الذي التقينا فيه فى الكوخ · جاءت وذهبت ·

أما الأن فسوف نعيش ··

فأجابها بابتسامة ··

قالت :

ـ لقد مررنا بايام عصيبة يا دمترى · كانت اياما قاسية · اننى لا أستطيع أن أتصور كيف يعيش الناس بعد وفاة من يحبـون · لقد كنت دائمـا أعرف ما كان سيقوله لى اندريا بتروفتش · وكانت حيـاتى ترتفع أو تهبط مع حياتك · ياله من صباح سعيد يا دمترى ـ ولم يدر دمترى ماذا يقول · كان يود أن يلقى بنفسه تحت قدميها ··

وقالت له وهى تربت على شعره :

ـ هناك شىء آخر لاحظته · لقد لاحظت اشياء-كثيرة اثناء مرضك · لقد اكتشفت انه عندما يكون الانسان فى غاية التعاسة فانه يكون قوى الملاحظة · لقد كنت أجلس احيانا أراقب ذبابة ولكننى كنت اشعر بالخوف والضيق · ولكن كل هذا قد انتهى الآن اليس كذلك ؟ وكل ما هو امامنا بهيج ·· اليس كذلك ؟

أنت أمامى وهذا يضفى البهجة على كل شىء ·

اننى اشعر بنفس الشعور · ولكن هل تذكر ذلك اليوم الذى أتيت فيه لزيارتك · لافى المرة الأخيرة ·· كلا ··

(وهنا سرت فى جسـدها رعشة لا ارادية) ولكن عندما كنا نتحدث أنا وأنت وذكرت لك الموت · ولا أدرى لم ذكرته · لم أكن أشك حينذاك أن الموت كان يترصدنا · ولكنك الآن بخير ·· أليس كذلك ؟

ـ اننى أشعر بتحسـن كبير وقد شفيت تقريبا ·

ـ انك فى صـحة جيـدة ولم تمت · أوه ـ كم أنا سعيدة ··

وأعقب ذلك فترة صمت ··

وأخيرا قال انزاروف :

ـ يلينا ··

ـ نعم يا عزيزى ·

ـ خبرينى · هل خطر ببالك أن مرضى كان عقابا موجها لنا ؟ فنظرت اليه يلينا بجد وقالت :

خطر ذلك ببالى يا دمترى · ولكننى سألت نفسى ·

ـ وما سر عقابى ؟ ما هى الواجبات التى أهملتها وما هى الزلات التى ارتكبتها ؟ قد لا يكون ضميرى كضمير الآخرين · أو ربما أكون قد أذنبت فى حقك · وقد أكون عقبة فى سبيلك وقد أعوقك ··

ـ سوف لا تعوقيننى يا يلينا لأننا سنرحل معا ·

ـ نعم يا دمترى · سنسير معا وسوف أتبعك ·· هذا واجبى · اننى أحبك ولا أعرف واجبا غير ذلك ·

ـ أوه يا يلينا ·· ان كل كلمة تصدر منك تضع حولى رباطا لا ينفصم ·

ـ ولماذا تتحدث عن الرباط ؟ اننى أنا وأنت أناس أحرار ·

ثم قالت وهى تنظر الى الأرض فى تفكير ، بينما ظلت تربت على شعره بيدها : لقد مررت بأشياء كثيرة فى الأيام الأخيرة ·· أشياء لم تكن عندى أى فكرة عنها من قبل ·· ولو ان أحـدا قال لى اننى أنا الفتاة ذات التربية أخرج متذرعة بادعاءات كاذبة لزيارة شاب فى مسكنه ـ تخيل هذا ـ لغضبت كثيرا ! وها قد حدث كل هذا ولكننى لم أغضب على الاطلاق ··

وكان انزاروف يحدق فيها باعجاب شديد حتى انها أنزلت يديها من شعره الى عينيه ·

ثم قالت له :

ـ يا دمترى ·· انك لا تعرف شيئا عما حدث ·· لقد رأيتك هناك فى ذلك الفراش الرهيب ·· رأيتك فى قبضة الموت فاقد الوعى ··

ـ حقـا ؟

ـ نعم ·

وظل صامتا فترة من الوقت ثم قال :

ـ وهل كان برزنيف هنا أيضا ؟

فأومأت برأسها ..

فانحنى انزاروف لها وقال فى همس :

ـ أوه يا يلينا لا أجد فى نفسى الجراة على النظر اليك .

ـ ولم لا ! ان اندريا بتروفتش ذو قلب رحيم كما اننى لم أشعر بالخجل امامه اذا ليس هناك ما يجعلنى أشعر بالخجل . لا يهمنى أن يعلم العالم كله اننى لك . اما عن اندريا بتروفتش فانى اثق فيه كما لو كان أخى .

فقال انزاروف :

ـ لقد انقذ حياتى .. انه أكرم وأطيب رجل رأيته فى حياتى .

ـ هذا صحيح .. وهل تعلم اننى مدينة له بكل شىء ؟ هل تعلم انه أول من قال لى انك تحبنى ؟

اننى لا أستطيع أن أبوح لك بكل شىء الآن .. انه حقيقة أكرم رجل ..

فنظر انزاروف الى يلينا مليا ثم قال :

ـ انه يحبك أليس كذلك ؟

فخفضت يلينا عينيها ثم قالت بصوت خفيض :

ـ لقد أحبنى ..

وضغط انزاروف على يدها وقال :

ـ ان لكم أيها الروس قلوبا من ذهب . اننى عندما أذكر انه كان عليه هو دون الناس جميعا أن يرعانى وأن يمضى الليالى ساهرا الى جوارى يأخذنى العجب . كذلك فانك انت الأخرى يا ملاكى فعلت كل هذا من أجلى دون تردد ..

ـ نعم .. نعم .. من أجلك لانك محبوب .. آه يا دمترى ياله من أمر غريب ! اظن اننى قد أخبرتك من قبل اننى أشعر بالسعادة عندما أكرر لك قولى هذا كما انك ستشعر بالسعادة حين أقول لك مرة ثانية اننى عندما رايتك لأول مرة .

وسألها انزاروف فى دهشة :

ـ ولكن لماذا تبكين ؟

فقالت وهى تمسح عينيها :

ـ أبكى ؟ هل أنا ابكى ؟ ولكن كيف لا تعرف ان الانسان قد يبكى أيضا من الفرح ؟ انك حين التقينا لأول مرة لم تلق اعجابى كما سبق أن قلت لك .. أذكر اننى شعرت بميل أكثر نحو شوبين ولو اننى لم أشعر بالحب

نحوه وكنت أشعر نفس الشعور نحو اندريا بتروفتش ، ومرت على لحظة كنت أعتقد انه هو فتاى . أما انت فلم تستلفت نظرى ولكنك استوليت على قلبى بعد ذلك .

فقال لها انزاروف :

ـ ارحمينى .. وحاول أن يقف ولكنه جلس ثانية .

فقالت له يلينا بقلق :

ـ ماذا بك ؟

فقال لها :

ـ لا شيء سوى اننى لا أزال ضعيفا .. ان هـذه السعادة أكثر مما أتحمل .

قالت :

ـ الزم الهدوء اذن .. وأرجوك أن تكف عن الحركة وعن الانفعال ما كان يجب أن تخلع ملابس النوم فلم يحن بعد الوقت لكى ترتدى حلة . اهدأ وسأقص عليك بعض القصص المسلية وما عليك الا أن تستمع فى هدوء ، كما عليك ألا تتحدث كثيرا بعد مرضك .

وبدأت تحدثه عن شوبين وكورنا توفسكى وما كانت تفعله خلال الأسبوعين السابقين وقالت انه طبقا لما جاء فى الصحف فان الحرب وشيكة الوقوع .. ولذلك فمجرد أن يشفى فلابد من ايجاد طريقة للرحيل فى الحال . كانت

تتحدث وهى تجلس الى جانبه متكئة على كتفه . وكان ينصت لها بينما أخذ وجهه يشحب ويحمر على التـوالى وقام بعدة محاولات لاسكاتها .

وفجأة اعتدل وقال لها بصوت حاد :

ـ يلينا أرجوك أن تتركينى .. اذهبى ..

فهمست فى تعجب :

ـ ماذا تقول ! ألست بخير ؟

ـ اننى بخير ولكن ارجوك ان تذهبى .

ـ لا أفهمك .. هل معنى ذلك انك تطردنى ؟

ثم قالت له فجأة وقد رأته ينحنى حتى وصـل الى الأرض ثم قبل قدميها :

ـ لا تفعل يا دمترى .. دمترى .

فقام ثم قال :

ـ اتركينى يا يلينا .. اننى عندما مرضت لم أفقد الوعى فى الحال .. كنت أعلم اننى على حافة الموت . وحتى أثناء الارتفاع الشديد لدرجة الحرارة وحتى وأنا اهذى كنت أشعر شعورا خفيا ان نهايتى أوشكت وودعت الحيـاة وودعتك وودعت كل شيء وفقدت الأمل ثم بعد كل ذلك يأتى هـذا البعث وهـذا النور بعـد الظلام وأراك وأنت تجلسين الى جوارى وفى حجرتى واسمع صوتك وأحس بأنفاسك . هذا أكثر مما أطيق حيث اننى أشعر اننى

أحبك بكل جوارحي • انني حين أسمعك تقولين انك لي أفقد السيطرة على نفسي •• اذهبي •

فهمست يلينا وهي تضع رأسها على صدره وقد فهمت :

ـ دمتري •

ـ يلينا انني أحبك وانت تعلمين ذلك •• انني على استعداد للتضحية بحياتي من أجلك •• ولكن لماذا أتيت لي الآن ، وأنا ضعيف ولا قبل لي بالسيطرة على نفسي ودمائي تغلي ؟ انك لي كما انك تقولين انك تحبينني •

فقالت وقد احمر وجهها احمرارا شديدا والتصقت به أكثر وأكثر :

ـ دمتري •

ـ يلينا •• ارحميني واذهبي •

انني أشعر انني قد أموت فما بي طاقة لتحمل هذا الانفعال •• ان قلبي يتمزق شوقا اليك ••

ولا تنسى ان الموت كاد يفرق بيننا •• والآن هأنت هنا بين يدي يا يلينا ••

فانتابتها رعشة في كل جسدها وقالت له وهي تغمغم بصوت لا يكاد يسمع :

ـ خذني اذن ••

كان ستاكوف يذرع حجرة مكتبه جيئة وذهابا وقد عقد مابين حاجبيه بينما جلس شوبين الى النافذة وهو يدخن في هدوء ثم قال لستاكوف : كفاك سيرا بالله عليك • لقد كنت أنتظر منك أن تتكلم وقد تعبت من النظر اليك وأنت تروح وتجيء كذلك فان في مشيتك شيء من التوتر والانفعال •

فقال ستاكوف :

ـ انت دائما تمزح في غير وقت للمزاح • لابد لك ان تقدر موقفي • انك لا تريد أن تفهم انني متيم بهذه السيدة وأن غيابها ينغص على حياتي هاقد بدأ شهر أكتوبر وأصبح الشتاء على الأبواب • فما الذي يبقيها حتى الآن في ريفال ؟

ـ أعتقد أنها تعد بعض الجوارب ـ لنفسها طبعا لا لك •

ـ استمر في لهوك وضحكك • ولكنني أريد أن تفهم أنني لم أعرف في حياتي امرأة لها مثل اخلاصها وتفانيها •

فسأله شوبين قائلا :

ـ هل قدمت كمبيالاتها للسداد ؟

فقال ستاكوف وهو يرفع صوته :

ان تفانيها يثير الاعجاب وليست هناك امرأة مثلها ·
ولكن الشيء المؤلم أنها لم تكتب لى ·

فقال شوبين :

ـ ان بلاغتك فى الحديث مثل بلاغة بايثاجوراس ·
هل تعرف ما اقترحه ؟

ـ تحدث ·

ـ عندما تعود أوجاستينا كريستيانوفا ـ اتفهمنى ؟

ـ نعم ·

ـ عندما تراها ·· هل تفهمنى ؟

ـ نعم بالطبع ·

ـ حاول أن تضربها وانظر مايحدث ·

فابتعد ستاكوف فى اشمئزاز ثم قال :

ـ كنت أعتقد أنك ستقدم لى نصيحة حقيقية · ولكن
ماذا يستطيع الانسان أن ينتظر من شخص مثلك ؟ من
فنان ·· من رجل بلا مبادىء ·

ـ بلا مبادىء !

انهم يقولون ان رجلك المفضل السيد كورناتوفسكى
وهو رجل ذو مبادئ قد ربح منك مائة روبل فضة مساء
أمس · انك لا شك توافق على أن ذلك من جانبه عمل خال
من اللياقة ·

ـ وماذا فى ذلك ؟ لقد كنا نلعب نظير نقود · لاشك
أننى كان من الممكن أن أتوقع ـ ولكن ما يتمتع به هو من
صفات لا يلقى ما يستحقه من تقدير فى هذا البيت ··

فقاطعه شوبين قائلا :

ـ وربما قال لنفسه : « ليحدث مايحدث ـ لست
متأكدا من اننى سأتزوج ابنته فى حين أن المائة روبل
لا ضرر منها على شخص لا يأخذ الرشاوى » ·

ثم قال شوبين بالفرنسية :

ـ انك تحلم بأن تزوجه ابنتك يا عزيزى · مما لاشك
فيه أن اى فتاة أخرى كانت تقفز من الفرح اذا طلب يدها
رجل مثله · فهو رجل مجتهد وكفء وله شهرته فى
مقاطعتين · كما أنه استطاع أن يخدع حاكم احدى المقاطعات

ـ ربما انه رجل يفعل ما يقول كما ان له نشاطا فى
ميدان التجارة ·

ثم قال شوبين :

ـ انه لا شك يجيد لعب الورق ·

ـ نعم · يجيده · ولكن يلينا نيكولايفنا فتاة لا يمكن
فهم تصرفاتها ·

كم أود أن ألقى شخصا يمكنه أن يبين لى ما نريد ·
فهى مرحة أحيانا وحزينة أحيانا أخرى وصحتها تسوء
أحيانا وتتحسن أحيانا أخرى بلا سبب واضح ·

وهنا حضر خادم يحمل صينية عليها قدح من القهوة وبسكويت واناء من اللبن ٠

واستمر ستاكوف فى حديثه فقال :

ـ الوالد يميل الى الرجل ولكن ابنته لا تكترث لشىء ٠٠ كان هـذا جائزا فى العهـود القـديمة أما الآن فقد تغيرنا ٠ وأى فتاة تستطيع أن تتحدث الى أى انسان كما تستطيع أن تقرأ أى شىء انها تخرج بمفردها دون خادم أو وصيفة كما لو كانت فى باريس ٠ وأصبح كل هـذا مقبولا ٠ وقد سألت منذ بضعة أيام عن يلينا نيكولايفنا فقيل لى انها خرجت ولم يكن هناك من يعرف أين ذهبت فهل تعتقد أن هذا تصرف لائق ؟

فقال شوبين :

ـ خذ قدحك حتى ينصرف الرجل ٠ الم نقل اننا لا يجب أن نتحدث هكذا أمام الخدم (قالها بالفرنسية)

فنظر الخادم بتجهم الى شوبين بينما اخذ ستاكوف قدح القهوة وصب عليه بعض اللبن وأخذ فى يده بعض قطع البسكويت ٠

ثم قال بعد أن انصرف الخادم :

ـ كنت أقول اننى لا أساوى شيئا فى هذا البيت ٠ الناس يقدرون هذه الايام بمظهرهم ٠ وقد يكون الانسان سطحيا وغبيا ولكنه يحترم اذا ظهر بمظهر الشـخص

المهم ٠ وقد يكون هناك شخص آخر موهوب وله قدرات لها فائدتها وأهميتها ولكن لشدة تواضعه ٠

فسأله شوبين قائلا :

ـ هل أنت من رجال السياسة يا نيكولاى ؟

فصاح ستاكوف بغضب قائلا :

ـ كفاك سخافة ٠ لقد نسيت نفسك ٠ وهـذا دليل جديد على أننى لا أساوى شيئا فى هذا البيت ٠

ـ ان أنا فاسيليفنا تستبد بك يا صديقى المسكين ٠ لا بد أن تخجل من نفسك ٠ ولا بد لك أن تفكر فى هدية تقدمها لآنا فاسيليفنا فى عيد ميلادها الذى يحل بعد ايام وانت تعلم مدى تقديرها بأى اهتمام تبديه نحوها ٠

ـ نعم أنت على حق وأنا شاكر لك لأنك ذكرتنى بهذا ٠ لابد لى أن افعل هذا ٠ ان لدى عقدا اشتريته من روز نيستروك منذ يومين ولكننى لا أدرى ان كان هـذا يكفى أم لا ٠

ـ اشتريته للأخرى ٠ أليس كذلك ؟

ـ ان ـ نعم ـ كنت أعتقد ـ

ـ مادام الامر كذلك فانه يكفى بالطبع ٠

وقام شوبين من مقعده ٠

فسأله ستاكوف وهو يحملق فى عينيه قائلا :

ـ أين ستذهب الليلة يا بافل باكوفليفتش ٠٠

ـ ألست ذاهبا الى النادى ؟

ـ أعنى بعد ذلك ٠

فقال شوبين :

ـ آسف يا نيكولاى ارتيمنفتش ان لدى ما أعمل غدا ٠ سنذهب فى وقت آخر ٠ ثم خرج ٠

فقطب ستاكوف جبينه وسار فى الحجرة مرة أو مرتين ثم أخرج من جيبه علبة صغيرة من القطيفة بداخلها العقد وفحص العقد جيدا ٠ ثم جلس أمام المرآة وأخذ يمشط شعره الاسود الكثيف وهو يحرك راسه يمنة ويسرة وينفخ شدقيه ٠

وسمع شخصا يسعل خلفه فالتفت ورأى الخادم الذى احضر القهوة فسأله قائلا :

ـ ماذا تريد ؟

أجاب الخادم :

انك سيدى يا نيكولاى ارتميفتش ٠

ـ أعرف ذلك ٠ وماذا هناك ؟

ـ ارجو الا تغضب منى ياسيدى ٠ عندما رأيت اننى قد امضيت فى خدمتك حياتى منذ طفولتى ـ أى لأنى أريد أن أخدمك كاننى عبدك ـ لابد ان اخبرك ـ

ـ تكلم يارجل ٠

ـ لقد قلت ياسيدى أنك لا تعرف أين ذهبت يلينا نيكولايفنا ولكنى اعرف شيئا عن هذا الموضوع ٠

ـ انك احمق كاذب ٠

ـ كما ترى ياسيدى ولكننى رأيتهـا منذ أربعة ايام وهى تدخل احد المنازل ٠

ـ اين وأى منزل ؟

ـ بالقرب من شارع بوفارسكايا وهو شارع لا يبعد كثيرا عن هنا ٠٠ وسألت حارس المنزل عن السكان ٠

فضرب ستاكوف الأرض بقدمه وقال للخادم :

ـ أخرس ايها المغفل ! كيف تجرؤ على أن تقول مثل هذا القول ٠ ان يلينا نيكولايفنا تزور الفقـراء من باب العطف عليهم وانت ـ اغرب عن وجهى أيها الاحمق ٠

فاندفع الخادم مذعورا الى الباب ٠ وصـاح فيـه ستاكوف قائلا :

ـ قف ٠ ما الذى قاله لك الحارس ؟

ـ لم يقل شيئا ٠ قال انها كانت تقوم بزيارة أحد الـــ الطلبة ٠

ـ اصمت ايها المغفل ـ استمع الى أيها المجرم : اذا أعدت هذا الكلام حتى وأنت نائم ٠

ـ كيف اجرؤ على ذلك يا سيدى ٠

ـ أخرس ـ انك اذا تحدثت عنه ـ أو اذا سمع به أى شخص فانك سوف لا تفلت من عقابى حتى ولو ذهبت الى جهنم ٠ فهمت ؟ والآن اغرب عن وجهى ٠

فخرج الرجل مسرعا ..

وعندما وجد ستاكوف نفسه بمفرده قال لنفسه : يا الهى ! ما هذا ؟ ما الذى قاله لى هذا المعتوه ؟ على أى حال لابد لى أن أعرف كل شيء عن هذا المنزل وعن ساكنيه لابد أن أذهب بنفسى الى هناك ثم أعاد ستاكوف العقد الى الخزانة وذهب الى أنا فاسيليفنا فوجدها ترقد فى الفراش وقد ربطت صدغها بضمادة ولكن فكرة اثارتها أخذت تلح عليه وسرعان ماجعلها تبكى .

- ٣٠ -

فى هذه الأثناء انفجرت العاصفة التى كانت تتجمع فى الشرق وأعلنت تركيا الحرب على روسيا . وكانت الخطابات التى تصل الى انزاروف تناشده بشدة أن يعود الى الوطن . ولم يكن قد عوفى تماما . بل كان مقبلا . وكان يسعل كما كانت تعاوده نوبات من الحمى من آن لآخر ولكنه لم يكن يبقى فى البيت الا نادرا . كان شديد الحماس ولم يكن لديه متسع من الوقت لرعاية صحته . وكان يغشى الاجتماعات السرية فى جميع أنحاء موسكو وكان كثيرا ما يمضى ليالى باكملها يكتب ، كما كان يتغيب عن البيت أياما متتالية . وكان قد أخطر

صاحب بيته أنه سيرحل قريبا ، وأهدى له كل أثاث حجرته مقدما . وكانت يلينا هى الأخرى تستعد للرحلة .

وقد حدث ذات ليلة ممطرة أن كانت يلينا تجلس فى حجرتها تطرز بعض المناديل وتنصت على غير رغبة منها الى صوت الرياح عندما دخلت عليها خادمتها وأخبرتها ان والدها فى حجرة والدتها وانه يريد مقابلتها . وقالت لها الخادمة وهى تغادر الحجرة : ان والدتك تبكى كما أن والدك فى منتهى الغضب .

وهزت يلينا كتفيها ودخلت الى حجرة أنا فاسيليفنا التى كانت تجلس على مقعد ضخم تشم الكولونيا من منديل فى يدها بينما كان زوجها يقف الى جانب المدفأة مرتديا ملابس توحى بأنه خطيب فى البرلمان وأشار ستاكوف بيده اشارة خطابية لابنته لكى تجلس . وعندما نظرت اليه متسائلة قال لها فى تعال ودون أن يلتفت اليها .

ـ ارجو أن تجلسى .. فجلست يلينا ..

وكانت أنا فاسيليفنا تبكى بينما وضع ستاكوف يده فى جيب ردائه .

وقال بعد فترة طويلة من السكون : لقد استدعيتك يايلينا نيكولافينا لكى اصل معك الى تفسير أو بمعنى أصح لكى استوضحك بعض الامور . اننى لست راض ـ عنك ـ كلا هذه لغة معتدلة جدا ـ ان سلوكك يؤلمنى بل ان فيه اهانة لى ولوالدتك التى ترينها هنا .

كان ستاكوف يتحدث بصوت خفيض بينما ظلت يلينا تنظر اليه ثم الى أنا فاسيليفنا وقد شحب وجهها واستمر ستاكوف فى حديثه فقال : كان هناك وقت لا تتجاسر فيه الفتيات على التقليل من شأن الوالدين وكانت سلطة الوالدين ترهب من تسول له نفسه شق عصا الطاعة عليهما • ويؤسفنى أن أقول ان هذا الوقت قد مضى أو هذا ما يعتقده الكثيرون • ولكن صدقينى لا تزال هناك قوانين تمنع ـ تمنع ـ بالاختصار لا تزال هناك قوانين : أرجو أن تلاحظى أنه لازالت هناك قوانين ••

وحاولت يلينا أن تقاطعه قائلة : ولكن يا أبى •• فقال لها :

ـ ارجو الا تقاطعينى ولننظر للماضى •

لقد أديت انا وأنا فاسيليفنا واجبنا • ولم ندخر وسعا فى تعليمك • ان الفائدة التى حصلت عليها من هذه النفقات وهذه العناية تعتبر مسالة جانبية • ولكننى كنت اتوقع أنا وأنا فاسيليفنا أن تقدسى تلك القيم الخلقية التى أنشأناك عليها باعتبارك ابنتنا الوحيدة • لقد كنا نعتقد انه لا يمكن للافكار الجديدة المتطرفة أن تؤثر على هذه العقيدة المقدسة • ومع هذا فماذا كانت النتيجة ؟

وبغض النظر عن الطيش الذى يلازم الفتيات فى سنك ، فليس هناك من كان يتصور أنك تنسين نفسك الى درجة أن • قالت يلينا :

ـ أبى اننى اعرف ما تقصد •

فصاح ستاكوف وقد نسى كل ما يتعلق بكبريائه ومظهره الذى يوحى بالعظمة وقال :

ـ انت لاتعرفين شيئا أيتها الوقحة المستهترة •

قالت أنا فاسيليفنا بالفرنسية •

ـ بحق السماء يانيكولاس •• سنقضى على ••

ـ لاتقولى هذا يا أنا فاسيليفنا • انك لاتستطيعين ان تتصورى ما سأقوله فلا تزال هناك اخبار سيئة فى انتظارك •

فاستولت الدهشة على انا فاسيليفنا •

ثم التفت ستاكوف الى يلينا وقال :

ـ كلا ، أنت لا تعرفين ما أقصده •

ـ لقد أسأت اليكم •

ـ آه ـ لقد قلتيها آخيرا •

ـ لقد أسأت اليكم بعدم الاعتراف لكم منذ وقت طويل •

فقاطعها ستاكوف قائلا :

ـ هل تعلمين أن فى مقدورى أن أقتلك بكلمة واحدة ؟

فنظرت يلينا اليه •

فقال لها وقد وضع ذراعيه على صدره :

ـ نعم ياسيدتى بكلمة واحدة · هل لى أن أسألك ان كنت تعرفين منزلا معينا بالقرب من بوفارسكايا ؟ وهل قمت بزيارة هــذا المنزل ؟ ثم ضرب الارض بقدمه وقال : أجيبى يا قليـلة الحياء ولا تحاولى أن تخدعنى ، فقد رآك خدمنا وانت تزورين ·

واحمر وجه يلينا ولمعت عيناها وقالت :

ـ لا حاجة بى لخداعكم · لقــد زرت هــذا المنزل بالفعل ·

ـ عظيم ! هل سمعت بهذا يا أنا فاسيليفنا ؟ اعتقد أنك تعلمين من الذى يسكن فى هذا المنزل ·

ـ نعم أعرف ـ انه زوجى ·

فحملق فيها ستاكوف وقال :

ـ من ؟؟

ـ زوجى فأنا متزوجــة من دمترى نيكاتوروفتش انزاروف ·

فقالت أنا فاسيليفنا بدهشة :

ـ أنت ؟ متزوجة ؟

ـ نعم ياوالدتى وأرجو المغفرة فقد تزوجنا سرا منذ أسبوعين · انهارت أنا فاسيليفنــا على المقعد الذى كانت

تجلس عليــه بينمــا رجع ســتاكوف خطوتين للخلف وقال لها :

ـ تزوجت !؟ تزوجت من ذلك الصعلوك ؟

هل تتزوج ابنة أحــد النبلاء الأغنيــاء ·· ابنة نيكولاى ستاكوف من صعلوك تعس من الأحرار دون أن يبارك والداها هذا الزواج ؟ هل تظنين أننى سأقبل هذا ؟ وهل تظنين أننى لن اشكو للجهات المختصة ؟ هل تظنين أننى سأسمح لك ان ـ اسمح بأن ـ كلا سادخلك الدير وســأرسله هو الى السجن · اخبريها يا أنا فاسيليفنا الآن أنك ستحرمينها من الميراث ·

فقالت انا فاسيليفنا وهى تئن :

ـ بحق السماء يانيكولاى ارتيميفتش !!

وقال ستاكوف :

ـ كيف حدث هــذا ؟ ومتى ؟ ومن أجرى مراسيم الزواج ؟ واين ؟ وكيف ؟ يا الهى ! ما الــذى سيقوله أصدقاؤنا وغيرهم من النــاس أيتهــا المنافقة المتبجحة ؟ وكيف تستطيعين ان تعيشى فى بيت والديك بعد أن ارتكبت مثل هذا العمل ؟ ألم تقيمى حسابا للعقاب الالهى ؟

فقالت يلينا بحزم وان كانت ترتعش من قمة الرأس الى أخمص القدم :

ـ لك ان تقلل من شانى كما تشاء ولكنك تخطىء فى اتهامك لى بالتبجح والنفاق · لم أود ان أزعجك قبل أن

يتم شيء ولكنني كنت لابد سأخطرك في يوم من الأيام بكل شيء لأنني سأرحل انا وزوجي في الأسبوع القادم

ـ سترحلين ؟ الى أين ؟

ـ الى وطنه بلغاريا .

فصاحت أنا فاسيليفنا قائلة :

ـ الى الاتراك ؟ ثم فقدت الوعي .

واندفعت يلينا نحو أمها ..

فصاح فيها ستاكوف وهو يمسكها من ذراعها قائلا :

ـ ابتعدى ـ ابتعدى أيتها الفتاة الحقيرة .

وفي هذه اللحظة فتح الباب وظهر شوبين وصاح بأعلى صوته قائلا :

ـ لقد عادت اوجاستينا كريستيانوفا يانيكولاى ارتيميفتش وهي تدعوك .

فاستدار ستاكوف بغضب وهز قبضته لشوبين وتردد لحظة ثم أسرع بالخروج .. أما يلينا فقد ارتمت عند قدمي والدتها وامسكت بركبتيها ..

* كان يوفار ايفانوفتش يرقد في فراشه وقد لبس قميصا بازرار كبيرة احاط بصدره الضخم وتدثر بغطاء خفيف غطى نصفه الأسفل .. كانت هناك على المنضدة شمعة ترسل ضوءا خافتا . وكان شوبين يجلس على الفراش عند قدميه وقد بدا مهموما . وقال :

ـ نعم . لقد تزوجت .. أوشكت على الرحيل ..

وقد ثار قريبك وأخذ يصيح وكان قد أغلق الحجرة على نفسه حتى لا يسمعه أحد . وكان كل الخدم يسمعونه وهو لايزال ثائرا صاخبا ، كان على وشك أن يتشاجر معي ولكنه عاجز عن عمل شيء . اما أنا فاسيليفنا فقد تحطمت وحزنت على سفر ابنتها الوشيك أكثر من حزنها على زواجها .

وأخذ يوفاريشني أصابعه ثم قال :

ـ انها أم ولذلك فهي ... انت تعرف .

فاستمر شوبين في حديثه قائلا :

ـ ان قريبك يهدد برفع الأمر الى الحاكم العام والوزير ولكن كل هذا سينتهي برحيلها . وليس هناك أب يرغب في تحطيم سعادة ابنته .

فقال يوفار ايفانوفتش :

ـ لاحق لهم .

ثم احتسى جرعة من الخمر .

ـ كلا لا حق لهم . ولا تنس موجة القيل والقال والاشاعات التي ستعم موسكو . انها لا تخشى شيئا . انها فوق كل هذه الاشياء . ولكن التفكير في المكان الذى ستذهب اليه يثير الخوف . انه بعيد جدا . ولا يدرى أحد ما الذى تخبئه لها الأقدار هناك . انني أتخيلها وكأنها

خارجة من احدى الحانات ليلا فى عاصـــفة ثلجية عاتية ستترحل بعيدا عن وطنهـــا وعائلتهـــا ورغم ذلك فاننى أفهمها • من هم الاشخاص الذين ستتركهم وراءها ؟ وأى نوع من الناس صادفتهم هنا ؟ اشخاص امثال-كورياتوفسكى وبرزنيف وأنا • نحن أحسن من قابلتهم •

فما الذى ستأسف عليه اذن ؟ المشكلة الوحيدة هى انهم يقولون ان زوجها ••• اننى أجد صعوبة فى النطق بهذه الكلمة •• يقولون ان انزاروف يبصق دما عندما يسعل • وهذا أمر سيىء • وقد رأيته منذ بضعة أيام وكان وجهه أشبه بوجه بروتوس •• هل تعرف من هو بروتوس يا يوفار ايفانوفتش ؟

ـ ومن هو حتى أعرفه ؟ انه مجرد شخص •

ـ نعم ولكنه شخص فى منتهى المرح وله وجه عجيب ولكنه وجه رجل مريض • مريض جدا •

ـ هذا لا يهم عندما يكون الموضوع متعلقا بالحرب •

ـ هذا صـحيح وأنت على حق • تعليقاتك اليـــوم دقيقة ولكن هذا من الأهمية بمكان حتى تكون المســألة مسألة حياة وأنا على يقين أنها تريد أن تستمتع بالحياة معه ••

ـ هذا طبيعى فهما فى مقتبل العمر •

ـ نعم هما فى مقتبل العمر ، كما أن القضية قضية

رائعة طابعها الشجاعة ففيها الموت والكفاح من أجل الحياة والهزيمة والنصر والحب والحرية والوطن • انه شعور قد وليمنحه الله للجميع هو أفضل من الجلوس كمـــا تجلس أنت متظاهرا بعدم الاهتمام فى حين أنك فعـلا لا تهتم • أما هناك فقد بلغ التوتر حدا كبيرا جعل صداه يسمع فى جميع أنحاء العالم •

وتدلى رأس شوبين على صدره • ثم اســـتمر قائلا بعد صمت طويل :

ـ نعم • ان انزاروف جدير بهـــا • على كل ـ كلام فارغ ! ليس هناك من هو جدير بها • انزاروف ـ ماقيمة التواضع الكاذب ؟ اننى اعترف انه رجل بمعنى الكلمــــة يستطيع ان يثبت وجوده ولو أنه ظل حتى هـذه اللحظة يفعل ما نفعله نحن الأشـخاص العاديين • ولـكن هل الى هذا الحد ؟ نحن قوم لا قيمة لهم ؟ هل أنا شخص لا قيمة له يا يوفار ايفانوفتش ؟ ألم يهبنى الله شيئا قط ؟ ألم يعطنى بعض القدرات أو المواهب ؟ من يدرى أن اسم بافل شوبين لن يصبح مشـهورا يوما ما ؟ ان أمامك قطعــة من النقود النحاسية على المنضدة • من يدرى فلعل أحفاده يستعملون هذه القطعة ذات يوم • وربما يكون هذا اليوم بعد مائة سنة لاقامة تمثال لبافل شوبين •

فاستند يوفار ايفانوفتش على مرفقيه ونظر الى الفنان المتحمس وقال وهو يثنى اصابعه كالعادة :

— سيطول هذا الانتظار • لقد كنا نتكلم عن شخص آخر وهأنت تتحدث عن نفسك •

— يافيلسوف روسيا العظيم ان كل كلمة تفوهت بها انما هى قطعة من الذهب الخالص • لايجب ان يقام التمثال لى بل لك وساتعهد انا باقامته • ساصنع لك تمثالا وانت راقد فى هذا الوضع الذى يصعب الحكم عليه أهو وضع قوة أو كسل • لقد أنبتنى على انانيتى وطموحى وانت محق فى هذا أو يجب الا نتحدث عن أنفسنا او نتفاخر • نحن لا نزال فى الواقع نفتقر الى الرجال الحقيقين رغم أننا نبحث عنهم كثيرا • ان رجالنا اما شخصيات تافهة جاهلة تتحسس طريقها فى الظلام او اشخاص يسخرهم الآخرون • وهناك ايضا نوع من الأشخاص قد حللوا انفسهم بدقة تثير الاشمئزاز فهم يركزون تفكيرهم على أنفسهم •

والحق انه لو كان بيننا رجال حقيقيون لما تركتنا هذه الفتاة الحساسة ولما تسللت هكذا كسمكة تهرب إلى الماء • ماذايعنى كلهذا يايوفار ايفانوفتش ؟ متى سيحين وقتنا؟ ومتى يولد رجال حقيقيون فى هذه البلاد ؟

— لا تتعجل فسيأتى الوقت الذى يظهرون فيه •

— هل سيأتون حقا ؟ هل قلت انهم سيأتون ؟ لا تنس انى سأسجل ما تقوله • ولكن لماذا تطفىء الشمعة؟

— لانى أشعر بالنعاس • طابت ليلتك •

- ٣١ -

كان شوبين على حق فقد كان خبر زواج يلينا المفاجئ يقضى على أنا فاسيليفنا التى لزمت فراشها • وقد طلب اليها ستاكوف ألا تسمح لابنتها بمقابلتها • ويبدو أنه كان مغتبطا للفرصة التى اتيحت له كى يظهر أنه هو سيد البيت ورب العائلة • فكان يعنف الخدم دائما ويصيح فيهم ويقول :

— ساريكم من أنا • ستعرفون حقيقتى •

وطالما كان فى البيت لم تكن أنا فاسيليفنا ترى يلينا وكانت تقنع بصحبة زويا التى كانت ترعى شئونها بعناية فائقة • ولكن ما ان يخرج ستاكوف وكان هذا يحدث كثيرا — فقد عادت أوجاسيتنا كريستيانوفا — حتى كانت يلينا تأتى لزيارة أمها التى كانت تتطلع اليها فى صمت والدموع تنهمر من عينيها • كان هذا التأنيب الصامت ينفذ الى أعماق يلينا أكثر من أى تأنيب آخر •

كان يجعلها تشعر شعورا أشبه شىء بالندم • وكانت تقول لها وهى تقبل يديها : أمى العزيزة ما الذى كان فى وسعى أن أفعله ؟ الخطأ ليس خطئى فانى احبه ولم يكن فى مقدورى أن أفعل غير ذلك • تستطيعين أن تلومى القدر فهو الذى جمع بينى وبين رجل لايحبه أبى وسيأخذنى بعيدا عنكم •

وتقول لها أنا فاسيليفنا :

ـ لاتذكريني فان قلبي ينفطر عندما أفكر في المكان الذي ستذهبين اليه .

ـ فكري يا اماه في انه كان من الممكن إن يحدث اسوأ من هذا . كان من الممكن أن اموت . لتجدي في هذه الفكرة بعض العزاء .

ـ انني فاقدة الأمل في ان أراك ثانية . فاما أنك ستموتين هناك في كوخ حقير (كانت أنا فاسيليفنا تتصور بلغاريا كمنطقة من مناطق التندرا في سيبريا) واما أن يقضى على الفراق .

ـ لاتقولي هذا يا أماه فاننا سنلتقي بمشيئة الله . وفي بلغاريا مدن لاتقل عن مدننا في القليل أو الكثير .

ـ مدن ! ان الحرب تدور رحاها هناك الآن . وانا على يقين أن المدافع هنـاك تدوى في كل اتجاه . متى سترحلين ؟

ـ قريبا جدا ـ لو ان والدي لا ـ انه يقـول انه سيلجأ للقضاء وهو يهدد بأن يطلقنا .

وترفع أنا فاسيليفنا عينيها الى السماء وتقول .

ـ كلا يا لينا انه لن يلجأ للقضاء . انني لو خيرت لما وافقت على زواجك . بل انني كنت افضل الموت ولكن ما باليد حيلة .. كما أنني لا يمكن أن اسمح لكائن من كان بأن يلحق العار يابنتي .

ومرت بضعة أيام على هـذه الحال . وذات مسـاء استجمعت انا فاسيليفنا أطراف شـجاعتها وأغلقت على نفسها وزوجها غرفة النوم ، وقد شمل الخوف والصمت كل من في البيت . ولم يكن يسمع شيء في أول الامر ثم اخذ صوت ستاكوف يعلو وبدأ نقاش بينهما كان يتخلله صياح وأنين . وهم شوبين بالدخـول الى الحجرة لانقاذ الموقف بمساعدة الخادمات وزويا ولكن الضجة فيها كانت تهدأ تدريجيا وتعود الى مستوى المحادثة العـادية الى أن اختفت تماما .

وكان يسمع من آن لآخر صوت بكاء ولكنـه توقف نهائيا هو الآخر . وأخيرا سمع صرير المفتاح في الخزانة وهي تفتح . ثم فتح البـاب وخرج ستاكوف وهو يحملق فيمن مر بهم ثم ذهب الى النـادي .. واستدعت أنا فاسيليفنا يلينا وعانقتها بحرارة وقالت لها وهي تبـكي بحرقة :

ـ لقد سوى كل شيء ولن يثير هو أية متاعب وليس هناك ما يمنعك من السفر .. من هجرنا .

قالت يلينا لأمها بعد أن استعادت بعض هدوئها :

ـ هل يمكن لدمترى أن يحضر ليشكرك ؟

ـ انتظري قليلا ياعزيزتي فاني لا أطيق في الوقت الحاضر رؤية الشخص الذي سيبعدك عني . ولكنني سأراه قبل أن ترحلا .

فقالت يلينا بحزن :

ـ قبل أن نرحل .

لقد وافق ستاكوف على ألا يثير المتاعب ولكن أنا فاسيليفنا لم تحط ابنتها علما بالثمن الذى طلبه نظير ذلك . لم تقل لها انها قد وعدته بسداد كل ديونه كما أعطته ألف روبل من الفضة نقدا وعدا زد على ذلك أنه قد رفض صراحة أن يقابل انزاروف . وعندما وصل ستاكوف الى النادى شرع على الفور فى التحدث الى زميله فى لعب الورق ، وهو مهندس متقاعد من ضباط الجيش ، عن زواج يلينا . فقال وهو يفتعل عدم الاهتمام :

ـ هل سمعت ان ابنتى قد تزوجت طالبا ... ربما لانبهارها بعلمه .

وكان الضابط يتفرس فيه من خلال نظارته وسأله عن لعبة الورق التى يريد ان يلعبها .

- ٣٢ -

كان شهر نوفمبر قد أوشك على الانتهاء واقترب موعد السفر . وكان انزاروف قد انتهى من استعداداته منذ وقت طويل ، وكان يتوق لمغادرة موسكو بأسرع ما يمكن ، كما أن الطبيب حثه على الاسراع بالرحيل وقال له :

ـ انك تحتاج الى جو دافىء ولا يمكن ان تسير صحتك على ما يرام هنا .

وكانت يلينا هى الأخرى فى هم فقد كان شحوب انزاروف وفقدان وزنه من أسباب قلقها . كانت ترقب تغير ملامحه بانزعاج وخوف . وكان موقفها فى بيت والديها لايحتمل . فكانت أمها تبكيها وكأنها قد فارقت الحياة بينما راح والدها يعاملها باحتقار وبرود . كان الفراق المنتظر يأكل قلبه هو الآخر ولكنه كان يعتقد من واجبه ـ وهو كوالد لحقته اهانة ـ أن يخفى مشاعره وضعفه .

واخيرا طلبت انا فاسيليفنا ان ترى انزاروف . فادخل اليها سرا من الباب الخلفى . وظلت عاجزة عن الكلام فترة طويلة بعد دخوله الى حجرتها كما أنها لم تقدر على النظر اليه . وجلس انزاروف بجوار مقعدها وظل ينتظر فى هدوء واحترام أن تبدأ هى بحديث بينما جلست يلينا ممسكة بيد أمها . وأخيرا رفعت أنا فاسيليفنا رأسها وقالت :

ـ اسال الله ان يجازيك يادمترى نيكافوروفتش .

اننى ... ثم توقفت عن الكلام وعلى شفتيها كلمات من اللوم والتأنيب .. ثم قالت فجأة :

ـ ولكنك مريض انه مريض يا يلينا .

فقال لها انزاروف :

ـ كنت مريضا يا أنا فاسيليفنا ولم أشف بعد

تماما ولكننى آمل ان يساعدنى جو بلادى وهواؤها على استعادة صحتى ..

فقالت وهى تتمتم :

ــ نعم ــ بلغاريا .

ثم لنفسها :

ــ ياالهى .. بلغارى يوشك أن يموت . له صوت كصوت الأشباح وعينان غائرتان وليس فيه الا جلد على عظم ويرتدى بدلة قد اتسعت عليه حتى ليخيل للناظر اليها أنها مستعارة . ثم هذا اللون ... لونه الأصفر ــ ولكن ما هى ذى زوجته تحبه ! لابد اننى احلم .. ولكنها تمالكت نفسها سريعا وقالت ..

ــ أيتحتم عليك ان تسافر يا دمترى نيكاتورفتش ؟

ــ نعم يا أنا فاسيليفنا .

فنظرت اليه ، ثم قالت :

ــ آه يا دمترى أسأل الله الا تمر بتجربة كالتى أمر بها أنا الآن .. عدنى أن تحبها وتعتنى بها . انكما لن تشعرا بالحاجة أو العوز وأنا على قيد الحياة . ولكن العبرات خنقتها وفتحت ذراعيها وتعلقت بها يلينا وانزاروف ..

وأخيرا جاء اليوم الموعود . كان من المتفق عليه أن تذهب يلينا الى بيت والديها لوداعهما ثم تبدأ رحلة السفر من بيت انزاروف كان موعد السفر وقت الظهر . وذهب

برزنيف قبل السفر بربع ساعة لوداعها . كان يتوقع أن يرى فى بيت انزاروف .. بعض مواطنيه ولكنهم كانوا قد سبقوه فى السفر ، كما سبقه الشخصان الغامضان اللذان يعرفهما القارىء وكانا شاهدى زواج انزاروف .

وحيا صاحب البيت انزاروف بانحناءة وكان قد شرب أكثرمن اللازم اما لانه كان يشعر بالأسف لسفر ذلك الساكن ، واما لشعوره بالسعادة لحصوله على اثاث الحجرة . وسرعان ما حضرت زوجته وجرته الى داخل البيت . وكانت هناك حقيبة على الأرض وكان برزنيف غارقا فى أفكار كثيرة .

كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة وقد وقفت زحافة بالباب . الا أن يلينا وانزاروف لم يصلا بعد . وأخيرا سمع وقع اقدام مسرعة تصعد السلم ودخلت يلينا يصحبها انزاروف وشوبين .

كانت عينا يلينا شديدتى الاحمرار فقد أغمى على والدتها من ألم الفراق . وكان قد مر أكثر من اسبوع منذ أن رأت يلينا برزنيف لآخر مرة ، فقد قل تردده على بيت ستاكوف . ولم تكن تتوقع أن تقابله فهتفت قائلة :

ــ انت هنا ! شكرا على مجيئك . واندفعت بين ذراعيه .. ثم عانقه أنزاروف هو الآخر . وساد الجميع سكون رهيب .. فما الذى كان يمكن لهؤلاء الثلاثة ان يقولوه ؟ وماذا كان شعورهم ؟ وتبين شوبين انه لابد من وضع حد لهذا الموقف فقال .

ـ ها نحن قد اجتمعنا ثانيا لآخر مرة . لنحن رأسنا لمشيئة القدر ولنذكر ماضينا بكلمة طيبة ونحن نبدأ حياة جديدة نسأل الله أن يباركها . وبدأ يغنى أغنية « ليبارك الله رحلتنا الطويلة » .

ولكنه توقف عن الغناء فجأة وقد شعر بالحزى والحرج بأن الغناء فى حضرة الماضى المحتضر ! ثم .. كان الماضى الذى ذكره وماضى هؤلاء الثلاثة المجتمعين فى الغرفة يموت فى تلك اللحظة ، يموت ليبعث فى حياة جديدة ولكنه يموت على اى حال .

وتحدث انزاروف فقال :

ـ يلينا ، يبدو أن وقت الرحيل قد حان فكل شىء قد تم وليس أمامنا الا انزال هذه الحقيبة . واستدعى صاحب المنزل الذى حضر مع زوجته وابنته واستمع الى تعليمات انزاروف وحمل الحقيبة ونزل بها .

وقال انزاروف :

ـ والآن دعونا نجلس حسب العادة الروسية .

فجلسوا . وجلس برزنيف على الاريكة القديمة ويلينا الى جواره فى حين جلست صاحبة المنزل وابنتها على الارض . ولم يتحدث احد . كانوا جميعا يبتسمون ابتسامة جامدة . وكان كل منهم يود أن يقول شيئا قبل الفراق . كان كل منهم ـ ماعدا صاحبة المنزل وابنتها اللتين ظلتا تحملقان ـ يشعر أن ما يقال فى مثل هذه

اللحظات كلمات عادية وان اى الفاظ أخرى منمقة او مختارة ستبدو كاذبة . وقام انزاروف ورسم الصليب على صدره وقال :

ـ وداعا ياحجرتنا الصغيرة .

وتبودلت القبلات والتمنيات والوعود بالكتابة وآخر كلمات الوداع المختنقة . وركبت يلينا الزحافة وهى غارقة فى دموعها واحكم انزاروف الغطاء حول قدميها . ووقف شوبين وبرزنيف وصاحب المنزل وصاحبته وابنتهما والحارس أمام المنزل ، واذا بزحافة أخرى تندفع الى فناء المنزل ويخرج منها ستاكوف وهو يزيل الثلج من على معطفه .

قال وهو يعدو الى الزحافة الأخرى :

ـ شكرا لله انكما لاتزالان هنا . اننى أقدم لكما يايلينا آخر بركاتنا الأبدية .

وأخرج من جيب معطفه علبة من القطيفة فتحها وأخرج منها تعويذة ربطها حول عنق ابنته .

فانفجرت باكية وقبلت يديه ، بينما اخرج سائقه زجاجة من الشمبانيا وثلاثة كئوس من مقدمة العربة .

وقال ستاكوف والدموع تتساقط من عينيه :

ـ لابد أن نودعك وداعا حارا ونتمنى لك ... وبدأ يصب الشمبانيا بيدين مرتعشتين وامتلأت الكئوس وأخذت الشمبانيا تتدفق منها على الثلج الذى اكتست به الأرض .

وتناول هو كاسا واعطى الكاسين الأخرين ليلينا وأنزاروف الذى كان قد جلس فى العربة الى جوارها • وقال لهما ستاكوف :

ـ ارجو لكما حظا سعيدا ••

ولكن العاطفة غلبته فأمسك عن الحديث وشرب الكأس وفعل انزاروف ويلينا مثله • ثم التفت الى شوبين وبرزنيف وقال :

ـ والآن جاء دوركما يا سادة ولكن السائق الهب ظهر الخيل ، وتحركت العربة واخذ ستاكوف يجرى الى جوارها وهو يصيح بصوت متقطع : لا تنسى أن تكتبى يا يلينا • ونظرت يلينا من العربة وقالت : وداعا يا أبى • وداعا ياندريا بتروفتش وداعا يا بافل ياكوفليفتش وداعا لكم جميعا • وداعا يا روسيا •

ثم عادت الى مقعدها • وخرجت العربة من البوابة وانحرفت الى اليمين واختفت عن الانظار ••

ـ ٣٣ ـ

كان يوما من أيام ابريل المشرقة • وكان الجندول ينساب برقة فوق البحيرة الكبيرة التى تفصل بين فينسيا والليدو وهو يهتز مع كل ضربة من ضربات المجداف بينما

جلست يلينا وانزاروف فوق المراتب الجلدية فى القمرة الصغيرة •

ولم تكن ملامح يلينا قد تغيرت كثيرا منذ أن غادرت موسكو ولكنها كانت تنطق الآن بتعبير جديد ـ تعبير أكثر جدية وأكثر تركيزا ، كانت عيناها أكثر ثقة • وكان جسدها بضا ناضجا وشعرها يتدلى على جبينها الناصع فى بهاء ، وكانت وجنتاها أكثر جمالا عن ذى قبل • ولكن شفتيها كانتا تكشفان عن شىء من القلق اذا كفتا عن الابتسام • أما وجه انزاروف فكان لا يزال يحتفظ بتعبيره السابق وان كانت ملامحه قد تغيرت تغيرا ملموسا كان يبدو أكثر نحافة وأكبر سنا كما كان شاحب الوجه وقد انحنى ظهره قليلا• وكانت تنتابه نوبات كثيرة من السعال• وكان سعاله قصيرا وجافا كما كانت عيناه الغائرتان تلمعان ببريق غريب• وكان قد أمضى شهرين فى أحد مستشفيات فينا وهو فى طريقه من روسيا • ولم يصلا الى فينسيا الا فى أواخر مارس •

وكان ينتظر أن يذهب من فينسيا الى الصرب وبلغاريا عن طريق زار ، فقد كانت جميع الطرق الاخرى مغلقة أمامه • كانت الحرب مشتعلة بالفعل فى منطقة الدانوب وقد أعلنت انجلترا وفرنسا الحرب على روسيا وكانت جميع الدول السلافية فى حركة واستعداد •

ووصل الجندول الى الليدو • واخذت يلينا وانزاروف

يسيران على طريق رملى ضيق غرست على جانبيه أشجار صغيرة هزيلة (تزرع كل عام وتموت كل عام) •

سارا على طول الشاطىء • وكانت مياه الادرياتيكى الزرقاء تمتد أمامهما والامواج تتلاطم ارتفاعا وانخفاضا تاركة بعض قطع المحار والأعشاب البحرية على الرمال •

وقالت يلينا :

ـ يا له من مكان بارد ! أخشى ان يكون هذا المكان غير ملائم لصحتك • ولكننى أستطيع أن أفهم سبب مجيئك الى هنا •

فقال انزاروف: بمرارة وعلى شفتيه ابتسامة سريعة:

ـ بارد ! ان الجندى لا يخشى البرد • أما سبب مجيئى هنا فسأخبرك به • اننى عندما أنظر الى البحر من هنا أحس كأن بلادى أقرب الى • لقد انتهى كل شىء هناك •

قال ذلك وهو يمد يديه ناحية الشرق • ثم اضاف :

ـ وهذه الريح تاتى من هناك :

ـ ألا تعتقد أن هذه الريح قد تاتى بالسفينة التى تنتظرها ؟ الا يمكن أن يكون ذلك الشراع الأبيض الذى ينعكس عليه الاضواء من بعيد هو شراعها ؟

فنظر انزاروف الى المكان الذى أشارت اليه يلينا ثم قال :

ـ لقد وعد رانديتش أن يعد كل شىء لنا خلال أسبوع وأعتقد أننا نستطيع الاعتماد عليه •

ثم بحماس مفاجىء :

ـ هل سمعت يا يلينا أن صيادى السمك فى دالماشيا قد انتزعوا قطع الرصاص المركبة فى شباكهم لتحويله الى رصاص للبنادق ؟ انهم معدمون وصيد الاسماك هو مورد رزقهم الوحيد ولكنهم تبرعوا به عن طيب خاطر وهم الآن يتضورون جوعا وارتفع فجاة صوت يصيح :

« افسحا الطريق »

وسمعا وقع حوافر جواد يمر بهماسريعا عليه ضابط نمساوى وابتعد عن طريقه بسرعة • ونظر انزاروف اليه وهو يبتعد • فقالت يلينا :

ـ لا لوم عليه فليس لديهم ـ كما تعلم ـ مكان آخر لتدريب خيولهم •

فقال انزاروف :

ـ لا لوم عليه نعم ولكنه اثارنى بصيحته وبشاربه وقبعته وبمظهره كله • لنعد ••

ـ نعم يا دمترى وان الهواء شديد هنا • وانت لم تعتن بنفسك العناية الكافية بعد المرض الذى أصابك فى موسكو وقد دفعت ثمن ذلك فى فينا • لا بد أن تكون أكثر حرصا •

ولم يجبها انزاروف ولكن نفس الابتسامة المريرة ارتسمت على شفتيه ••

وقالت يلينا :

ـ ما رأيك لو ركبنا جندولا فى القنال الكبير ؟

اننا لم نر فينيسيا جيدا منذ وصولنا • وسنذهب هذا المساء الى المسرح فقد حجزت تذكرتين لنشاهد أوبرا جديدة • دعنا نستمتع معا بهذا اليوم وننسى كل شيء عن السياسة والحرب ننسى كل شيء الا أننا نحيا ونتنفس ونفكر معا واننا قد ارتبطنا الىالابد • ما رأيك ؟

ـ ما دامت هذه رغبتك يا يلينا فلك ما تريدين •

فقالت يلينا وهى تبتسم :

ـ كنت أعلم انك ستوافق هيا بنا •

وعاداالى الجندول وطلبا الى صاحبه أن يجدف بهما فى القنال الكبير على مهل •

ان من لم ير فينيسيا فى شهر ابريل لا يستطيع أن يكون فكرة عن سحر هذه المدينة وجمالها • ان الربيع اللطيف المعتدل يناسب فينيسيا كما يناسب الصيف المشمس جنوا الجميلة ، وكما يناسب الخريف روما وجمال فينيسيا كالربيع يثيرك ويحرك فيك كوامن الرغبات •

وسرى الجندول يحمل انزاروف ويلينا حتى دخل الى القنال الكبير• القصور الرخامية تنتشر على الجانبين• يلينا فى سعادة جارفة ، ولكن سحابة واحدة معتمة بدت فى سمائها • واخذت هذه السحابة تنقشع• وأحس انزاروف بتحسن كبير فى ذلك اليوم • وتذكرت يلينا أكاديمية الفنون الجميلة فطلبت من صاحب الجندول أن يجدف بهما

الى هناك • ولم يستغرقا وقتا طويلا فى زيارة حجرات المتحف المختلفة• وطغى عليهما شعور بالمرحعلى غير انتظار فكانا يريان فى كل شيء جامنا مضحكا (وهو احساس معرفة الأطفال جيدا) ، فكانا يضحكان من الزوار ومن بعض اللوحات والتماثيل •

وأخيرا خرجا منالمتحفولما شاهدا صاحب الجندول بمعطفه وبنطلونه القصير ضحكا أيضا ••

ثم شاهدا احدى البائعات وقد عقصدت على رأسها خصلة من الشعر الأشيب فضحكا أكثر وأكثر • وأخيرا نظر كل منهما الىوجه الآخر وانفجراضاحكين دون توقف• ولما وصلا الىالجندول وجلسا امسك كل منهما بيد الآخر• وعادا الى الفندق واسرعا الى حجرتهما وطلبا طعام الغداء ولم تتركهما روح المرح حتى أثناء تناول الطعام فكانا يتعازمان على الطعام • وشربا نخب اصدقائهما فى موسكو وكانا يصفقان ويمتدحان الطباخ على طعامه الشهى •

وعندما حان الوقت ذهبا الى المسرح •

كانت الأوبرا لفيردى وكانت رغم انها لم تكن من روائعالأوبرا فقد عرضتبالمسارح الاوربيةكما أن جمهورنا الروسى يعرفها جيدا ، وأعنى بها أوبرا لاترافياتا •

وكان الموسم فى فينيسيا قد انتهى فلم يكن بين المغنين من ارتفع عن المستوى العادى وكان كل منهم يصيح بأعلى صوته • أما دور فيولينا فقد قامت به مغنية مغمورة

و ان لم تخل من موهبة كانت ملابسها متواضعة وخالية من الذوق على نحو ساذج . وكانت تلف حول شعرها شبكة حمراء وترتدى ثوبا من الحرير الازرق الباهت يضغط على بطنها وزوجا من القفازات السميكة يصل الى مرفقيها المدببين . لم تكن تعرف كيف تتحرك على خشبة المسرح على أن تمثيلها كان يتسم بالدقة والبساطة . كما انها كانت تغنى بانفعال عاطفى واضح ونغم لا يجيده الا الايطاليات . كانت يلينا تجلس الى جوار انزاروف فى المقصورة المجاورة لخشبة المسرح ، وكانت روح المرح التى تملكتها فى اكاديمية الفنون الجميلة لم تبارحهما .

وقالت يلينا :

ـ ان الفتاة المسكينة لم تحصل على أى تشجيع من المتفرجين ولكننى أفضلها عن كثيرات من الممثلات اللائى يتكلفن فى تمثيلهن . انها تؤدى دورها دون أن تشغل نفسها بالمتفرجين .

واتكأ انزاروف على حافة المقصورة لينظر الى فيوليتا جيدا ، ثم قال :

ـ انها جادة فى تمثيلها وتجيد تمثيل دورها ..
ولم تتحدث يلينا بعد ذلك ..

ثم بدأ الفصل الثالث وارتفع الستار . وانزعجت يلينا من منظر الفراش والستائر المسدلة وزجاجات الأدوية والمصباح الخافت ، وتذكرت ماضيها القريب .

وتساءلت :

ـ ترى ماذا سيحدث فى المستقبل وفى الحاضر ؟

وسعلت الممثلة وهى تقوم بدورها فتردد صدى سعالها عندما سعل انزاروف . فاختلست يلينا نظرة اليه ثم ارتسم على وجهها تعبير هادىء وفهم انزاروف وابتسم وهو يردد الأغنية بصوت منخفض .

ولكنه سرعان ماتوقف عن الغناء فقد تحسن تمثيل فيوليفا واصبح أقل عصبية وتخلصت من كل ماهو مفتعل وظهرت كممثلة ناجحة . وتأثر المتفرجون واظهروا استحسانهم فقد سيطرت عليهم الفتاة بصوتها وجعلتهم يتمايلون من الطرب . ثم دخل الفريدو وبدا حوارهما أجمل جزء فى الأوبرا وهو الجزء الذى بدأ المؤلف يعبر فيه عن الأسف على الشباب الضائع والكفاح الأخير فى سبيل حب يائس ..

واندمجت الممثلة فى الدور وتغير وجهها أمام شبح الموت المخيف الذى اقترب فجأة وغنت المقطع الذى جاء فيه « دعنى أعيش ـ اننى لا أزال صغيرة » بتوسل وضراعة جعلت القاعة تدوى بالهتاف والتصفيق وصيحات الاستحسان .

وأحست يلينا بقشعريرة تسرى فى جسدها وتحسست بيدها يد انزاروف حتى وجدتها وضغطت عليها بشدة وضغط هو الآخر على يدها ولكن احدهما لم ينظر

للآخر . لم تكن هذه الضغطة كتلك التى تبادلاها فى الجندول منذ بضع ساعات .

وقفلا راجعين الى الفندق على طول القنال الكبير . كان الليل قد خيم بأضوائه الكثيرة . وأخذت نفس المناظر تقابلهم ولكنها كانت تبدو مختلفة هذه المرة . القصور تبدو فى ضوء القمر غارقة فى بياض مشوب باللون الفضى . أما النقوش التى تزين هذه القصور والنوافذ والشرفات فتبرز من المبانى وقد غمرتها ظلال باهتة ، والزوارق تنساب بأضوائها الخافتة جميلة على صفحة الماء وقد لمعت مقدماتها فى الظلام وأخذت مجاديفها تعلو وتهبط على مياه البحيرة الفضية .

كان الفندق الذى نزل فيه انزاروف ويلينا يقع فى ريفاشيافونى . وغادرا الجندول قبل أن يصلا اليه ، وطافا عدة مرات بميدان سانت مارك تحت القباء حيث كان كثير من المتسكعين يتسكعون أمام المقاهى الصغيرة . شعور جميل ذلك الذى يشعر به المرء وهو يسير مع من يحب بين الغرباء فى مدينة أجنبية ، كل شىء يبدو جميلا وهاما .. ونظرا للسرور الذى تشعر أنه يملأ كل جوانحك فانك ترجو للجميع السرور والطمانينة . ولكن يلينا لم يعد فى وسعها أن تستمتع بهنائها فى هدوء فان قلبها وقد هزته الانطباعات الأخيرة كان يرفض أن يهدأ . أما انزاروف فكان يسير فى سكون صوب فوهات المدافع النمساوية وهى تبرز من تحت القباء . وجذب قبعته حتى غطت حاجبيه . وأدركه التعب

فالقيا نظرة أخيرة على كاتدرائية سانت مارك وقبابها الملتمعة فى ضوء القمر واتجها نحو الفندق .

كانت حجرتهما تطل على بحيرة كبيرة . وكان يواجه الفندق كنيسة ويدنيتور وتعتبر من أجمل كنائس العالم . وعلى اليسار كانت العين تلمح صاريات السفن ومداخن البواخر كما كانت تظهر من آن لآخر سفينة شراعية وقد فردت شراعها كجناح ضخم . وجلس انزاروف الى النافذة ولكن يلينا لم تتركه يستمتع بالمنظر طويلا فقد فاجأته الحمى وأصيب بضعف شديد . وسندته حتى وصل الى الفراش . نام فعادت فى هدوء الى النافذة . كان الليل ساجيا والهواء لطيفا يزيل الألم والحزن تحت السماء الصافية والأشعة المقدسة النقية وقالت يلينا لنفسها :

ـ يا الهى .. لماذا خلقت الموت والفراق والمرض والبكاء والدموع ؟ ولماذا بدعت الجمال وهذا الاحساس الجميل بالأمل والشعور المريح بالملجأ الآمن والحماية الدائمة . والا فما معنى هذه السماء الباسمة التى تنزل بركاتها على الأرض ، وهذه الأرض السعيدة المطمئنة ؟ هل يمكن ان يكون كل هذا فينا نحن فقط ، بينما يسود السكون والبرد فى الخارج ؟ هل يمكن أن نكون نحن فى عزلة .. فى عزلة وان يكون كل شىء آخر فى كل مكان فى كل هذه الأغوار السحيقة غريبا عنا ؟ ماذا تجدى اذن هذه الرغبة الملحة فى الصلاة وفى الابتهاج بالصلاة ؟ الا يمكن أن تسامحه وتنقذه ؟ ألا يمكننى أن أعتقد فى حدوث

معجزة ؟ ثم وضعت رأسها على يديها وغمغمت :

ـ هل هذه هى النهاية ؟ هل يمكن حقا ان تكون هذه هى النهاية ؟ لقد غمرتنى السعادة لا لعدة دقائق أو ساعات أو أيام بل لأسابيع متتالية • ولكن بأى حق ؟

واستمرت فى قائلاتها :

وماذا اذا كانت هذه السعادة أكثر مما نستحق ؟ وماذا اذا كان لابد لنا أن ندفع ثمن هذه السعادة • انها السماء وما نحن الا بشر ـ بشر مساكين عصاة ـ ابتعد أيها الشبح المشئوم فلست أنا الوحيدة التى تهمنى حياته •

ولكن ماذا اذا كانت هذه عقوبة ؟ ماذا اذا كان علينا أن ندفع الآن نحن ثمن اثمنا كاملا ؟ لقد كان ضميرى صامتا وهو صامت حتى هذه اللحظة ولكن هل هذا دليل على البراءة ؟ يا الهى هل نحن حقا آثمون ؟ هل يمكن أن تعاقبنا لأننا احببنا احدنا الآخر وأنت الذى خلقت هذا الليل وهذه السماء ؟ فاذا كان الأمر كذلك ، وكان مذنبا وكنت أنا مذنبة ، فلتكن ارادتك يا الهى أن نموت نحن الاثنين أخيرا ميتة كريمة ـ هناك فى الحقول فى بلاده لا فى هذه الحجرة المعتمة • ثم مضت تتساءل :

ـ ولكن ماذا يكون من أمر الحزن الذى سيحل بأم مسكينة وحيدة ؟

وشعرت بالحيرة عندما لم تجد اجابة على سؤالها ••

لم تكن تعرف أن سعادة أى انسان قائمة على تعاسة انسان آخر وان راحته تتطلب تعب الآخرين تماما كما يحتاج التمثال الى قاعدة •

وتحدث انزاروف وهو نائم فقال :

ـ راندتش •

فاسرعت اليه يلينا على أطراف أصابعها وانحنت فوقه وجففت العرق من على وجهه • فحرك رأسه على الوسادة ثم هدأ •

وعادت الى النافذة ولكن الأفكار السوداء استبدت بها • وحاولت أن تقنع نفسها بأنه ليس ثمة مايدعو للخوف بل عيرت نفسها بضعفها ، وتمتمت لنفسها :

ـ ليس هناك اى خطر اليس كذلك ؟
انه الآن أحسن حالا اليس كذلك ؟

لاشك أننى لو لم أذهب الى المسرح لما خطر ببالى مثل هذا الخاطر •

ولفت نظرها فى هذه اللحظة طائر بحرى يحلق فوق الماء لابد أن أحد صيادى السمك أزعجه • كان يطير فى صمت فى خط متعرج كأنه يبحث عن مكان يهبط عليه •

فقالت يلينا لنفسها :

اذا طار فى هذا الاتجاه فسيكون هذا فالا حسنا ، ولكن الطائر طوى جناحيه وهوى وهو يصرخ صرخة طائر جريح خلف احدى السفن • وانزعجت يلينا ولكنها شعرت

بالخجل من انزعاجهـــا ، واتجهت الى انزاروف ورقـدت بجانبه دون أن تخلع ملابســـها . كان انزاروف يتنفس بصعوبة .

- ٣٤ -

استيقظ انزاروف متأخرا على صداع مؤلم ، وكان يشعر بضعف شديد فى كل أطرافه .

ورغم ذلك فقد غادر الفراش .

وكان أول سؤال ساله ليلينا قوله لها :

ـ هل حضر راندتش ؟

فقالت :

ـ كلا . ثم ناولته الطبعـــة الأخـيرة من صحيفة اونبرير فالور تريستينو التى أطالت فى الحديث عن الحرب وعن أرض السلاف وعن المقاطعات .

وبدا انزاروف يقرؤهـا بينما انشغلت هى باعداد فنجان من القهوة له . ثم سمع طرق على الباب . واعتقد كل منهمـا انه راندتش ولكن الطارق قال بلغة روسية واضـحة ؟ هل استطيع الدخـول ؟ وتبادلت يلينا مع انزاروف نظرة استغراب وقبـل ان يجيبا الطارق دخل عليهما شاب أنيق الملبس ذو وجـه صغر مدبب وعينين

صغيرتين . وكان متهللا كانه تلقى لتوه بشرى سارة .

وقام انزاروف من مقعده وقال الغريب وهو يسير اليه وينحنى فى أدب ليلينا :

ـ يبدو أنك لم تتذكرنى . اننى لو بويفاروف . الا تذكر أننا تقابلنا فى موسكو عند « ى » .

فقال انزاروف : نعم عند « ى » .

فقال الرجل :

ـ هذا صحيح . والآن أرجو أن تقدمنى لزوجتك . اننى ياسيدتى من المعجبين كل الاعجاب بدمترى فاسيليفتش ويسعدنى أن يكون لى شرف التعرف عليك .

ثم التفت الى انزاروف وقال له :

ـ تصور أننى لم أكن أعلم بوجودك هنا الا امس . اننى أقيم فى نفس هذا الفندق . يالجمال مدينة فينسيا . انها مدينة شاعرية .. ان الشىء الوحيد الذى أكرهه فيها انك تقابل هؤلاء النمساويين الملاعين فى كل مكان . على فكرة ، هل سمعت عن وقوع معركة حاسمة على الدانوب؟ لقد قتل فيها ثلاثمائة من الضباط الأتراك وتم الاستيلاء على سيليستريا ، وأعلنت الصرب استقلالها .

انك كوطنى لابد أن تشعر بالغبطة . اننى أشـعر بدمائى السلافية تغلى فى عروقى ولكننى أنصح بالحذر . اننى على يقين بأنك مراقب كما أن المدينة تعج بالجواسيس. وقد زارنى بالأمس شخص غريب وسالنى ان كنت روسيا ، فأجبته بأني دانماركى . ولكنـك تبدو مريضا ياعزيزى

انزاروف فاسيليفتش ولابد لك من العلاج • لابد لزوجك ياسيدتى من العلاج • لقد كنت بالأمس اسير كالمجنون من قصر الى قصر ومن كنيسة الى كنيسة للفرجة • كذلك زرت السجون الشهيرة هنا فأثارت استيائى • لعلك تذكر اننى دائم الاهتمام بالمشاكل الاجتماعية ، وقد ثرت على طبقة الارستقراطيين • كم اود لو أوتيت القدرة على القاء المدافعين عن ابناء هذه الطبقة فى اعماق السجون •

كان بايرون على حق عندما قال :

– « لقد وقفت فى فينيسيا على جسر التنهدات » وعلى كل فقد كان هو نفسه ارستقراطيا • لقد كنت دائما من دعاة التقدم • ان الجيل الصاعد يدعو كله للتقدم • ما رأيك فى الانجليز والفرنسيين ؟ سنرى الى اى مدى يمكن ان يصل نابليون الثالث وبالمرستون • لقد اصبح بالمرستون رئيسا للوزراء • ومهما قلت فانك يمكن ان تستهين بقبضة الروس • ان نابليون الثالث مجرم حقير •

انا لا أعرف شعورك ولكنى شخصيا مغتبط بالحرب • وارجو ألا أستدعى الى روسيا لأننى أنوى الذهاب من هنا الى فلورانسا وروما • أنا لا أستطيع الذهاب الى فرنسا ولذا فانى افكر فى الذهاب الى اسبانيا – يقال ان الاسبانيات جميلات ، ولو أن أسبانيا بلد الفقر المدقع والأمراض •

أنا لا يهمنى أن أذهب حتى الى كاليفورنيا – فليس

هناك ما لا نستطيع نحن الروس أن نفعله – ولكننى وعدت أحد الناشرين أن أقوم بدراسة مفصلة لمشكلة التجارة فى البحر المتوسط • قد تقول انه موضوع ممل ويحتاج الى تخصص ولكننا نريد المتخصصين وكفانا فلسفة • ان ما نحتاجه الآن هو التدريب والتمرين • ولكنك تبدو مريضا جدا يادمترى فاسيليفتش • ربما ضايقتك ولكن حتى لو كان الامر كذلك فسأمضى معك وقتا أطول •

وظل لوبويفاروف يتحدث هكذا فترة طويلة ووعد قبل خروجه أن يعود ثانيا •

أحس انزاروف بالارهاق من هذه الزيارة الطارئة فرقد على الاريكة وقال بمرارة :

– هذا هو نموذج الجيل الجديد • ان بعضهم يدعى الشجاعة ويتظاهر بها ولكنهم فى حقيقة انفسهم كالطبل الأجوف مثل هذا الشاب •

ولم تناقشه يلينا فقد أقلقها ضعف انزاروف فى تلك اللحظة أكثر مما اقلقتها حالة الجيل الجديد فى روسيا • فجلست الى جواره وتناولت شغل الابرة الذى كانت تعمل به ، كان انزاروف قد أغلق عينيه ورقد بلا حراك وقد بدا عليه الشحوب والضعف الشديد •• ونظرت يلينا الى ملامح وجهه البارزة والى ذراعيه الممتدتين ، واستحوذ على قلبها صوت مفاجىء • ونادت عليه بصوت رقيق :

– دمترى •

فتحرك ثم قال لها :

ـ هل رادتش هنا ؟

ـ كلا ، لم يحضر بعد • ولكن ألا تعتقد ـ انك محموم لاتبدو انك بخير ـ ألا ترى من الافضل استدعاء طبيب ؟

ـ هل أخافك ذلك الثرثار ؟ أنا لست فى حاجة الى طبيب وسأستريح قليلا وسيصبح كل شىء على مايرام• سنخرج ثانية بعد الظهر •

ومرت ساعتان وانزاروف لم يبارح الاريكة •ولكنه لم يستطع ان ينام ولو أنه لم يفتح عينيه • وجلست يلينا الى جواره ، وتركت شغل الابرة وظلت ساكنة •

واخيرا سألته قائلة :

ـ لماذا لا تنام ؟

فقال لها وقد أخذ يدها ووضعها تحت رأسه كالوسادة :

ـ انتظرى • ايقظينى عندما يصل راندتش • واذا قال ان السفينة على استعداد للرحيل فسنرحل فى الحال • ولابد أن نحزم أمتعتنا •

فقالت يلينا :

ـ لن يستغرق ذلك طويلا •

وقال انزاروف : بعد هنيهة :

ـ هل سمعت ما قاله ذلك الثرثار الاحمق عن الحرب فى الصرب ؟ أعتقد ان كل ما قاله كان من تأليفه •

ولكننا لابد أن نذهب على أى حال فليس هناك وقت نضيعه • كونى على استعداد •

ونام وكان كل شىء هادئا فى الحجرة •

وأسندت يلينا رأسها الى ظهر المقعد ونظرت من النافذة • كانت الريح قد اشتدت والسحب تسير مسرعة عبر السماء وشراع صغير يرفرف على بعد وترفرف عليه راية طويلة عليها صليب احمر •

كان بندول الساعة القديمة يهتز وكأنه يحدث بدقاته أنينا حزينا •

واغلقت تلينا عينيها • كانت قد امضت ليلة سيئة شيئا فشيئا استغرقت هى الأخرى فى النوم •

ورأت حلما غريبا • رأت انها فى قارب مع بعض الغرباء فى بحيرة تسارتسينو • وكانوا يجلسون فى صمت ودون حراك • لم يكن هناك من يجدف وكان القارب يتحرك تلقائيا • ولم تكن يلينا • خائفة بل كانت تشعر بالملل •

كانت تود لو انها عرفت من هم هؤلاء الاشخاص ولماذا كانت معهم • وبينما هى تنظر اخذت البحيرة تتسع ولم تعد بحيرة ، بل أصبحت بحرا هائجا تهز أمواجه العالية القارب • ثم ارتفع شىء مخيف فى دوى شديد من القاع فقفز رفاقها الغرباء وهم يصيحون ويلوحون

بأيديهم • وعرفتهم يلينا ـ كان والدها وأخذا منهم •
ولكن هبت عليهم عاصفة ثلجية واختلط كل شيء •

ونظرت يلينا حولها • كان كل ما يحيط بها أبيض ولكنه كان جليدا لا نهاية له ولم تعد هي في قارب بل وجدت نفسها على زحافة على غرار تلك التي ركبتها من موسكو • ولم تكن بمفردها فقد كان يجلس الى جوارها كائن صغير ملفوف في معطف نسائي قديم • ودققت يلينا النظر في رفيقها فتبينت انه كاتيا صديقتها الفقيرة فجزعت يلينا ، وقالت لنفسها :

ـ « كيف هذا ؟ الم تمت هذه الفتاة ؟ » ثم سألتها قائلة :

ـ الى أين نحن ذاهبون يا كاتيا ؟

ولم تجبها كاتيا بل جمعت حولها اطراف المعطف ـ فقد كانت تشعر بالبرد •

كانت يلينا هي الاخرى تشعر بالبرد • ونظرت امامها على طول الطريق ومن خلال ذرات الجليد المعلقة في الهواء •

رأت مدينة ذات أبراج عالية بيضاء ذات قمم فضية •
وقالت يلينا :

ـ هل هذه هي موسكو ياكاتيا ؟

وقالت يلينا ترد على نفسها :

ـ كلا هذا هو دير سولوفكس وهو يحتوى على كثير

من الصوامع الضيقة كخلية النحل ودمترى محبوس فيه ولابد لى ان اطلق سراحه •

•• وفجأة انفتحت عند اقدامها هوة عميقة واندفعت اليها الزحافة بشدة • وضحكت كاتيا وسمعت يلينا صوتا يناديها من الهوه :

ـ يلينا •• يلينا ••

رن الصوت واضحا في اذنها ينادى : يلينا • فحركت رأسها وتجمد الدم في عروقها عندما رأت انزاروف ابيض كالثلج ـ الثلج الذى رأته في الحلم ـ يجلس على الأريكة وهو يحملق فيها بعينين كبيرتين لامعتين مخيفتين وقد تدلى شعره على جبهته وانفرجت شفتاه بشكل غريب • كان وجهه قد تغير فجأة وارتسم عليه تعبير من الرعب المختلط بالرقة والالم •

وقال انزاروف :

ـ يلينا انني احتضر •

فركعت على ركبتيها واحتضنته الى صدرها وهى تصرخ ••

وقال :

ـ لقد انتهى كل شيء • انني أحتضر • وداعا ياحبيبتى المسكينة وداعا يا وطنى •• ثم سقط على ظهره•

وخرجت يلينا وهى تعدو في طلب الغوث • وأسرعت الخادمة لاحضار الطبيب • وتعلقت يلينا بانزاروف • وفي هذه اللحظة ظهر عند مدخل الحجرة رجل

عريض الكتفين لفحت الشمس وجهه وهو يرتدى معطفا ثقيلا وقبعة • ووقف الرجل مهبوتا •

فصاحت يلينا :

ـ راندتش ! لقد جئت اخيرا • بحق السماء تقدم وساعدني •

لقد اغمى عليه ! يا الهى ما الذى أصابه ؟ لقد خرج بالامس وكان منذ لحظة واحدة يتحدث معى •

ولم يقل راندتش شيئا وخطا جانبا ومر به رجل قصير هو الطبيب وكان يقطن فى نفس الفندق •• مقتربا من انزاروف ••

وقال الطبيب بعد لحظات :

ـ سيدتى ، لقد مات هذا السيد الاجنبى من هبوط فى القلب واضطراب فى الرئتين •

- ٣٥ -

فى اليوم التالى كان راندتش يقف امام نافذة الحجرة نفسها ، بينما جلست يلينا أمامه ملتفة بوشاح •

كان انزاروف يرقد فى تابوت فى الحجرة المجاورة • غاضت الحياة من وجه يلينا الذى بدا عليه الخوف • وكان جبينها مقطبا فاضفى على عينيها نظرة متوترة • كان هناك

خطاب من انا فاسيليفنا ملقى على قاعدة النافذة ، كانت تدعو فيه ابنتها للعودة الى موسكو لتمضى فيها شهرا على الأقل كما كانت تشكو من الوحدة ومن ستاكوف • وكانت ترسل تحياتها لانزاروف وتستفسر عن صحته وترجوه أن يسمح لزوجته بالسفر •

كان راندتش بحارا من دالماشيا وقد قابله انزاروف اثناء اقامته فى بلغاريا ولقيه اخيرا فى فينيسيا • وكان رجلا حازما قويا شجاعا كرس حياته للقضية السلافية ـ وكان يكره الأتراك والنمساويين •

وقالت له يلينا بصوت خلا من الحياة كوجهها :

ـ الى متى عليك ان تبقى فى فينسيا ؟

فقال :

ـ اننا نحتاج الى يوم لنقل التابوت دون ان نثير الشك وسوف نتجه بعد ذلك زارا مباشرة • انه خبر سىء ذلك الذى سأحمله الى مواطنى • لقد ظلوا ينتظرون انزاروف طويلا ووضعوا فيه آمالهم •

فرددت يلينا قوله بطريقة آلية :

ـ وضعوا فيه آمالهم •

ثم قال لها راندتش :

ـ متى ستوارينه التراب ؟

فأجابت يلينا بعد قليل :

ـ غدا •

ـ غدا ؟ اذن سأبقى · اننى أريد أن أرمى حفنة من التراب فى قبره · ثم لابد لى أن أساعدك · من المؤسف أنه سوف لا يدفن فى أرض سلافية ·

فنظرت يلينا اليه وقالت :

ـ خذنى معك على ظهر السفينة واحملنا عبر البحر بعيدا عن هنا ·

هل يمكنك أن تفعل ذلك ؟

فاطرق راندتش مفكرا ثم قال :

ـ نعم · ولكن هذا لن يكون أمرا سهلا اذ لابد لى أن أتحايل على السلطات اللعينة · ولكن لنفترض اننا سوينا هذا الامر وواريناه التراب هناك فكيف أستطيع أن أعود بك ·

ـ لا حاجة بك الى العودة بى ·

ـ ولكن أين تذهبين بعد ذلك ؟

ـ سأجد مكانا · فلا تقلق واصحبنا ـ خذنى معك ·

فحك راندتش رأسه وقال :

ـ كما تريدين · ولكن هذا يحتاج الى اجراءات كثيرة متعبة ·· سأذهب وأحاول · عليك ان تنتظرى هنا وسأعود خلال ساعتين تقريبا ·

وخرج · وذهبت يلينا الى الحجرة المجاورة واستندت

الى الحائط وظلت واقفة فترة طويلة وكانها قد تحولت الى تمثال · ثم ركعت على ركبتيها ولكنها لم تستطع أن تصلى · ولم تجرؤ على أن تسأل ربها لماذا لم يبق على حياته ولم يرحمه ولم يحفظه ولماذا عاقبه هذا العقاب الشديد الذى لا يستحقه · ان كلا منا يستحق هذا العقاب لمجرد أنه وجد على قيد الحياة · وليس هناك مفر مهما عظم ولا محسن مهما كثرت حسناته يستطيع أن يدعى لنفسه حق البقاء للأشياء المفيدة التى أداها · ولكن يلينا لم تستطع أن تصلى · لقد تحولت الى تمثال ·

وفى تلك الليلة رسا الى جانب الفندق الذى كانت فيه يلينا قارب ذو سطح عريض · ووضع فى القارب صندوق طويل مغطى بقماش أسود وجلست يلينا وراندتش بجواره · وأبحر القارب مدة ساعة تقريبا ثم رسا الى جانب سفينة راسية عند مدخل الميناء · وصعدت يلينا وصعده راندتش الى السفينة وتبعهم البحارة بالصندوق · وهبت عاصفة عند منتصف الليل ولكن السفينة كانت قد ابتعدت عن الليدو · عند الفجر زادت العاصفة عنفا واثناء النهار وكان البحارة المتمرسون يهزون رءوسهم خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه · فبحر الادرياتيك شديد الخطورة فى المنطقة بين فينيسيا وتريستا وساحل دالماسيا ·

وبعد أن غادرت يلينا فينيسيا بثلاثة أسابيع تلقت أنا فاسيليفنا فى موسكو الخطاب التالى :

والدى العزيز ووالدتى العزيزة · اننى أودعكما الى

الابد فسوف لا تريانى ثانية • لقد مات دمترى بالأمس وقد انتهى كل شيء بالنسبة لى • سأسافر الى زارا اليوم مع جثته وسأواريه التراب ولا أدرى ما سيحدث لى ولكننى لا وطن لى الان غير وطن دمترى • وهناك ثورة على وشك القيام والشعب يستعد للحرب • سوف أعمل ممرضة وأعتنى بالمرضى والجرحى • لا أدرى ما سيحل بى ولكننى سأظل وفية لذكرى دمترى وللقضية التى كرس لها كل حياته حتى بعد موته • وقد تعلمت اللغة البلغارية واللغة الصربية ولكننى قد لا أعيش بعد كل هذا ـ وهذا ما أفضله • لقد وصلت الى حافة الهاوية ولا بد لى أن أسقط • لم يكن ارتباطنا مصادفة • وربما أكون أنا التى قتلته وقد جاء دوره لكى يجرنى للموت • لقد كنت أبحث عن السعادة وقد وجدت الموت وأعتقد ان ما قدر سيكون • ويبدو أننى قد أذنبت ولكن الموت يخفى وينهى كل شيء أليس كذلك ؟ أرجو أن تغفروا لى كل ما سببته لكما من أحزان فلم يكن لى حيلة فى ذلك •

أما فيما يختص بالعودة الى روسيا فما الذى يجعلنى أعود ؟ وما الذى أستطيع أن أعمله فى روسيا ؟ أرجو أن تتقبلا قبلاتى الاخيرة ودعائى ولا تديناني •

« ى »

مضت حوالى خمس سنوات على هذا الخطاب دون أن تصل أى أخبار أخرى عن يلينا ، وراحت كافة الخطابات

والاستفسارات دون جدوى • وذهب ستاكوف بنفسه الى فينيسيا وزارا بعد توقيع ومعاهدة السلام ولكن بلا فائدة• وقد علم وهو فى فينيسيا ما علمه القارىء • أما فى زارا فانه لم يستطع الحصول على معلومات دقيقة عن راندتش أو عن السفينة التى استأجرها •

وكانت هناك اشاعات غامضة منها ان البحر قد قذف الى الشاطىء بعد عاصفة شديدة تابوتا به جثة رجل ، وذلك منذ بضع سنوات •

وقالت مصادر أخرى أكثر وثوقا ان التابوت لم يقذف الى الشاطىء ولكن حملته الى الشاطىء ودفنته بالقرب منه سيدة أجنبية قدمت من فينيسيا • وهناك من أضاف الى هذه الرواية أن هذه السيدة شوهدت بعد ذلك فى هرزيجو فينا مع جيش كان يجرى تكوينه ، وقد وصفوا ملابسها فقالوا انها كانت ترتدى ملابس سوداء تغطى كل جسمها • ومهما يكن من أمر فقد اختفى كل اثر ليلينا نهائيا وليس هناك من يعرف أهى ما زالت على قيد الحياة أم أنها مختفية أو أن حياتها قد انتهت واختطفها الموت •

قد يحدث أحيانا أن يستيقظ المرء ويسأل نفسه فى خوف :

ـ هل حقا انى قد بلغت الثلاثين ـ الاربعين ـ الخمسين من العمر ؟ كيف مرت الحياة بهذه السرعة ؟ وكيف اقترب الموت بهذا الشكل ؟ ان الموت كصياد السمك الذى

أمسك بسمكة فى شبكته ولكنه أبقاها فى الماء فترة من الوقت • فالسمكة لا تزال تسبح ، ولكنها سجينة سيخرجها الصياد من الماء متى أراد •

ولنا الآن أن نتساءل عما حدث لباقى شخصيات هذه القصة •

ان أنا فاسيليفنا لا تزال على قيد الحياة ولكنها تقدمت فى السن كثيرا ـ منذ النكبة التى حلت بها • انها لا تكثر الشكوى ولكنها كثيرا ما تشعر بالحزن والانقباض • وقد تقدم ستاكوف فى العمر هو الآخر وهجر أوجاستينا كريستيانوفا ، وهو الآن ينتقد كل ما هو أجنبى وترتدى مدبرة منزله وهى امرأة روسية جميلة فى حوالى الثلاثين من عمرها ملابس حريرية وخواتم وقرطا من الذهب • أما كورناتوفسكى وهو شخص متقلب الطباع يحب الشقراوات، فقد تزوج زويا التى أصبحت مطيعة وهادئة حتى أنها كفت عن التفكير بالألمانية •

وقد سافر برزنيف الى هيد لبرج على نفقة الدولة وزار برلين وباريس واستفاد كثيرا بوقته وسيصبح أستاذا قديرا • وقد نشر مقالين أثارا اهتمام الطبقة المتعلمة احدهما عن بعض النواحى الغريبة فى القانون الالمانى القديم فى حالات العقوبات القضائية • والآخر عن أهمية المبدأ الحضرى فى المدنية • ولكن الذى يؤسف له ان المقالين كتبا بأسلوب صعب ورد فيهما كثير من المصطلحات الأجنبية •

أما شوبين فانه فى روما وقد كرس كل حياته لفنه وأصبح يعتبر واحدا من أبرز المثالين الشبان وان كان بعض الفنانين يرى أنه لم يقم بدراسة كافية للنحت القديم وأنه ينقصه الاسلوب وهم يضعونه مع المدرسة الفرنسية• وتصله طلبات كثيرة من الانجليز والأمريكيين • وقد أثار تمثاله « الراهبة » استحسانا كبيرا حتى أن الكونت الروس بوبوشكين وهو من الاثرياء كان على وشك ان يدفع الف سكودى تمثاله ولا يزال شوبين يكتب من آن لآخر ليوفار ايفانوفتش وهو الشخص الوحيد الذى لم يتغير قط • وقد كتب له منذ فترة ليست بالبعيدة يقول : هل تذكر ما قلته لى تلك الليلة عندما علمنا بزواج يلينا المسكينة وأنا أجلس على فراشك أتحدث ؟ هل تذكر أننى سألتك ما اذا كانت روسيا سترزق يوما ما برجال حقيقيين ، فاجبتنى بانهم سيوجدون يوما ما ؟ هأنذا أسألك مرة أخرى من هنا •• من هذا المكان البعيد الجميل : هل سيوجد مثل هؤلاء الرجال ؟

أخذ يوفار ايفانوفتش يثنى أصابعه وهو ينظر الى الفضاء فى غموض ••

(تمت)